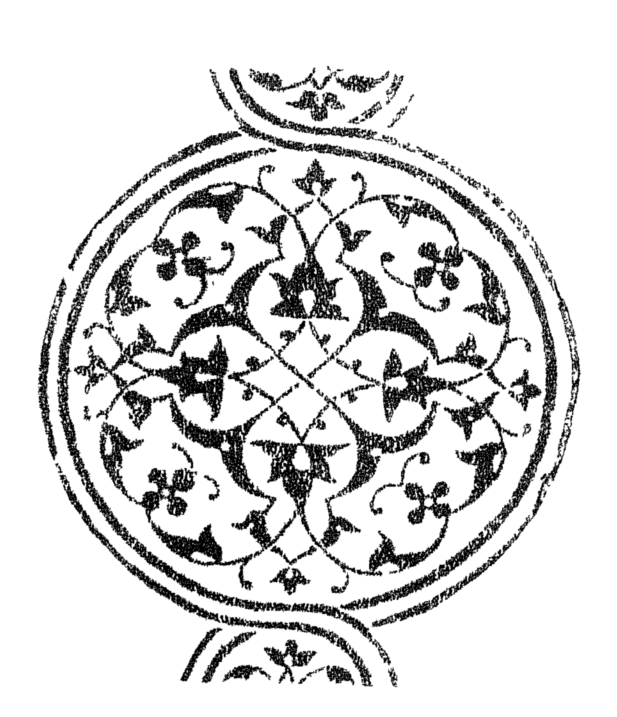




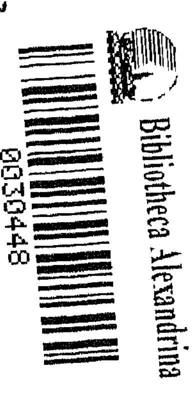
تأليف

اكبر فياض

ترجمة

الدكتور عبد الوهاب علوب

كلية الآداب - جامعة القاهرة





تاريخ الجزيرة العربية والإسلام

تأليف
الدكتور على أكبر فياض

ترجمة
الدكتور عبد الوهاب علوب
كلية الآداب - جامعة القاهرة

مركز النشر لجامعة القاهرة
١٩٩٣

الطبعة الأولى

1993 - H 1414

هذه ترجمة لكتاب:

تاريخ إسلام، تأليف: دكتر على أكبر فياض،
انتشارات دانشكاه تهران، شماره 1970

مقدمة المترجم

نهدف من ترجمة هذا الكتاب إلى محاولة الإسهام فى تعريف القارئ العربى بإضافات الباحثين الإيرانيين المعاصرين فى المعارف الإسلامية فى العصر الحديث كامتداد لإسهامات أسلافهم الجليلة فى نهر الحضارة الإسلامية العزيز .

صدر هذا الكتاب باللغة الفارسية فى عام 1970 تحت عنوان « تاريخ إسلام » فى سلسلة تصدرها جامعة طهران . ولد مؤلف الكتاب فى أسرة دينية فى عام 1899 بمشهد، وفى عام 1938 انتقل إلى طهران ، وفى عام 1944 حصل على درجة الدكتوراه فى الأدب الفارسى ، وزار مصر فى عام 1949 حيث قام بإلقاء محاضرات حول الأدب والمناهج الأدبية الحديثة بالجامع الأزهر وبالاسكندرية . وفى عام 1950 عاد إلى طهران ليقوم بالتدريس بالجامعة ، وفى عام 1959 تولى عمادة كلية الآداب ، وفى عام 1960 تولى بالإضافة إلى ذلك عمادة كلية الإلهيات ، وانتخب نائبا بالبرلمان لعدة دورات متعاقبة ويلم الدكتور فياض بالعربية والروسية والإنجليزية والفرنسية بالإضافة إلى لغته الأم وهى الفارسية

يضم الكتاب ستة فصول ، ويحتوى كل فصل على عدة عناوين جانبية ، فيتناول الفصل الأول جغرافية الجزيرة العربية ونمط الحياة البدوية والتوزيعات السكانية فى مختلف أرجاء الجزيرة والدول التى قامت فى كل من شمالها وجنوبها منذ عصر ما قبل التاريخ وحتى فترة ما قبل الإسلام ، ويستند المؤلف فى هذا الموضوع إلى ماورد فى المصادر الرئيسية باللغات الأوربية بالإضافة إلى المصادر العربية القيمة إلى جانب ماورد فى الكتب السماوية الثلاثة ، ثم يتناول المؤلف ديانات الشعوب التى سكنت الجزيرة العربية ودور الدين ومكانته فى الجاهلية ، وفى الفصل الثانى ينتقل الكاتب إلى وصف الحياة والظروف السياسية والاجتماعية التى سادت الجزيرة العربية أيام ميلاد النبى ﷺ وظهور الإسلام، كما يتناول المؤلف فى الباب نفسه أهم القبائل التى شاركت فى صنع الأحداث وخاصة بمكة ، ثم يعالج الكاتب بدء البعثة النبوية والقوى السياسية التى

ناصبت الدين الجديد العداء وأسباب ذلك .

وفى الفصل الثالث يتبع المؤلف ترتيبا زمنيا صرفا فى سرده للأحداث التى تلت هجرة النبى من مكة إلى المدينة فى خلال أحد عشر عاما ، أما فى الفصل الرابع فيؤرخ الكاتب لفترة الخلفاء الراشدين ويتبعه بفترة الخلافة الأموية والخلافات التى دارت حول كيفية صعودهم إلى السلطه فى الفصل الخامس ، وفى الفصل السادس يتحدث عن الدولة العباسية والقوى السياسية غير العربية التى أمسكت بزمام الدولة فى عصرهم بالإضافة إلى الدويلات التى أعلنت استقلالها فى عهدهم .

يحاول الكاتب فى إيراده للمعلومات التاريخية أن يتحرى الدقة والتوثيق الدقيق ويبذل جهدا فى إيراد مختلف الروايات والآراء التى تتعرض لموضوعه وهو من الأسباب التى كانت باعثا لنا على الإقدام على ترجمة كتابه ، ومن المصادر التى يعتمد عليها المؤلف فى بحثه *تاريخ اللغات السامية* لولفنسن و *الإسلام* للامنز و *سنى ملوك الأرض* لحمزة الأصفهانى و*تاريخ عربستان* لآقاى تقيزاده و*مروج الذهب* للمسعودى والطبرى وابن هشام وغير ذلك من المصادر التاريخية الموثوقة فى هذا الموضوع ، كما يتميز أسلوب الكاتب الذى اتبعه فى ذلك على إيضاح الفكرة لدى القارىء .

ويقوم المترجم من حين إلى آخر بالتعليق على بعض النقاط التى تحتاج إلى إيضاحات أو إلى زيادة فى التفصيل أو حين يبدى الكاتب آراء تنم عن شئ من التحيز لعنصره الفارسى ، والرجاء أن يوجه مزيد من الجهد فى مجال ترجمة الأعمال الهامة التى تدون باللغات الإسلامية من فارسية وتركية وأوردية فى العصر الحديث حتى يتمكن القارىء العربى من التعرف على فكر أبناء الثقافة الإسلامية فى مختلف أرجاء العالم الاسلامى

وعلى الله قصد السبيل

المترجم

الفصل الأول

الجزيرة العربية



جغرافية الجزيرة العربية

تعد الجزيرة العربية شبه جزيرة ضخمة تقترب فى مساحتها من ثلاثة ملايين كيلو متر مربع وتقع فى الطرف الجنوبى الغربى من قارة أسيا ، يحدها من الغرب خليج العقبة والبحر الأحمر (بحر القلزم) ومن الشرق خليج عمان والخليج الفارسى وأرض العراق ، ومن الجنوب خليج عدن وبحر عمان ، ومن الشمال صحراء شاسعة ممتدة فى سهل واسع منبسط تتصل فى أحد أطرافها بوادى الفرات وفى الطرف الآخر بأرض الشام وفلسطين ولا يفصلها حد طبيعى كالأنهار أو الجبال ، لهذا فقد اختلف الجغرافيون القدماء بشأن تحديد الحد الشمالى للجزيرة العربية ، فاعتبره بعض منهم خطا يمتد من ساحل البحر المتوسط إلى مصب نهر الفرات ، وزاد بعض آخر على ذلك ، وأنقص آخرون [1] . ولكن فى خضم التطورات السياسية التى طرأت فى أعقاب الحرب العالمية الأولى أصبحت الجزيرة العربية تحدها شمالا دولة الأردن حديثة الإنشاء من ناحية ، ومن ناحية أخرى دولة العراق ، ومن ثم فقد انقطع اتصالها بنهر الفرات والبحر المتوسط وللبحر الأحمر فى حدوده الشمالية خليجان ضيقان ، أحدهما شرقى ويطلق عليه اسم خليج العقبة والآخر غربى ويسمى خليج السويس ، وتسمى الأرض الواقعة بين هذين الخليجين شبه جزيرة سيناء التى ورد ذكرها فى تاريخ الأديان مرارا وتكرارا ، وتتبع شبه جزيرة سيناء دولة مصر إلا أنها من حيث التكوين الجغرافى الطبيعى تشبه جزيرة العرب تماما .

وتعد جزيرة العرب هضبة عالية تنخفض إذا اتجهنا من الغرب إلى الشرق تدريجيا ، وعلى امتداد الحد الغربى من جزيرة العرب بدءا من شبه جزيرة سيناء وربما من لبنان سلسلة جبلية على امتداد ساحل البحر الأحمر وتشبه فى شكلها جدارا هائلا يلتف من الركن الجنوبى الغربى على امتداد الساحل الجنوبى والشرقى لجزيرة العرب وحتى الخليج الفارسى ، وبهذا فإنه يحيط بالجزيرة بهذا الجدار الجبلى من ثلاثة أطراف ، وتتخلل هذه السلسلة الجبلية وديان عديدة تختلف مساحتها ضيقا واتساعا وتنفصل الجبال أحدها عن الآخر وفى بعض المناطق يمتد الجبل حتى ساحل البحر،ولكن فى معظم النقاط هناك فاصل

---

(1) راجع معجم البلدان ، مادة جزيرة العرب

أرضى يفصل بين الجبال والبحر وهى المنطقة التى يطلق عليها العرب اسم « تهامة » ، وقد أصبح هذا الاسم العام اسما يطلق على إقليم خاص ، كما سنرى فيما بعد .

وجبال الجزيرة العربية فى معظمها تتكون من صخور جرانيتية باللون الأبيض أو الأحمر، وترى فى أجزاء منها جبال بركانية خامدة كان بعضها ثائرا فى العصور القديمة ، وفى بعض المناطق ترى أراض سوداء اللون يطلق عليها العرب اسم « الحرة » وهى عبارة عن حمم البراكين القديمة .

وفى داخل هذا الحصار الجبلى صحراء ،أو بمعنى أصح صحراوات شاسعة يطلق عليها هضبة الجزيرة العربية نظرا لارتفاعها عن مستوى سطح البحر . ويمكن تقسيم هذه الهضبة من شمالها إلى جنوبها إلى ثلاثة أقسام من ناحية موقعها الجغرافى ؛ القسم الأوسط وهو أشد نتوءا من القسمين الآخرين ويطلق عليه اسم « نجد » وهى تعنى فى اللغة العربية « المرتفع من الأرض » ، والقسم الشمالى عبارة عن أرض حصباء تعرف باسم « النفود » وتتصل من طرفها الشمالى بصحراء الشام (بادية الشام) ، والقسم الجنوبى هو أرض حصباء قفرة تعرف باسم « الدهناء » ويمتد طرفها جنوبا حتى يقترب من بحر عمان

.كما ذكرنا من قبل ،فإن هضبة جزيرة العرب تنخفض تدريجيا من الغرب إلى الشرق ، وطرف هذا المنخفض على سواحل الخليج الفارسى ونهر الفرات على هيئة سهل ضيق من نوع سهل ما بين النهرين وسهل خوزستان لا يرى فيه سوى عدد من التلال العالية ، ويبدو أن هذا السهل - أى سهل خوزستان - كان امتدادا لهذا المنخفض السهلى قبل تكون الخليج الفارسى

* * *

كان الجغرافيون الإعريق من عهد استرابن يقسمون جزيرة العرب إلى ثلاثة أقسام · جزيرة العرب الصحراوية ، جزيرة العرب الصخرية ، وجزيرة العرب السعيدة ، وكانوا يطلقون اسم « جزيرة العرب الصحراوية على بادية الشام . وجزيرة العرب الصخرية عبارة عن منطقة تسمى « البتراء » تقع فى الشمال الغربى من جزيرة العرب (وسيرد ذكرها فيما بعد) ، أما بقية جزيرة العرب ، بدءا من جنوبى بادية الشام ، فكانوا يطلقون عليها

اسم « جزيرة العرب السعيدة [1] » ، وكان بعض علماء أوربا يظنون أن ثمة ارتباطا بين لفظ « السعيد » ولفظ « يمن » العربيتين بمعنى أن « اليَمَن » (اسم المنطقة) مأخوذ من « يُمْن » بمعنى « الخير والبركة » ، وقد أخذ الإغريق هذا المعنى فى تسميتهم لاسم «السعيد » ، فى حين أن علماء العرب يرون أن اسم « اليمن » مشتق من « اليمين » ضد « اليسار [2] » .

ولكن العرب أنفسهم اتبعوا نهجا آخر فى تقسيم جزيرة العرب ؛ فالقسم الجبلى الغربى الذى يعرف باسم « سراة » ويعد أكبر جبال جزيرة العرب وامتداده من الشمال إلى الجنوب هو المرتكز فى عرفهم،وطرفه الغربى الذى يمتد من الجبل وحتى البحر الأحمر يطلق عليه اسم « تهامة » أو « الغور » . أما طرفه الشرقى وحتى الجزء المرتفع فقد أسموه « نجد » ، وأطلقوا على الجبل الذى يفصل بين نجد وتهامة اسم « الحجاز » ، ويطلقون اسم « العروض » على أطراف نجد والتى تنتهى عند الخليج الفارسى وتضم اليمامة والإحساء وعمان وما حولها ، واليمن هو الذى يقع إلى الجنوب من الحجاز ونجد ويضم حضرموت ومهرة وشحر . وبناء على هذا ، فإن جزيرة العرب تنقسم إلى خمسة أقسام كبرى هى الحجاز وتهامة ونجد والعروض واليمن ، وكل قسم منها ينقسم بدوره إلى أقسام أصغر ، وأقسام اليمن على وجه الخصوص يطلقون عليها اسم « مخلاف » ، ويطلقون على المنطقة التى تشرف بادية جزيرة العرب منها على الشام اسم « مشارف الشام » .

الحياة فى الجزيرة العربية :

تعدالجزيرة العربية ، بحكم وقوعها فى المنطقة الحارة تحت الاستوائية ، من بين المناطق الشديدة الحرارة ، وفى الأراضى المنخفضة منها من قبيل تهامة وفى داخل الأودية تشتد الحرارة بصورة شديدة وفى الصيف لا يطيق سكانها أنفسهم الحياة بها ، ولا تخف وطأة الحرارة نسبيا إلا فى المناطق المرتفعة حيث تصبح محتملة كمناخ نجد والجبال المطلة عليها مثل الطائف،وحتى فى نجد نفسها نادرا ما تنخفض الحرارة فى ليالى الشتاء إلى درجة

---

(1) A A Thomas, Arabia Felix, (1938) P xT 1

(2) معجم البلدان ، مادة « يمن »

الصفر ، والقمم الشديدة الارتفاع تغطى بالثلوج أحيانا ولفترات وجيزة ولا تدوم أكثر من أسابيع قلائل . وتعتمد الأمطار فى شبه الجزيرة العربية على نظام رياح المحيط الهندى فى الجنوب والبحر الأبيض المتوسط فى الشمال . وبالطبع ، فإن نظام الأمطار يختلف كذلك باختلاف وضع كل منطقة أى الاختلاف بين الصحراء والمناطق الجبلية والمنخفضات والمرتفعات واتجاه امتداد الأودية وما إلى ذلك ، وتمتاز المناطق الجبلية التى تقع فى مواجهة الرياح الممطرة القادمة من المحيط مباشرة كاليمن وحضرموت وعمان بدرجة عالية نسبيا من الخصوبة والرطوبة إذا قورنت بالهضاب الداخلية التى تحجبها الجبال ، وكذلك بالجبال الشرقية والشمالية التى لا تحصل على نصيبها من الأمطار إلا من بقايا أمطار البحر المتوسط كالحجاز ، وفى جدة مثلا نجد المناخ يمتاز بالرطوبة العالية نسبيا على مدار السنة نظرا لقربها إلى البحر الأحمر وبتأثير من الرياح الشمالية الغربية (القادمة من المتوسط) ، وفى الوقت نفسه تتميز بالحرارة العالية نسبيا بسبب انخفاض مستوى الأرض بها ، فى حين تمتاز مكة بالجفاف الشديد نظرا لوقوعها بين حلقة من الجبال .

وفيما عدا القسم الجنوبى الغربى منها أى اليمن التى يمكن القول أنها تتمتع بنظام أمطار منتظم وكاف لها فإن الأمطار فى سائر بقاعها غالبا ما تتسم بعدم الانتظام وفترات الانقطاع ، وعادة ما يسقط فى الشتاء وبدايات الربيع ، وتستمر فترات الجفاف مدة ثلاث سنوات أحيانا ، وفى بعض الأحيان تأتى بعض السنوات بوفرة من الأمطار وبكميات كبيرة وغزيرة لدرجة تدفق سيول عارمة فى غضون ساعات قلائل ، وتحمل فى طريقها الخيام والماشية الخاصة بسكان الوادى [1] ، إلا أن هذه السيول لا تدوم طويلا حيث تغوص فى الرمال والحصباء . والحقيقة أن الجزيرة العربية ليس بها مصدر للمياه يمكن أن نطلق عليه اسم « نهر » ، أحيانا تظهر المياه التى تغوص فى الرمال على شكل ينابيع وعيون وقنوات فى الأرض الأكثر انخفاضا فتشكل الواحات . ولكن بصورة عامة ، فإن شبه الجزيرة العربية تعد بالفعل منطقة شديدة الجفاف ، ويعتقد علماء الأرض أن صحراء الجزيرة العربية الجنوبية كانت فى عصر ما قبل التاريخ منطقة بحرية بها أنهار وأرض خصيبة يانعة ثم تحولت شيئا فشيئا إلى منطقة جافة حتى أصبحت على ماهى عليه، ويعتقدون أيضا أنها تضم فى باطن أرضها مياها وفيرة يمكن استخراجها بغرض تغيير

(1) Lammens, L'Islam, p 6

صورتها فوق الأرض نحو الأفضل .

ينقسم سكان هذه الأراضى إلى قسمين : بدو وحضر ، والبداوة وهى الشكل البدائى للحياة لا تزال تمثل أسلوب حياة معظم سكانها ، وقد تصل نسبة البدو بين العرب اليوم إلى ثمانين بالمئة ، ويحتفظ البدو بالخصائص الأصيلة للعرق العربى بصورة أكبر منها لدى الحضر منهم ، بحكم أنهم ظلوا بعيدين عن الاختلاط بالأقوام الأخرى فى خارج الجزيرة العربية .

ويمتاز البدوى العربى نوعا ما بالقامة المتوسطة والنحافة نسبيا نظرا لمقتضيات أسلوب حياته ، إلا أنه فى الوقت نفسه يمتاز بالذكاء والقوة على غير ما يوحى به ظاهره ، كما يتصف بالعارض المسحوب غالبا والعيون الداكنة الحادة ، وعادة ما تتسم نظراته بالجدة والقسوة بحكم التعود على مراقبة الأفق فى البوادى خوفا من الأعداء ، والسمة البارزة للبدوى هى حرصه على الاستقلالية والحرية الفردية والحياة الطليقة . لذا ، فإنه يضيق بحياة المدن التى تقتضى التقيد بنظام محدد ، ويفضل عليها الحياة الخشنة القاسية .

وبيت البدوى عبارة عن خيمة سوداء من الصوف ، وكل خيمة تضم أسرة ، ومجموع عدة خيام أى عدة أسر يعد حيا ، وتشكل كل عدة أحياء دماء قبيلة واحدة ، ولكل حى رئيس يسمى شيخ له ولاية الحكم والفصل بين الأفراد فى المنازعات والخصومات ، وفى أوقات الحرب أو النقل والترحال من مكان إلى آخر يتولى أمر القيادة والإرشاد ، وتنتقل هذه المكانة أو الزعامة عن طريق الإرث ، إلا أن العقل والشجاعة والسخاء تعد كذلك من شروطها ، ولما كانت أغلبية الأفراد لا يملكون ما يؤدون به متطلبات كرم الضيافة نظرا للفاقة الشديدة فإن شيخ القبيلة هو الذى يقوم بضيافة الضيف فى خيمته ، وإن استطاع فإنه يحصل من القبائل الأضعف جزية تسمى « أخوة » أى أنه تلزمهم إخوة له وفى أى الأحوال ، فإن الشيخ يلتزم بمراعاة رأى الجماعة .

ورغم سمات كرم الضيافة وحماية الجار التى يزهو بها البدو فإن السفر فى البادية يقتضى رفقة حام أو خفير ، والحقيقة أن قسوة الحياة وخشونتها أو « شقاء البادية » على حد تعبيرهم يؤدى إلى جعل الإغارة والقتل من مستلزمات الحياة فى الصحراء ، وكان ما يحول دون تعدى الأفراد والقبائل على بعضها البعض طبقا للتقاليد الشديدة القدم مراعاة

حرمة الدم من ناحية وقانون الثأر الصارم الذى يطبق بدقة متناهية . وحتما وبمقتضى هذا العرف أو القانون فإن وارث القتيل لا يحمل له دم القتل وماله وحسب بل ودم كل ذويه ومالهم إلا إذا قامت قبيلة القاتل بطرده منها ، وفى هذه الحالة يقتصر الثأر على القاتل وحده .

ويلجأ الضعيف فى سبيل البقاء إلى الاحتماء بالقوى درءا لخطر الأقوياء ، ويسمى فى عرف العرب « دخيلا » ، كما يحتمى من اقترف جرما بشخص له نفوذ طمعا فى تخفيف العقوبة عن نفسه ، وتعقد القبائل معاهدات فيما بينها فى مواجهة القبائل الأقوى وتتم مراسم عقد التحالف فى طقوس خاصة .

إن حياة البادية هى حياة صراع بصورة عامة؛لذا ، كان العربى البدوى بالطبع مستعدا دوما بالشروط والمتطلبات اللازمة لمثل هذه الحياة ، فهو محارب لا يهاب ورام ماهر وفارس مقدام ذكى ، إلا أنه بالطبع فاتك يرجح الكمائن والغيلة على المواجهة المباشرة ، وخاصة بالأسلحة النارية التى حلت اليوم محل السهام والأقواس القديمة فى البادية .*

رغم أن بعضا من قبائل البدو فى بعض المناطق المحاورة للعراق وبادية الشام تشتغل بالزراعة على نطاق ضيق إلا أن الحرفة العامة للبدو هى الرعى وتربية الإبل والماعز ، وفى أعقاب سقوط أمطار الشتاء والربيع تزدان البادية بقدر محدود من الخصوبة وفى الصحراء الطاغية ثمة تلال رملية تحصل على الأمطار من ريح الشمال المحملة بالمياه من البحر فتخضر . وحين تزدهر الخضرة يرتحل البدو زمرا عن مقارهم الشتوية إلى السهول المخضرة ، وبعد الرعى فى المنطقة المخضرة يرتحلون إلى منطقة مخضرة أخرى ، وبعد هذا الفصل من السنة فصل الخير والسعادة بالنسبة للبدوى ، إنه الوقت الذى يقول فيه أحد الكتّاب العرب « تمتلىء فيه بطون الأطفال النحفاء ويترعرعون من وفرة اللبن » . أما الجمل الذى يعد الأساس الذى تقوم عليه حياة البدوى ورأس ماله فإنه ينتعش فى هذه المراعى ويضمن للبدوى الحياة،وفى هذا الترحال فى الوادى يستفيد البدوى من الأعشاب

---

* هذا بالطبع حكم عشوائى يقع فى خطيئة التعميم والإغراض ، فمثل هذه الأحكام لا يمكن الحكم بها على أى عرق من الأعراق ، وإنما تختلف من فرد لآخر ومن طرف لآخر . (المترجم)

الخضراء الطبيعية ومن صيد الحيوانات ، ويحصل البدوى على سائر احتياجاته من خلال مقايضة محصوله الصحراوى فى المدن ويمضى أوقات فراغه فى حلقات الشعر والأدب التى تقام فى البادية . ولكن هناك ، كما سبق أن ذكرنا ، سنوات يعم فيها القحط والجفاف أيضا ، وتعقبها أنواع عديدة من الأمراض التى تلازم الجفاف ونقص الغذاء ، وفى هذه الحالة تنقطع سلسلة الحياة فى البادية ويبلغ الفقر والحاجة منتهاه ، فيتفرق البدو جماعات فى المدن والمناطق المحيطة أو يتجهون إلى الإغارة على القبائل التى تملك شيئا ، والفاقة فى البادية رغم عموميتها إلا أنها على درجات متفاوتة ؛ فالعربى ساكن البوادى على سبيل المثال ، يستطيع بيع اللبن والزبد فى الأسواق ويعد ذا مال وأكثر اقتدارا من العربى المعدم الذى لا يملك سوى ردائه المصنوع من جلد الغزال الجاف ولحم صيده ولاشىء يبيعه فى السوق .

ويفاخر البدوى بأنه ليس « فلاحا » . لذا ، فإنه حتى لو كان يمتلك مزرعة فإنه يأتى بالعمال والأجراء لفلاحتها وكانوا فيما مضى يسخرون العبيد والأسرى لهذه المهمة ، وكانت الأراضى الزراعية فيما مضى ملكا للقبيلة وكان يتم تقسيمها كل سنة فيما بين الأفراد لفلاحتها ، وكان كل فرد يحصل على محصوله الذى قام بزراعته لنفسه ثم آلت ملكية هذه الأراضى إلى الأسرة وشيئا إلى الأفراد ، إلا أن المراعى ملك مشاع للقبيلة كلها ولكل قبيلة مرعى مستقل .

إن فكر البدوى لا يتجاوز مفهوم القبيلة ولا يستطيع أن يتصور مجتمعا أكثر كمالا . كما أن البدوى ليس لديه فكر اجتماعى ولا يتعدى حدود المنفعة الفردية ، ومن هنا تنشأ كل عيوب حياته ونظرا لهذا النهج الفكرى الفردى ، فإنه لا يستطيع أن يقيم نظاما حكوميا منظما ومجتمعا مكتمل الأركان ، وطالما ظل البدوى بلا سلطة تحكمه فإنه يظل عرضة للتشتت والفرقة

إن قسوة البادية ومساحها تؤكد هذا الميل إلى الفردية وتدعمه ، والبدوى العربى يشبه فى ذلك سكان البوادى فى كل مكان ولكن هذه الحياة المعزلة تؤدى فى ذات الوقت إلى اعتماد البدوى على نفسه وإلى الاستفادة من قوته إلى أقصى درجة ممكنة وحفظه من المساوىء التى تلازم المخالطة . وعلى أية حال ، فإنه لا ينبغى النظر إلى البدو من العرب

على اعتبار أنهم من بين البدائيين الذين يعيشون فى أفريقيا مثلا ؛ فالعربى البدوى أشد تحضرا من بدائيى أفريقيا ، وفى المجال الاجتماعى فهم يساوون يهود عصر أحداد العبرانيين ، والدليل الواضح على ذلك الأدب العربى الجاهلى الذى يدل على ولع القوم بالشعر والبيان وتنوع الأوزان وقوالبها مما يدل على فن عال ومهارة راقية ، صحيح أن الشعر الجاهلى نادرا ما يحوى أفكارا سامية ومضامين أخلاقية وعقائدية أو فكرا عاليا بصورة عامة حيث ينصب معظم اهتمامه على قوة البنيان إلا أنه لا يخلو من جاذبية واتزان ، وهو بصورة عامة يعد نموذجا للروح الفردية البدوية وانعكاسا لانسجام الحياة في البادية .

* * *

للحياة الحضرية وجود فى بعض مناطق شبه جزيرة العرب منذ أقدم الأزمنة ، وهذه المناطق ، جزء منها ، عبارة عن مناطق زراعية والجزء الآخر مناطق تقع على طرق تجارية وترتبط بالتجارة ، وتضم المنطقة الجبلية الجنوبية بالجزيرة من اليمن وحتى عمان مناطق زراعية عديدة نسبيا ، خاصة اليمن التى يطلق عليها العرب « اليمن الخضراء » لما تتمتع به من خضرة وخصوبة ، وفى مزارعها وحدائقها تزرع أنواع من محاصيل البحر المتوسط وكذلك محاصيل الأقاليم الحارة كالبن ، وفى وديان حضرموت وعمان ثمة قنوات مغطاة للماء ، وفى الإحساء يزرع الأرز ، ويزدهر النخيل كعنصر مشترك فى كل هذه المناطق عامة ويعد رمزا للعرب وشبه جزيرتهم ، وفى معظم المناطق الساحلية تنتشر حرفة صيد الأسماك ، وفى إقليم المهرة يعتمد الأهالى فى عيشهم على الأسماك بل وفى إطعام إبلهم ، وفى مناطق الإحساء والبحرين يمثل صيد اللؤلؤ حرفة خاصة للأهالى ، وفى وسط الفيافى هناك من يعيش من الناس فى واحات حيث يزرعون النخيل على مياه الينابيع والآبار ، وهذه مناطق حضرية ومدن قائمة فى تلك البقاع منذ القدم ، بل وتضم حضارات ودولا ، كما سنرى فيما بعد وما يمكن أن يطلق عليه اسم « قرية » بالجزيرة العربية عبارة عن قلاع حصينة ترى أحيانا فى مناطق بعيدة عن المدن وربما كانت درءا لهجمات البدو ، وفى المدن ، هناك أيضا منازل حصينة وتضم غالبا عدة طبقات لا تخلو من شبه بالقلاع ، وتبنى المبانى عادة من الطين وتطلى من الخارج بالجير ، والحارات فيها ضيقة ومتداخلة . إلا أن العامل الأهم فى قيام مدن شبه جزيرة العرب هو التجارة ، فهذه

الأرض القاحلة تمتاز بوقوعها على أول الطريق إلى أسيا وأوربا . لذا ، فقد لعبت دورا هاما منذ القدم فى التجارة بين هاتين القارتين .

لم يكن السفر بالبحر فى الأزمنة السالفة يسير كما هو اليوم ، وكان الطريق القاحل الموحش فى البر يرجح السفر بالبحر ، وخاصة حين يكون أقصر من نظيره البحرى ، لهذا فعندما كانوا يريدون نقل البضائع الهندية والصينية إلى أوربا أو إلى مصر فقد كانوا ينقلونها بالسفن إلى الجزيرة العربية فقط ثم يتم نقلها من هناك عن طريق قوافل الإبل إلى موانى شرق البحر المتوسط أو خليج العقبة . وفى أوربا القديمة ، كان الأوربيون يعتبرون بضائع الهند من إنتاج الجزيرة العربية لقدومها عن طريق الجزيرة العربية ، وكان معظم هذه البضائع عبارة عن ذهب وأحجار كريمة وأدوية معطرة وأحيانا حيوانات وطيور نادرة كالطاووس والقرد . وللجزيرة العربية أيضا حاصلات تصديرية هامة فى بقاعها الجنوبية ومنها البخور ومشتقاته إلى الصمغ الذى يحرق فى المعابد ويزداد استهلاكه فى أوربا فى المراسم والطقوس الدينية بالإضافة إلى استعمالاته الطبية فى سفر حزقيال الذى يعد من أسفار « العهد القديم » وينتمى إلى القرن السادس قبل الميلاد ، ويتحدث عن تجارة التجار العرب فى الماعز والكباش وغيرها فى ميناء صور[1] ، ويتضح من نقش دون بالخطين المعينى والإغريقى وجد فى جزيرة دلوس اليونانية ويرجع فى تاريخه إلى عام ١٣٥ قبل الميلاد أن بعضا من تجار معين كانوا يقيمون فى تلك الجزيرة وشيدوا محرابا لآلهتهم[2] .

وفى الجزيرة العربية كانت هناك عدة طرق تجارية ازدهر كل منها فى عهد من العهود ولأسباب مختلفة ، والطريق فى الصحارى غالبا عدة طرق تجارية ازدهر كل منها فى عهد من العهود ولأسباب مختلفة والطريق فى الصحارى غالبا مالا يكون اختياريا ، فلابد للمسافر وللقافلة أن تأخذ فى اعتبارها وجود واحات على الطريق ، وكانت الطرق التجارية فى شبه الجزيرة العربية بمثابة خطوط اتصال بين خليج عمان والخليج الفارسى من

(1) حزقيال ، باب 27 آية ، 21

(2) آقاى تقيزاده ، تاريخ عربستان ، قسمت 3 ، ص 20

ناحية والبحر المتوسط ومصر من ناحية أخرى .

وكان ثمة طريق شمالية تبدأ من الخليجين المذكورين (وخاصة من ميناء عمان) وتنتهى إلى ميناء صور عاصمة فينيقيا مرورا ببادية الشام وفلسطين ، أو يمتد إلى خليج العقبة وميناء غزة عن طريق سوريا وفلسطين بهدف الوصول إلى مصر ، وعلى هذه الطريق كانت هناك مدن هامة وواحات حيوية من قبيل بابل والحيرة ودومة الجندل (الجوف حاليا) وتدمر وغيرها مما ترى أطلال بعضها حتى اليوم فى قلب الصحراء ، وكانت هذه الطريق تربط العراق بالبحر المتوسط ومصر ، ويرى لامانس الباحث البلجيكى أنه كانت هناك حركة تجارية نشطة فى شمال شبه الجزيرة العربية على ضفاف نهر الفرات من فتحة شط العرب وإلى مشارف الشام ، وكان أعراب بنى تغلب يسيطرون عليها [1] .

والطريق الأخرى طريق شبه الجزيرة العربية الجنوبى ؛ فكانت السفن القادمة من الهند تفرغ حمولتها فى ميناء عمان أو أحد الموانى الأخرى فى الجنوب لتحملها قوافل العرب بموازاة الساحل الجنوبى إلى اليمن ومنها بموازاة البحر الأحمر أى من أرض تهامة المستوية إلى شبه الجزيرة العربية الصخرية (البطراء) ومنها إلى ميناء أيلة على خليج العقبة أو ميناء غزة على البحر المتوسط . وعلى طول هذا الطريق ، كانت هناك مدن زاهرة فى جنوب شبه الجزيرة من عمان إلى اليمن ، ومن اليمن إلى البطراء أيضا كانت هناك واحات هامة عديدة ومن بينها مكة والمدينة على نفس هذا الطريق ، كما سيرد الذكر فيما بعد .

ويبدو أن هذا الطريق الجنوبى كان يأتى فى المقام الأول فى العهود القديمة ، ثم يتلوه الطريق الشمالى فى الدرجة الثانية من حيث مروره بمراكز إنتاج المحاصيل الجوبية بشبه الجزيرة وفى أنه لم يكن قاصرا على دوره كمعبر لبضائع الهند . وكان سبب تدهور مكانة هذا الطريق أن الرومان الذين حكموا مصر حول الميلاد قد أقروا الملاحة فى البحر الأحمر من باب المندب وحتى مصر بعد وقوفهم على سر الرياح الموسمية ، وبالتالى صارت القوافل التى كانت تعمل بين جنوب شبه الجزيرة ومصر مهددة بالتوقف وبدأت المدن التى ازدهرت على هذا الطريق فى الخراب وترى أطلالها اليوم هناك ، وهاجرت بعض القبائل من الجنوب إلى الشمال حيث كان طريق الشمال لا يزال على أهميته ، إلا أن اليمن

(1) Lammens , la Mecque , 107

ونواحيها كانت بها حركة تجارية نشطة مع الشمال لكونها مركزا إنتاجيا ، وخصصت قوافل قريش فصل الشتاء لرحلة اليمن من مكة ، كما ورد ذكرها فى القرآن[1] .

كانت هذه الحركة التجارية تمثل مجالا عريضا لأعمال العرب ، فاتخذ بعض منهم سكنا على الطرق والمنازل وأقاموا تجارة ، وتولى عدد آخر منهم مهمة النقل والخفارة لهذه الطائفة دون التخلى عن حياتهم البدوية ، فى حين أفاد بعض آخر منهم عن طريق فرض الإتاوة أو الإغارة على القوافل .

وهل كان هؤلاء وغيرهم من سكان المدن هم نفس الأعراب البدو الذين تغيرت أوضاعهم أم كانوا أصلا شعبا آخر أتى من مكان آخر ؟ للوقوف على هذا الموضوع ينبغى النظر فى تاريخ الجزيرة العربية القديم .

العرب البائدة :

المصادر التى بين أيدينا فيما يتعلق بالجزيرة العربية قبل الإسلام هى :

١ - كتابات المؤرخين العرب .

٢ - أسفار التوراة وسائر الكتب اليهودية القديمة .

٣ - كتابات الإغريق والرومان والسريان .

٤ - الآثار القديمة فى الجزيرة العربية نفسها ، أو فى البلدان المجاورة لها كمصر وسوريا وبين النهرين

ويعد جزء من كتابات المؤرخين العرب روايات انتشرت بين العرب أنفسهم ولها جذور تاريخية على الرغم من كل ما امترجت به من أساطير ومبالغات على مر الزمان ، أى أنها روايات محرفة لوقائع تاريخية قديمة ، فى حين أن جزءا آخر منها عبارة عن موضوعات اقتبست من أخبار اليهود والقساوسة النصارى من السريان واليونان ممن كانوا على اتصال بالعرب .

(1) سورة قريش ، ورد فى الكشاف . " كانت لقريش رحلتان يرحلون فى الشتاء إلى اليمن وفى الصيف إلى الشام فيمتارون ويتجرون " .

أما ما ورد بالتوراة وغيرها من الكتب القديمة فيما يتعلق بالعرب فينصب معظمه على أنساب القبائل وقدر ضئيل من النصوص المتعلقة بالتجار العرب ، وتقدم الكتابات الإغريقية وغيرها من الكتابات الخارجية معلومات أشد تفصيلا ودقة عن شبه جزيرة العرب وتفيد فى فهم الروايات العربية وتصحيحها وإكمالها دون شك ، وتلقى الإكتشافات الأثرية التى تمت فى العصر الحديث أضواء على تاريخ شبه الجزيرة العربية القديم وتقدم معلومات جديدة لم يرد لها ذكر فى الروايات القديمة حتى أصبح تاريخ شبه الجزيرة العربية اليوم واحدا من الأفرع الكبرى لعلم التاريخ له علماؤه الكبار وكتبه الهامة. ورغم ذلك ، فإن تاريخ شبه الجزيرة العربية لا يزال ناقصا ، ويحتاج إلى تحقيقات واكتشافات مستقبلية ، وله مستقبل عريض على المدى البعيد حيث لم يبدأ التنقيب بعد فى أراضى الجزيرة العربية ، وما هو بين أيدينا اليوم لا يزيد عن نقوش وآثار فوق سطح الأرض

إن شبه الجزيرة العربية تعد الموطن القديم للأقوام الساميين ، وقد تكون أيضا مهد هذا العنصر البشرى وهو ما يعتقده عدد غير قليل من العلماء المحدثين ، فمنذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد خرجت القبائل السامية كأمواج البحر واحدة تلو الأخرى من هذه البقاع وانتشرت عن طريق بادية الشام إلى البلاد العامرة المجاورة إلى مصر ، فالأشوريون والبابليون القدامى والكنعانيون والعبرانيون والنبط كانوا جميعا من هؤلاء المهاجرين وكانت هجرات العرب فى زمن الفتوحات الإسلامية آخر حلقات الهجرات الكبرى من شبه الجزيرة .

ربما كان لفظ " عرب " فى الأصل معناه " البدوى " و " وساكن الصحراء " . ويتبين من نقوش الجزيرة العربية أيضا أن هذه الكلمة كانت لا تطلق إلا على البدو ، فكان يقال على سبيل المثال " عرب ملك سبأ " و " عرب ملك حضر موت " أى البدو التابعين لهؤلاء الملوك. كما لم يطلق اسم " عرب " على أهالى المدن فى أى مكان بالجزيرة فى هذه النقوش بل يسمون دائما بأسماء المدن والقبائل التى ينتمون إليها ومما يدل على ذلك ويؤيده أن لفظ " عربة " فى اللغة العبرية يعنى " صحراء" و " عربى " بمعنى " ساكن الصحراء " ، كما أن لفظ " أعرابى " (وأحيانا " أعراب ") ترد فى اللغة العربية منذ القدم وإلى يومنا هذا بنفس هذا المعنى . وكلمة " تعرب " تعنى التحول من البداوة

وسكنى الصحارى .

ولم ترد كلمة "عرب " فى سفر التكوين على الإطلاق ، بل ذكرت طوائف العرب (التى نطلق عليها اسم عرب) بل كل باسمها الخاص بها ، وفى سائر كتابات اليهود وفى النقوش الأشورية فى نقش بيستون وفى كل مكان ورد فيه ذكر هذه الكلمة لجدها تنطبق على البدو وسكان الصحارى ؛ فلفظ " ماتورابى " الذى ورد فى النقوش الأشورية ولفظ " آربابا " الذى ورد فى نقش بيستون ومعناهما " أرض العرب " أو " بلاد العرب " ينطبقان على بادية الشام وقاطنيها من البدو . وبناء على هذا ، فمن المحتمل ألا يكون للفظ " عرب" فى الأصل أى مفهوم عنصرى أو معنى عرقى خاص إلا أنه لا مجال لإنكار أن هذه الكلمة قد اتخذت مفهوما عرقيا وقوميا معاصرا فى العهود المتأخرة وربما قبل قرنين أو ثلاثة قرون قبل الإسلام ، وخاصة فى العصر الإسلامى حيث صارت وحدة العرب كاملة وحاسمة .

نخلص من هذه المقدمة إلى أن إطلاق اسم " عرب " على كل الأقوام القديمة التى سكنت شبه جزيرة العرب يعد من باب التوسع لا أكثر ، حيث اتخذ اسم " العرب " ليطلق على سكان هذه الجزيرة بصورة عامة ولو أنه ليس له معنى علمى أو لغوى . لذا ، فإن كتاب تاريخ العرب القدامى منهم والمحدثين يختلفون فى تحديد معنى هذه الكلمة وموضع استخدامها، فالبعض منهم يعتبرون الآراميين النبط عربا فى حين لا يعتبرهم البعض الآخر كذلك ، وقال عدد منهم بتقسيم النبط إلى فرعين : نبط عرب ونبط آراميين ، بينما توسع بعض الكتاب المحدثين فى مجال استخدام هذه التسمية وضموا إليها البابليين الحاموراببين (طائفة من الكنعانيين) والهكسوس الذين غزوا مصر ، فى حين أن هؤلاء الأقوام كانوا مجرد أقوام ساميين من سكان شبه الجزيرة القدامى .

يقسم جمهور أهل الأخبار العرب إلى فرعين . العرب العاربة - أى الأصليين - والعرب المستعربة أى المتعربين ؛ والعاربة طوائف قحطانية وطوائف يطلق عليها " العرب البائدة " الذين عاشوا فى عصور قديمة ثم انقرضوا ، أما العرب المستعربة فهم القبائل العدنانية . ويرى البعض أن العرب العاربة هم العرب البائدة فقط ويطلقون اسم "المتعربة" على القحطانيين ، وبهذا فإنهم يقسمونهم إلى ثلاثة أفرع .

ومن العرب البائدة ثمة عشر قبائل أو اثنتا عشرة قبيلة تذكر بأسمائها ومحل سكناها وتروى عنها روايات بأن بعضا منها قد هلك بالعصيان والكفر ببلاء من السماء ، وزالت قبائل منهم فى حروب قبائل أخرى ، فى حين انقرضت أخرى فى خضم " أحداث الزمن ". وعلى أية حال ، فقد هلكوا جميعا ولم يبق منهم أحد ، وإن بقى فقد اختلط بسائر القبائل، وهذه الروايات بلا شك تشوبها إلى حد كبير شوائب أسطورية ومغالطات وتمتزج أحيانا بروايات ومصائر آلت إليها أقوام أخرى ، ومن ذلك قصة العمالقة التى اقتبست عن اليهود، وحتى ما له أساس من الصحة منها قد اختلط بالمغالطات ، إلا أن الموضوع الأصلى لايخلو من أصل تاريخى ، وكثير من أسماء هذه القبائل البائدة ينطبق على تسميات قبائل بشبه الجزيرة العربية التى ذكرها بطليموس مثل عاد وثمود وبار وحديس أو على أسماء ورد ذكرها فى التوراة من قبيل " طلسم " التى يرى هالوى أنها "لتوسيم" التى ذكرت فى سفر التكوين ، أو " عاد " التى يعتقد أنها " هادورام " التى ورد ذكرها فى نفس هذا السفر ، أما ثمود الذين ورد ذكرهم ضمن هؤلاء العرب البائدة فكانوا شعبا تاريخيا مكتملا ، كما سنرى فيما بعد . وفى القرآن ورد ذكر قبيلتى عاد وثمود مرارا

ونجد اسم إرم بن سام فى أنساب أغلب هذه القبائل . لذا ، فمن المحتمل أن هذه القصص كانت أفكارا تتعلق بالطوائف الآرامية أو النبطية التى هاجرت من شبه الجزيرة العربية . فيروى الطبرى عن أحد المؤرخين العرب قوله " كان يقال لعاد فى دهرهم عاد إرم ، فلما هلكت قيل لثمود إرم ، فلما هلكت ثمود قيل لسائر بنى إرم إرمان فهم النبط[1] " ، ويؤيد هذا الخبر أن إسم عاد قد ذكر فى القرآن أيضا مع كلمة إرم (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ) [2] ، وسواء اعتبرنا كلمة إرم هنا اسما لحد القبيلة أو اسم مدينة دمشق حسب ما قال المفسرون . ففى كلتا الحالتين ترتبط بالآراميين

---

(1) الطبرى ، ص 105 ، وحمزة الإصفهانى ، وسنى ملوك الأرض ، 65 . " الأرماسيين وهم نبط الشام " ؛ جواد على ، ج 1 ، ص 235

(2) سورة الفجر ، آية 6 ، 7، مجمع البيان ، ج 2 ، ص500

المهاجرين إلى الشام ، والذين ورد ذكرهم فى التاريخ [1] .

وأيا ما يكون التاريخ القديم فإن الأمر المسلم به هو أن سكان الجزيرة العربية فى العصر الإسلامى ينقسمون إلى قسمين رئيسيين ؛ القحطانيين فى الجنوب والعدنانيين فى الشمال . ويسمى العدنانيون أيضا نزاريين ومضريين ومعديين . ويزعم بعض المؤرخين أن هذه التسميات قد وجدت فى العصر الإسلامى بل ولم يكن لها وجود فى الجاهلية . إلا أن التاريخ يدل على أنه على جانبى شبه الجزيرة كانت ثمة حياتان مستقلتان متميزتان إحداهما عن الأخرى ولابد أن هذا كان مصدرهذا التقسيم،كما سنرى فى الفصول التالية .

شعوب الجنوب ودوله :

كان ثمة شعب يقطن جنوب شبه الجزيرة العربية من عهود ما قبل الإسلام وكان كتاب الأخبار من العرب يطلقون عليهم اسم العرب القحطانيين ، ويقال أنهم من نسل يعرب بن قحطان وأن قحطان هذا كان قد نزح من بابل إلى اليمن فى عهد تفرق أبناء نوح وأصبح ملكا ، وفى ذلك الوقت كان لا يزال عدد من قوم عاد يقطنون جنوب الجزيرة العربية ، فتعلم يعرب بن قحطان منهم اللغة العربية ، وعندما تولى الملك بعد أبيه قام بتوزيع البقاع المحيطة على إخوته ، فأعطى عمان لعمان بن قحطان وحضر موت لحضر موت بن قحطان

ويقال أن يعرب قد خلفه فى الحكم ولده يشجب الذى تلاه عبد شمس الذى يقال أنه ظل ملكا مدة 486 عاما ، وأنه قد أطلق عليه اسم « سبا » من كثرة سباياه وأنه هو الذى شيد سد مأرب ، وكان له بنون من بينهم حمير وكهلان ،وتولى حمير الملك واستقر الملك فى أسرته ، أما نسل كهلان فقد تفرقوا فى الصحراء وصاروا بدوا ، وكانت الأسرة الحميرية تنقسم إلى قسمين ، قسم يحكم فى سبأ والآخر فى حضرموت . وفى عهد الحارث الملقب برايش اتحدت الدولتان ، ومنذ ذلك الوقت أصبح ملوك حمير يعرفون باسم تُبع ، وثمة اختلاف حول عددالملوك الحميريين ، وكانوا فى غالب الآراء ستة وثلاثين ملكا

---

(1) يقول دكتور جواد على أن الأوربيين عثروا على جبل فى شرق العقبة يعرف إلى يومنا هذا باسم " رم " .

امتد ملكهم ألفين وعشرين عاما . وتروى من وقائع هؤلاء الملوك روايات غريبة من بينها أن شمر يرعش (يحرعش) استولى على بلاد فارس كلها ، وأنه تجاوز نهر جيحون وبلغ بلاد الصغد وأنشأ مدينة سمر قند (شمر كند) ، وأن أسعد أبى كرب قد فتح بلاد فارس وتركستان وقام بحملة على الصين والروم .

وآخر ملوك الحميريين هو ذو حدن الذى زالت فى عهده الدولة الحميرية على يد الأحباش . وعن أسباب حملة الأحباش على اليمن ، يقال أن حدن كان يدين باليهودية وأنه كان يقسو على نصارى اليمن ، فتوسل هؤلاء بملك الحبشة الذى كان يدين بالدين المسيحى فجرد جيشا بقيادة أرياط إلى اليمن ، فاستولى أرياط على اليمن وفرض الأحباش سيطرتهم عليها لفترة من الزمن إلى أن قام أحد الأمراء الحميريين واسمه سيف بن ذى يزن بطرد الأحباش بعون من أنو شيروان ملك فارس وتولى الملك ، إلا أنه سرعان ما اغتيل على يد غلمانه الأحباش ومنذ ذلك الحين ، ظلت اليمن تحت سيطرة فارس إلى العصر الإسلامى حيث دخلت فى حوزة الدولة الإسلامية

هذا هو ملخص تاريخ القحطانيين أو تاريخ جنوب الجزيرة العربية بناء على روايات العرب التى يختلط الجزء الأول منها وحتى الغزو الحبشى بكثرة من الأساطير والمغالطات. لذا ، فإن الباحثين العرب أيضا لا يعتمدون عليها [1] ، أما الجزء الآخر فيتطابق فى معظمه مع التاريخ الحقيقى ، كما سنرى فيما بعد .

أما اليوم ، فبالرجوع إلى المصادر الإغريقية (البيزنطية) والحبشية ومقارنتها بعضها البعض وبالروايات العربية وبالإطلاع على العديد من النقوش التى وجدت فى الجزيرة العربية نفسها اتضح تاريخ جنوب الجزيرة العربية إلى حد كبير ، وتوافرت معلومات قيمة غير مسبوقة تتعلق بالأقوام العربية والدول التى قامت فى نواحيها وأوضاعها السياسية والاجتماعية ، مما سنورد ذكره فى السطور التالية .

* * *

(1) أبو الفدا ، ج 1 ، ص 67

يعد جنوب الجزيرة العربية مهدا لأقدم حضاراتها ، فعلى أرضها ، وبما لها من مناخ ملائم، عاشت أقوام على امتداد طرقها التجارية وبحذى البحر من سكان المدن من قبل الميلاد بحوالى ألف سنة وهو حد المعلومات التى بين أيدينا . وكان لهذه الأقوام نظام اجتماعى من المرحلة الإقطاعية تقريبا يشبه النظام الإجتماعى الذى نعرفه عن بابل القديمة، وكان هؤلاء القوم يتحدثون بلغات مختلفة ولكنها قريبة من بعضها البعض ، ويمكن القول أنهم كانوا يتكلمون لهجات مختلفة للغة واحدة وكأنها قبائل مختلفة من أصل واحد ، وكان لهم خط مشترك من نوعية الخط الفينيقى ولكن بحروف تزيد عن الخط الفينيقى ومن حيث الشكل ، كانت له صورة خاصة به ، فكانوا يدونون الأحرف بالمقاطع ويرسمون بين الكلمات خطوطا تفصل بينها على شكل عمودى ، وكانت الأسطر تتوالى من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين

وقامت على هذه الأرض دول متعددة تتفاوت صغرا وكبرا ، وكانت إحداها تغير على الأخرى من آن لآخر ، وكان الأقوياء يحذون الضعفاء لتبعيتهم أو يزيلونهم تماما . وفى العصور الأقدم ، كانت السلطة فى هذه الدول بيد الكهنة والزعماء والروحانيين الذين كان يطلق عليهم لدى بعض الشعوب اسم « مكرب » (ونطقها الصحيح غير معروف لعدم وجود الإعراب والتشكيل فى خطهم) واسم « مرواد » لدى شعوب أخرى منهم . وفى عصور تالية ،آلت السلطة إلى الملوك ، واقتصر دور الكهنة على الشئون الدينية ، وكانوا من الناحية الدينية فى عداد المشركين وكانت لهم آلهة متعددة وكان بعض هذه الآلهة خاصا بقوم دون غيرهم فى حين كان البعض الآخر آلهة مشتركة بين مختلف القبائل ، كما سنذكر تفصيلا فيما بعد . وكانت حرفة هذه الشعوب التجارة التى كان يمتهنها الجميع من ملوك ورعية وكانت لهم منها ثروات وسلطة كبيرة ، كما سبقت الاشارة منذ قليل .

وردت أسماء عدة دول جنوبية فى المصادر المتاحة إلى الآن ومنها معين وحضرموت وقتبان وحباء وأوسان وسبأ وحمير ، واستقرت كل هذه الدول فى بقعة محددة من البلاد ، وكانت الدول الأولى معاصرة لبعضها البعض وكانت دولتا سبأ وحمير إمبراطوريتين استوليتا على الدول المحيطة بهما . وكانت أقدم هذه الدول معين التى كانت قائمة فى منطقة الجوف الجنوبية وكانت عاصمتها تسمى «قرنة» أو « قرنا » وكانت تقع شمال سد مأرب ، وقد ورد ذكر هؤلاء القوم باسم « المعونيين » فى الكتابات اليهودية القديمة،

وكذلك بكتاب استرابون المؤرخ الإغريقى الذى عاش فى القرن الأول قبل الميلاد . كانت دولة معين ذا قوة واقتدار وثراء . وبين أيدينا أسماء ستة وعشرين ملكا معينيا فى النقوش المتوافرة وكانوا يمثلون عدة أسر ، وكان الملك فيهم بالتوارث ، وكان لكل ملك لقب خاص بالإضافة إلى اسمه ومثلهم فى ذلك كمثل الخلفاء العباسيين ، وكانوا يطلقون على الكهان ورجال الدين اسم (مزواد »أو« مسود »ويرد اسم الملوك فى كل مكان فى هذه النقوش التى تم الكشف عنها حتى الآن ، ولاذكر فيها لسلطة رجال الدين . ومن المحتمل أن عهد حكم رجال الدين كان قد انقضى قبل ذلك بعهود ، وكان لكل ولاية من الولايات وال يسمى « كبير » يتم تنصيبه من قبل الملك ورئيس الكهان لفترة محددة ، وكان للآلهة عشتر وود ونكراح وشمس مكانة هامة لديهم ، وربما كانوا يحجون إلى معابدهم أيضا .

كان نطاق سيطرة دولة معين يمتد إلى سواحل الخليج الفارسى من ناحية وإلى البحر المتوسط من ناحية أخرى . وفى الجزء الشمالى من طريق اليمن التحارى إلى فلسطين وميناء غزة كان للمعينيين مستوطنات ربما كانت نقاط عسكرية ؛ مثّل العلا ومدين ومعان وتيماء وربما مكة ويثرب أيضا وحتى ميناء غزة على ساحل المتوسط كلها تحت سيطرة أهل معين،وتم العثور على أثار لتجار معين فى مصر واليونان كما سبقت الإشارة، ومن التشابه الملحوظ بين أهالى معين وأهالى بابل فى الأسماء الشخصية والآلهة ومختلف الأوضاع الإجتماعية يرجح البعض أن المعينيين كانوا من آراميى العراق وهاجروا من هناك إلى مواطنهم هذه [1] ، ويرجع البعض تاريخ نقش معين إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد فى حين يرجعه آخرون إلى القرن السادس أو السابع .

وكان يعاصر دولة معين دولتان جنوبيتان آخريان : إحداهما حضرموت والآخرى قتبان. كانت دولة حضرموت قائمة فى المنطقة التى تعرف اليوم بنفس الإسم إلا أن نطاق سيادتها كان أكبر من هذه البقعة ، وكانت عاصمة حضرموت مدينة شبوه التى كانت المركز الرئيسى لمحصول البخور ، ولم يتم استكشاف هذه الدولة تماما بعد ، إلا أن النقوش التى عثر عليها هناك حتى الآن ، ومس النقوش التى اكتشفت خارج حضرموت ، تأكدت أسماء ثمانية عشر ملكا واسم مكرب واحد ، وأحدهم معدى كرب الذى عاش حوالى عام 525 قبل ميلاد المسيح . وكانت ثمة روابط عرقية تربط بين حضرموت ومعين وكانت

---

(1)الموسوعة البريطانية ، مادة: Arabia .

بينهما صلات سياسية ، بل وأحيانا خضعت كلتاهما لسيادة أسرة واحدة رغم أن كلا منها كانت تعد مجتمعا مستقلا ، وزالت هذه الدولة فى حوالى عام 115 ميلادية حيث تعرضت للهزيمة على يد إمبراطوريتى سبأ وحمير كغيرهما من دول الجنوب الأخرى .

كانت دولة قتبان تقع فى الجنوب الغربى من اليمن مجاورة لحضرموت ، وكانت عاصمتها تسمى تمنع وتقع فى جنوب شرق سد مأرب قرب المنطقة التى تعرف اليوم باسم كحلان (كهلان) ، وقد ذكر اسم هذه الدولة كتاب الإغريق تيو فراست (فى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد) واراتوستن واسترابون ، وقدموا معلومات تتعلق بتلك المنطقة وإنتاجها للبخور ، ومن النقوش القتبانية التى جمعها غلازر فى تلك المنطقة ويرجع تاريخها إلى ما يتراوح بين عام ألف ونيف قبل الميلاد وحتى القرن الثانى قبل الميلاد تم التعرف على أسماء ثمانية عشر ملكا وثمانية مكارب . والغرض الغالب أن زوال تلك الدولة أيضا يعود إلى عصر ظهور دولة سبأ أى فى حدود عام 115 قبل الميلاد ، إلا أن هوار يزعم أن مملكة قتبانية ما ظلت قائمة حتى عام 30 ميلادية تقريبا وانقطع اسم تلك الدولة من بعدها .

وإلى جوار قتبان كانت هناك دويلتان صغيرتان ، إحداهما باسم حباء (حعبان) فى المنطقة التى تعرف اليوم باسم ردمان ، والآخرى أوسان (اوطان) ، وقد عاشت الدويلتان مستقلتين إلى حين ثم خضعتا للغير وضمتا إلى قتبان بعد ذلك . وفى أواخر سنى دولة سبأ ، التى سيرد ذكرها فيما بعد ، نجد منطقة أوسان موطنا لقوم من الأحباش ورد ذكرهم فى الحروب الداخلية .

وفى نطاق سيادة دولة قتبان نجد قومين آخرين باسم ريدان وحمير يعيشون فى داخلها ولعبوا دورا هاما فى تكوين امبراطورية سبأ ، كما سنرى فيما بعد

فيما بين أراضى هذه الدول الثلاث معين وحضرموت وقتبان وفى أزمانها أيضا كانت تعيش أقوام أخرى باسم سبأ وبالتعاون مع الحميريين قاموا بتأسيس أكبر دولة بجنوب شبه الجزيرة العربية ولعل بداية تأسيس دولة سبأ يرجع فى أقوى الاحتمالات إلى القرن الثامن قبل الميلاد ، وامتد عمر لاحقتها وهى دولة حمير إلى القرن السادس الميلادى أى حتى قرب ظهور الإسلام لهذه الفترة التى امتدت إلى ألف وأربعمئة سنة من السيادة تاريخ

تفصيلى تسيا من حروب داخلية بهدف التوسع وحروب خارجية بهدف صد المغيرين من الأجانب وخاصة من الأحباش والرومان وأوضاع اجتماعية كبناء السد وانهياره وهجرة الأقوام من الجنوب إلى الشمال ، وقد بقيت من هذه الأحداث والوقائع ذكريات ضعيفة فى أذهان العرب تلاحظ فى رواياتهم التاريخية ، إلا أن المصدر الرئيسى لهذا التاريخ تم التوصل إليه من النقوش المحلية ومن الكتابات الخارجية المعاصرة لتلك الدولة .

قطعت هذه الدولة الكبرى التى بدأت بالسبأيين وانتهت بالحميريين أربع مراحل عبر فترة امتدت إلى ألف وأربعمئة سنة ، كما اتخذت لنفسها أربع عواصم متوالية ، وكانت ترتبط فى كل مرحلة منها بواقعة تاريخية هامة لها أثرها على تطورها ، وتمتد المرحلة الأولى من بدء قيام دولة سبأ إلى حوالى عام 550 قبل الميلاد ، وفيها كانت السيطرة فى يد رجال الدين (المكارب) ، وكانت عاصمة الدولة مدينة صرواح (شرق صنعاء الحالية) ، وتم التعرف من النقوش على أسماء خمسة عشر مكربا تولوا الحكم واحداً تلو الآخر ، وهذه الأسماء ليس بها أكثر من خمسة أسماء مكررة منها ايتعمر (يايتعمر) ، وكان أحدهم ، وقد عاش فى أواخر القرن الثامن قبل الميلاد ، هو الذى شيد سد مأرب الشهير أو ربما أتم بناءه الذى كان والده قد شرع فيه ،وكان هذا السد الذى ورد ذكره فى القرآن يعد عملا ضخما فى ذلك العصر حيث حوّل منطقة مأرب إلى بقعة عامرة تحظى بالثراء وهى اليوم مجرد سبخة ملحية قاحلة ، وكان حفيد ايتعمر هذا واسمه « كربل وتر »رجلا قويا وهو الذى قضى على دولة معين وتحولت منذ ذلك الوقت إلى مجرد إمارة تابعة لفترة من الزمن .

وبعد عهد « كربل وتر » يبدأ عصر الملوك ، وتنتقل العاصمة من صرواح إلى مدينة مأرب العامرة الضخمة ، إلا أن الحكم كان غير مركزى ، فأقام الأمراء المحليون جهاز حكم شبه مستقل كل فى منطقته ، وتعرضت السلطة المركزية للتحديات سواء من داخل الأسرة الملكية أو من خارجها بحيث كان العديد من الملوك يحكمون إلى جانب أعمامهم كل فى منطقته ، فيقوم شيخ قبيلة همدان وهى من قبائل الدولة الكبرى بادعاء الأحقية فى الملك ضد الأسرة الملكية الأصلية فيجلس على عرشها بعون من أحباش اليمن والحضرموتيين ، ويضم أراضى قتبان التى كان يعيش بها قوم يسمون ريدان إلى حوزته ويتخذ لنفسه لقب « ملك سبأ وذى ريدان » ، ثم قام ملوك الأسرة الأصلية بعد وفاة ملك

حضرموت برفقة ولده وسحقوا آل همدان وخصوا أنفسهم بلقب « ملوك سبأ وذى ريدان ».
وفى المرحلة الثالثة (من حوالى 115 قبل الميلاد إلى حوالى 281 ميلادية) عاد اسم الدولة مرة أخرى ليصبح « سبأ وذا ريدان » ، إلا أن السلطة كانت تنسحب شيئا فشيئا من السبئيين لتستقر فى يد الحميريين ، كما انتقلت العاصمة أيضا من مأرب إلى ظفار(مركز القبائل الحميرية) ، وفى هذه المرحلة حدث الغزو الرومانى لجنوب الجزيرة العربية، وكانت هذه الدولة ذات النزعة التوسعية بعد أن هيمت على الشام وفلسطين ومصر فى أواسط القرن الأول قبل الميلاد قد أصبحت جارة للجزيرة العربية ، وكانت تطمع فى الهيمنة على اليمن،بما تحظى به من وفرة فى المحاصيل ، وسيطرة على الطرق التجارية ، فحشدت جيشا فى مصر بقيادة اليوس غالوس الوالى الرومانى على مصر فأبحر بسفينته فى البحر الأحمر باتجاه الجزيرة العربية (عام 25 قبل الميلاد) ، ودخل هذا الجيش إلى أراضى شبه الجزيرة من بقعة ربما كانت ينبع الحالية ، وسار إلى اليمن عن طريق الحجاز ، وبعد أن استولى على عدة مدن ، وصل إلى مدينة مأرب التى ضرب حولها حصارا ، إلا أنه فك حصاره بعد ستة أيام بسبب نقص الماء وغادر شبه الجزيرة كله وعاد إلى مصر إلا أن دولة الرومان ، فى الوقت نفسه ، ألحقت بشبه الجزيرة العربية أضرارا فادحة بإنشائها طريقا بحريا تجاريا أزال المكانة الهامة التى كان يحظى بها الطريق البرى الجنوبى ، كما سبق القول

حظيت دولة « سبأ وذى ريدان » تحت سيطرة الحميريين بقوة هائلة نسبيا ، إذ كان الحميريون قوما محاربين ، وكانوا من حيث العدد أيضا يتفوقون على سائر قبائل الجنوب على حد قول بلين المؤرخ الرومانى وفى المرحلة الرابعة (من حوالى 281 ميلادية وحتى 525 ميلادية) زالت دولة حضرموت على يد الملك الحميرى « شمر يحرعش » وأصبحت جزءا من الإمبراطورية الحميرية ، ومنذ ذلك الوقت اتخذ الحاكم الحميرى لنفسه لقب « ملك سبأ وذى ريدان وحضرموت ويمنات » ، وكانت « يمنات » (أو يمنه) هذه غير اليمن المعروفة ، ويبدو أن المقصود بها كان المناطق الواقعة شرق حضرموت وحتى عمان ، وكان هؤلاء الملوك الحميريون الذين توالوا على الحكم فى المرحلة الرابعة هم الذين يعرفون فى الروايات التاريخية العربية باسم تبع » (التبابعة) ، وكانت سيادة هذه الدولة تمتد إلى الشمال وحتى يثرب

وكان لدولة حمير عدو لدود إلى حوارها وهو دولة الحبشة التى كانت تعد العدة للسيطرة على اليمن لما بها من ذهب ، وكانت تغير على جنوب الجزيرة كلما وجدت إلى ذلك سبيلا ، وبالإضافة إلى الجيرة المكانية التى جمعت بين الأحباش والعرب ربما كانت ثمة صلة عرقية كما يرى كثرة من الباحثين الأوربيين [1]،وربما كانت لهم فى جنوب الجزيرة العربية مستوطنات ومستعمرات منذ القدم . وهناك وثائق تحكى عن غارات الأحباش على اليمن فى القرن الأول قبل الميلاد بصورة إجمالية،فى حين تنبىء وثائق أخرى بأن الأحباش كانوا قد فرضوا سيطرتهم على اليمن فى أواخر القرن الثالث الميلادى، وفى أواسط القرن الرابع كان «عيزانا» ملك الحبشة يسمى نفسه « ملك اكسوم وحمير وسبأ وريدان وغيرها»، إلا أن الوثائق تدل على أن اليمن فى أواخر القرن الرابع كانت قد عادت إلى سيادة أهل اليمن كاملة من جديد وأنهم قاموا بإجلاء الأحباش عنها تماما .

دخلت المسيحية اليمن فى أواسط القرن الرابع ، ومع أنها لم تتحول إلى دين الدولة الرسمى إلا أنها انتشرت بين السكان وظهر مركز هام لها فى نجران وظل قائما حتى ظهور الإسلام وبعده أيضا لفترة من الزمن . وبالطبع ، ربطت الشعب المتنصر هناك أواصر متينة بدولة الحبشة المسيحية والإمبراطورية البيزنطية ، بل ويرى البعض أن منطقة نجران كانت أصلا تابعة للحبشة وأن حارثة والى نجران كان يحكم هناك باسم الحبشة .لذا، فإن موضوع النصرانية يعد أمرا سياسيا بالنسبة لدولة اليمن ، وفى مقابل المسيحية كان بهذه الدولة تنظيم يهودى أقامه المهاجرون اليهود منذ القدم (ربما منذ عهد دمار أورشليم) ، وكان هذا التنظيم يعمل على نشر الديانة اليهودية ، وكان من الواضح أن الديانات الوثنية لم يكن أمامها سوى أن تتراجع أمام زحف هاتين الديانتين التوحيديتين .

وفى أوائل القرن السادس الميلادى وتحت حكم الملك لحيعة ينوف الحميرى غزا الأحباش اليمن من جديد . وفى هذه المرة ظهر أمير يمنى يسمى « ذى نواس » وهزم الأحباش وخلع لحيعة عن العرش وتولى الملك بنفسه ، واعتنق ذو نواس اليهودية ودعمها فى مواجهة النصرانية . وعندما سمع بأن الرومان يضطهدون اليهود بدأ اضطهاد

(1)ودليل ذلك احتمال أن يكون لفظا « تبع » و « حمير » حبشيين ، فكلمة « تبع » تعنى « قادر » وكلمة « حمير » تعنى «داكن اللون » .

النصارى فى اليمن وعقد العزم على إبادتهم وهو ما ورد ذكره فى قصة « أصحاب الأخدود » حيث كان يلقى بالنصارى فى حفر تتقد نارا ، كما قام بقتل التجار الرومان الذين كانوا فى اليمن . خلاصة القول ، أنه كان يتبع سياسة التشدد العملى ضد الرومان والأحباش ، ثم ظهر رجل يمنى اسمه سميفع لعله كان من أبناء لحيعة وربما كان يدين بالمسيحية وأعلن ثورته على ذى نواس ، واتخذ لنفسه ملاذا فى حصن غراب الذى تعرف أطلاله اليوم باسم قان وطلب العون من الحبشة .

وعلى الجانب الآخر اشتعل إمبراطور الرومان (بيزنطة) غضبا من واقعة التجار الرومان ، إضافة إلى سخطه تجاه دولة اليمن وعلاقتها الطيبة بدولة فارس ، فقام بحث ملك الحبشة على فرص سيطرته على اليمن ، فقام ملك الحبشة (كالب ألا أصبحه) فى عام 526 ميلادية بتجريد جيش إلى اليمن تحت قيادة أرياط على متون السفن الرومانية، وقتل ذو نواس فى حربه ضد الأحباش ، وورد فى الروايات العربية أنه أنتحر غرقا فى مياه البحر ، ثم أقر الأحباش سميفع ملكا على اليمن ، وأختار القائدان أرياط وابرهة الإقامة كل فى منطقة ما مع جيشه ، وبعد فترة أعلن أبرهة عصيانه لقائده وخلع سميفع عن العرش وتولى الملك على اليمن بدلا منه ، وهذا هو أبرهة الذى ذكر فى قصة أصحاب الفيل ، وبعد أبرهة تولى ملك اليمن ولداه أكسوم ومسروق على التوالى ، وامتد حكمهما لليمن قرابة خمسين عاما ، وفى هذه الأثناء ثار شخص يسمى « ذو جدن » على الأحباش إلا أنه أنهزم ويروى أيضا أنه أنتحر غرقا ، وفى حدود عام 570 ميلادية استمد أحد الأمراء الحميريين يسمى سيف بن ذى يزن العون من ملك فارس وعاد إلى اليمن برفقة جيش فارسى بقيادة وهريز (بهروز) ، فقتل مسروقا الحبشى وطرد الأحباش من اليمن ونصب نفسه ملكا عليها ؛ ولكن لم يمر وقت طويل حتى تم اغتياله على يد عبد من عبيد الأحباش ومنذ ذلك الحين ، سقطت اليمن تحت سيطرة الفرس بصورة مباشرة ، وظل القادة الفرس يحكمون البلاد بمشاركة الزعماء المحليين (الأقيال) ، ودام هذا الوضع إلى عهد ظهور الإسلام ، ومن اختلاط الفرس بالعنصر المحلى اليمنى ظهر إلى الوجود جيل يطلق عليه اسم « الأبناء » ، وتكرر ذكرهم مرارا فى تاريخ الإسلام .

وفى أواخر حكم الأحباش شهدت اليمن وقائع تعسة أخرى منها انهيار سد مأرب ، هذا السد الذى تعرض للتصدع مرارا ثم تم إصلاحه أخيرا انهار انهياراً تاما بين السنوات

542 و 570 م. على أثر « سيل عرم » ، وبانهياره خربت أجزاء كبيرة من اليمن ورحل السكان إلى مناطق أخرى ، ولا تزال أطلال هذا السد قائمة بما فيها من نقوش تاريخية .

تتوافر المعلومات عن حياة الشعب اليمنى فى عهد دولة سبأ وحمير فى كتابات الإغريق الدين عاصروا هاتين الدولتين ، كما أن روايات كتاب الأخبار العرب فى هذا المحال لا تخلو من الحقائق التاريخية الهامة نظرا لقرب عهدهم منهما . كانت اليمن فى ذلك الوقت تنقسم إلى أقاليم يطلق على الواحد منها اسم « محفد » ، ويضم كل محفد عدة قلاع أو قصور ينتمى كل منها إلى شيخ أو أمير تسمى القلعة باسمه مسبوقا بكلمة « ذو » ؛ فيقال مثلا « دو غمدان » وتعنى قلعة غمدان ، ومن مجموع عدة محافد والقرى التابعة لها تتكون منطقة يقال لها « محلاف » ويسمى أمير المخلاف « قيل » ويتخد اسم كل محلاف من محفد أو قصر يسكنه القيل نفسه ، وكان الأمراء السبئيون والحميريون يسكنون قصورا فخمة ويرتدون ملابس فاخرة ويتخذون زينات مترفة ويطعمون فى أوان من ذهب وفضة ويتحلون بالجواهر الثمينة الوفيرة ، ويعرف الخط الحميرى بالخط المسند وتسمى لغتهم بالحميرية وأحيانا السبئية ، وهى أقرب إلى اللغة الجفرية (الحبشية) منها إلى العربية الشمالية .

شعوب الشمال ودوله :

ثمة فروق كبيرة بين تاريخ الجزيرة العربية الشمالية وتاريخ الجزيرة الجنوبية تفوق الفروق فى الوضع الجغرافى لهاتين المنطقتين ، فعلى خلاف جنوب الجزيرة العربية التى تحيط بها البحار من ثلاثة جوانب وبالتالى فهى محزأة ومعلقة نجد أن شمال الجزيرة يجاور بادية الشام وبالتالى فهو يجاور مختلف شعوب الدول القديمة العراق والشام ومصر، وتشير الوثائق التاريخية الموجودة إلى أن شمال الجزيرة كان مجالا لحركة دائبة ، فكان ممرا للقوافل التجارية ومعبرا للهجرات والغزوات العسكرية التوسعية .

وتتحدث النقوش البابلية الخاصة بأوائل الألف الثالثة قبل الميلاد عن غزوات ملوك بابل وآشور لشمال الجزيرة العربية ، وتنص على أسماء مناطق وأقوام قاموا بفرض سيطرتهم عليها ومنها « معان ملوحا » و « وسبو» ويرى كثرة من الباحثين أن «مغان» هى التى تعرف اليوم باسم « معان » التى تقع فى الشمال العربى من الجزيرة العربية

على طريق الحجاز إلى الشام . ولفظ « معان » ، وفى رأى هؤلاء الباحثين ، يعد صورة من صور لفظ « معين » وهو اسم الدولة الجنوبية المعروفة التى سبقت الإشارة إليها، ويرى أصحاب هذا الرأى أن أهل معين الجنوبية كانوا أولا فى الشمال ثم هاجروا إلى الجنوب ، كما يعتقدون أن لفظ « سبو » يقصد به أسلاف السبئيين اليمنيين فى عهد بداوتهم ثم هاجروا منها جنوبا ،أما لفظ « ملوخا »فربما ينطبق على العماليق الذين عاشوا على أطراف الشام وورد ذكرهم فى التوراة وفى أخبار العرب ضمن العرب البائدة .

ورد فى نقوش أسرة حامورابى وهى أسرة عربية أو من أصل آرامى حكمت بابل فى حدود القرن العشرين وحتى القرن الثامن عشر قبل الميلاد ذكر العرب « الغزاة » الذين سكنوا عانة (مدينة على ضفة الفرات). أما طائفة البدو الشاسيين الذين أطلق عليهم الإغريق اسم الهكسوس وحكموا مصر لفترة من الزمن (من 865 إلى 650 ق . م) ثم تم طردهم إلى فلسطين فقد جاءوا حسب رأى بعض الباحثين من شمال الجزيرة العربية . وورد فى النقوش الآشورية أن ملوك آشور (شلم نصر ، اسرهدون ، سارون ، آسور بانيبال ، تكليت بيلصر) كانوا يعبرون بجيوشهم على بلاد « أريبى » (شمال الجزيرة العربية) منذ القرن التاسع وحتى القرن السابع قبل الميلاد ، وتتحدث النقوش عن المناطق والقبائل التى أخضعوها مع ذكر أسماء أمرائهم المحليين ومن بينهم عدة ملكات مثل زبيبة وشمس ويثيعة وتلخونو ، ولم تكن غزوات الآشوريين قاصرة على المنطقة الشمالية حسب رأى بعض علماء تاريخ شبه الجزيرة العربية القديم ، بل كانت تمتد لتشمل المنطقة الداخلية وباتجاه جنوب الجزيرة ، بل وبلغت مكة ، ومن الأدلة على هذا أن هناك ذكر لورود بخت نصر إلى مكة فى أخبار العرب وفى هذه النقوش الآشورية ورد أيضا ذكر يتعمر مكرب سبأ الذى كان يرسل الجزية والخراج إلى ملك آشور من هنا يبرز افتراض أن السبئيين كانوا فى البداية فى الشمال حيث حدث الاتصال بينهم وبين الأشوريين ، إلا أنه يفترض كذلك أن الدولة السبئية كانت لها مستعمرات فى الشمال أى إلى جوار الأشوريين وأنهم كانوا يهادنون الآشوريين بهدف الحفاظ على هذه المستعمرات وكانوا يرسلون إليهم الجزية وعلى أى الأحوال ، فإننا إن لم نسلم بوجود الهجرات من الشمال إلى الجنوب إلا أن الهجرة العكسية أى من الجنوب إلى الشمال من جانب بعض القبائل تعد أمرا مسلما به ، كما سيرد الذكر فيما بعد

وبعد أفول نجم الدولة الآشورية قامت علاقات بين الفرس فى عصر الهخامشيين وبين شبه جزيرة العرب ، وكان داريوش الأول فى نقوشه يعتبر شبه الجزيرة العربية جزءا من نطاق دولته باسم « أربايا » ، ويتحدث المؤرخون الإغريق عن وجود فرق عربية ضمن جيوش ملوك فارس (قورش الأول ، كمبوجيه وخشيا رشا) وعن الجزية التى كان العرب يدفعونها بخورا لداريوش ، وفى أعقاب فتح بابل على يد قورش الأول بدأ العرب المجاورون للعراق يدفعون الجزية لملك فارس ، واتخذ كمبوجيه (قمبيز) طريق العراة الآشوريين بشمال الجزيرة العربية فى غزوته لمصر ، ولكن بعد زوال الهخامنشيين أصبحت شبه الجزيرة العربية الشمالية أكثر تحررا من النفوذ الأجنبى ولم يتخذ خلفاء الإسكندر طريقهم إليها إلى أن عظم شأن دولة الروم فى الغرب والدولة الساسانية فى الشرق وعادت السياسة الخارجية تولى اهتماما للجزيرة العربية ، كما سيرد الذكر وفى عهد شابور الملك الفارسى ، الذى تولى العرش لفترة قصيرة فى ظل الأسرة الساسانية ، قام العرب بغزو فارس عن طريق الخليج العربى ، وعندما تولى أرد شير العرش فى فارس قام بطرد العرب من فارس ودخل البحرين عن طريق الخليج العربى وتوغل فى أراضى الجزيرة العربية واستولى على المنطقة الممتدة من السواحل وحتى ديار بكر ، ولم تكن المنطقة الداخلية من شبه جزيرة العرب تمثل لقمة سائغة بالنسبة للغزاة وذلك بسبب جفافها وحرارتها المرتفعة وصحاريها الشاسعة ، وكان نظر الفاتحين يتجه دوما إلى المناطق العامرة على أطراف شبه الجزيرة وامتداد الطرق بها .

* * *

تنتشر حياة البداوة فى شمال الجزيرة العربية أكثر من حياة الحضر بسبب طبيعة الأرض، والمناطق الحضرية فى هذه المنطقة هى غالبا نفس الواحات والقرى الواقعة على طول الطرق التجارية ، وسكان هذه الواحات غالبا ما يتخذون شكل المجتمع المستقل الذى يمكن أن نطلق عليه اسم « دولة » بل وكانت بعض هذه المجتمعات دولا قوية ولها وزنها النسبى ولعبت أدواراً رئيسية فى تاريخ شبه الجزيرة العربية ومنها دولة الحيرة التى كانت تقع على ضفاف الفرات ، ودولة تدمر فى حلب ، ودولة كندة فى دومة الجندل (الجوف الشمالية حاليا) ، ودولة الغساسنة أو آل جفنة فى حلق الشام ، ودولة البطراء فى خليج العقبة . صحيح أن بعضا من هذه البقاع تعد اليوم خارج حدود الجزيرة العربية إلا أن

سكانها كانوا فى الأزمان الغابرة كلهم من العرب أو بعبارة أدق من أهل الجزيرة العربية.

ومن الآثار والنقوش التى اكتشفت فى هذه المنطقة يتضح أن بعض القبائل النازحة من جنوب الجزيرة كانت قد اتخذت من هذه البقاع مستقرا لها . وقد ورد فى أخبار العرب أيضا حديث عن هجرة القبائل من الجنوب إلى الشمال ويرد بها صراحة أنه فى أعقاب انهيار سد مأرب فى اليمن شاع النزوح من الجنوب إلى الشمال . ويربط الباحثون الأوربيون بين هذه الهجرات وبين التجارة ويرون أنه بعد استقرار طريق البحر الأحمر فى أيدى الروم وكساد الطريق الجنوبى ، وهو ما سبق أن تحدثنا عنه ، اشتدت موجة هذه الهجرات . ولا شك أن دول الجنوب كمعين وسبأ كانت لها قبل هذه الأحداث مستوطنات وربما نقاط عسكرية على امتداد الطريق بين اليمن وفلسطين بحيث يمكن القول أن شمال غرب الجزيرة العربية كان يوما خاضعا برمته لسيطرة دولة معين ؛ ففى قرية العلا الواقعة فى ديدان القديمة ، والتى سميت فيما بعد « قرح » ، تم العثور على نقوش عديدة بالخط واللغة المعينية وبها أسماء تسعة من ملوك دولة معين ، وورد أيضا فى هذه النقوش الحديث مرة أخرى عن « الكبراء » (جمع كبير) الذين تولوا الحكم فى هذه المناطق باسم دولة معين ، وكانت مدين التى اشتهرت فى أخبار العرب أيضا إحدى المستعمرات المعينية فى الشمال ، وورد ذكرها باسم « مصران » أو « معين مصران » فى نقوش دولة معين والألواح الآشورية التى ترجع إلى القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد . وكانت «مصران » هذه منطقة واسعة ربما كانت تضم يثرب والتيماء فى نطاقها وبناء على قول بلين المؤرخ الرومانى ، كانت ثمة مستوطنات إغريقية على السواحل الشمالية والوسطى للبحر الأحمر ، وهى المستوطنات التى تحدث عنها غلازر المستكشف والباحث المتخصص فى تاريخ العرب بالتفصيل فى كتابه . ويمكن من هنا الحصول على مصدر لتفسير التأثيرات الإغريقية التى تلاحظ فى اللغة العربية ، وبالإضافة إلى ذلك كانت ثمة صلات تربط بين المهاجرين العرب فى مناطق أخرى من الحدود الشمالية وبين العنصر اليونانى .

وفى عصر دولة معين سيطر على الشمال الغربى من الجزيرة العربية قوم آخرون من أصل سامى هم الأنباط . وبمرور الزمن أقاموا دولة عظيمة فى مدينة البطراء وفرضوا سيطرتهم على الطريق التجارى الشمالى الممتد من الخليج الفارسى إلى البحر المتوسط،

وغالبا ما يعتبر المؤرخون المحدثون الأنباط من أصل عربى[1] . أما المؤرخون المسلمون فيرون أنهم لم يكونوا عربا ويطلقون عليهم اسم « الآراميين » ، وكان خطهم ولغتهم آرامية إلا أنهم من حيث اللغة كانوا أقرب إلى العرب . ويجمع بعض الباحثين بين هذين الرأيين ويرون أن الأنباط فى أول عهدهم حين وردوا إلى هذه البقاع كانوا آراميين خلصا، وبعد استقرارهم بسيناء وشمال الحجاز اختلطوا بالعرب فظهرت من هذا الاختلاط طبقة الأنباط العرب ، ويعتبر البعض أن لفظ « نبطىْ » مشتق من اسم نبايوط بن إسماعيل، الذى ورد ذكره فى التوراة ، ويرون أن هذا الشعب من نسله .

كانت البطراء عاصمة الأنباط تقع فى شبه جزيرة سيناء فى المنطقة التى تعرف اليوم باسم وادى موسى ، وكانت هذه المدينة نقطة التقاء الطرق التجارية لشمال وجنوب الجزيرة العربية وعلى رأس طريق الشام ومصر وميناء غزة ، ولذا فقد كانت أهم نقطة عبور (ترانزيت) ، وكان اليهود يطلقون على هذه المنطقة الجبلية اسم « سلع » الذى يعنى «صخرة» أو « جبل » ويرادفه لفظ « بترا » اليونانى والرومانى واللاتينى ، وكان أقدم سكان هذه المنطقة شعب يطلق عليه اسم « الحوريين » الذين كانوا يسكنون المغارات والكهوف ، وأعقبهم شعب من أصل سامى يسمى الأدوميين الذين ورد ذكرهم فى سفر التكوين ، وفى عهد ملك داود وقعت هذه المنطقة تحت سيطرة اليهود ، وفى حملة نبوخذ نصر (بخت نصر) على فلسطين ساعد الأدوميون هذا الغازى الآشورى حيث كانوا قد ضاقوا بسيطرة اليهود عليهم ، ومكافأة لهم على نصرتهم له منحهم استقلالهم من جديد فمدوا سيطرتهم إلى الحدود المصرية والبحر المتوسط ، ثم قام الأنباط بالهجوم من ناحية الشرق ودمروا دولة البطراء الأدومية واختلط الأهالى بالغزاة ، فأقام الأنباط فى هذه المنطقة فى حدود القرن الرابع قبل الميلاد مدينة عامرة حتى أوائل القرن الثانى الميلادى ثم سقطت فى يد الرومان (فى عام 106 ميلادية) .

ورغم أن البطراء كانت تقع فى منطقة جبلية جافة تفتقر إلى سبل الحياة إلا أنها كانت تحظى بتجارة زاهرة ويسكنها عدد كبير من الناس بفضل موقعها ،ونظرا لا تصالهم بالرومان

---

(1) للحصول على دلائل على هذا الزعم يرجع إلى « العرب قبل الإسلام » ، ص 74 ، « وتاريخ اللغات السامية » .

فقد اتخذت لونا حضاريا أوربيا ، وتدل على ذلك آثارها الباقية اليوم ، ويربط البعض بينها وبين اسم « رقيم » الذى ورد ذكره فى القرآن [1] .

وورد ذكر الأنباط فى النقوش الآشورية ، فيزعم آشور بانيبال (أواخر القرن السابع قبل الميلاد) أن شخصا باسم ناتان كان قد هزم الملك النبطى ، ويبدو أن هؤلاء كانوا الأنباط الذين عاشوا بالقرب من العراق ، حيث كان الشعب النبطى ، كما سبق القول ، ينتشر حتى العراق . وورد ذكر أنباط البطراء بوصف تفصيلى جذاب فى كتاب ديودور الصقلى المؤرخ اليونانى فيذكر هذا الكتاب أن أنتيجون خليفة الإسكندر فى مقدونيا قام بغزو البطراء للمرة الثانية إلا أنه فشل فى فتحها ، ثم اضطر إلى عقد الصلح معها . ومنذ ذلك التاريخ حظيت البطراء بمكانة كبيرة وقوة لها وزنها ، ثم بدأت فى الفتوحات فاستولت على الأراضى شمالا حتى دمشق وجنوبا حتى صحراء الحجاز الشمالية ، وزحفت غربا حتى دلتا مصر وكان ذلك إبان ضعف الدولة السلوقية ، ووردت فى النقوش أسماء ثلاثة عشر ملكا نبطيا من بينهم الحارثة الثالث (من 86 إلى 62 قبل الميلاد) ، الذى تمت الفتوحات المذكورة فى عهده ، ويعرف فى التواريخ الإغريقية بأنه كان صديقا ومحبا للإغريق .

ثمود :

إلى الجنوب من نطاق الأنباط وفى منطقة تسمى « حسمى » تقع إلى شمال الحجاز على طريق الحجاز - الشام كان يعيش شعب آخر يطلق عليه اسم « ثمود » ، ورد ذكرهم مرارا فى القرآن ، وكان هذا الشعب من أقدم شعوب شمال شبه جزيرة العرب ، حيث ورد ذكرهم فى النقوش الآشورية التى تتعلق بالقرن الثامن قبل الميلاد ، وتنص هذه النقوش على أن سارجون كان قد أسر بعضا منهم فى عام 715 قبل الميلاد ، كما وردت أخبار هذا الشعب فى كتابات الإغريق حتى أوائل القرن السادس ، ومن بين هذه الأخبار أن بعض فرسان ثمود كانوا ضمن جيوش بيزنطة ، ويذكر بلين أن المنطقة التى كان شعب ثمود يعيش بها تقع فى الحجر ودومة الجندل والحجر هى تلك المنطقة التى يطلق عليها فى التاريخ الإسلامى اسم المدائن ، ولا تزال بها إلى اليوم آثار قديمة واضحة المعالم من

(1) العرب قبل الإسلام ، ص 66

أبنية وقصور ، ونظرا لوقوعها على الطريق بين الحجاز والشام فقد ورد ذكرها فى الفتوحات الإسلامية ، إلا أن كل هذه الآثار تنتمى إلى أنباط البطراء الذين كانوا يعيشون فى هذه المنطقة قبل ثمود ، وكانت لغة شعب ثمود تقترب من العربية الحجازية أو الإسلامية ، وكانوا يكتبون بالخط الآرامى ، كما تمتد نقوشهم إلى فترة ما بعد الميلاد أيضا .

وقامت طائفة من شعب ثمود كانت تحظى بقدر أكبر من الحضارة بإنشاء دولة لها فى منطقة العلا فى شمال الحجاز ويطلق عليها اسم الدولة اللحيانية التى ورد ذكرها فى كتابات الإغريق ونقوشها موجودة بين أيدى الباحثين . كان لهؤلاء اللحيانيين حضارة مركبة من عناصر من حضارتى معين والأنباط وذات صبغة ثمودية تميزها ، وكان قيام هذه الدولة يرجع إلى فترة طويلة بعد قيام دولة الأنباط المجاورة لها ، إلا أنها ظلت قائمة لمدة طويلة بعد زوال دول الأنباط فى البطراء (عام 106 ميلادية) ، وفى هذه الفترة قامت بتوسعات باتجاه الشمال واستولت على المناطق التى كانت خاضعة للأنباط ومن بينها منطقة الحجر ، وفى أعقاب زوال الدولة اللحيانية تقهقر شعب ثمود إلى الجنوب أى إلى الحجاز والمنطقة الداخلية من الجزيرة العربية ، وقبيل ظهور الإسلام اندمجوا فى قبائل هذيل وزال ذكرهم ، ويعتبرهم كتاب الأخبار من العرب ضمن العرب البائدة ، كما رأينا سابقا .

تدمر :

فى القرن الثانى الميلادى عندما دالت دولة البطراء نهضت دولة أخرى فى شمال الجزيرة العربية ، وهى دولة تدمر التى يمكن اعتبارها أكبر الدول التى قامت فى شمال شبه الجزيرة العربية . وكانت تدمر واحة ببادية الشام فى شرق دمشق على الطريق التجارى الشمالى أى الطريق الذى يربط الخليج العربى بالشام ومصر .

كانت تدمر فى القرن الأول الميلادى دولة مستقلة ثم صارت بالتدريج تحت حماية الرومان ، وكانت بها تنظيمات إدارية تشبه نظام المدن الإغريقية والرومانية وفى الحروب التى نشبت بين الفرس والروم اتخذت مكانة عسكرية هامة ولفتت انتباه أباطرة الرومان فكانت معبرا لجيوشهم ، ونظرا للعون الذى قدمه أهالى تدمر للدولة الرومانية

فى هذه الحروب فقد منحتهم الدولة الرومانية صفة الولاية أو المستعمرة وصارت للتدمريين نفس الحقوق المكفولة لمواطنى روما ، بل واكتسبوا صفة المواطنة الرومانية ، وكان أباطرة الرومان فى عبورهم من أراضى تدمر يسبغون على كبرائها الرتب والألقاب الرومانية ، وكان نظام الحكم فى هذه المنطقة فى عهد استقلالها شبيها بالنظام الجمهورى ، وكان الحاكم يلقب بالرئيس التدمرى ، ثم أقر الرومان بها نظام حكم قاصر على أسرة واحدة ويورث ، وكان هؤلاء الزعماء فى مراسمهم يتخذون لأنفسهم لقب « ستيموس » المأخوذ عن اسم الإمبراطور الرومانى سبتيموس سورروس ، وارتقى بعضهم إلى درجة عضو بمجلس الشيوخ بل وإلى مرتبة القنصل التى كانت تعد مقاما رومانيا رفيعا ، وفى عهد شابور الأول الساسانى انحاز أذينة بن حيران (أذينة الثانى أو « أدناتوس » كما أطلق عليه الروم) إلى الروم رغم الهزيمة التى ألحقها شابور بالملك فاليرين، فهاجم فارس وقام بطرد الفرس من آسيا الصغرى والشام والجزء الرومانى من بين النهرين وتقدم إلى مشارف طيسفون * ، ثم عاد أدراجه وأرسل الغنائم والأسرى الفرس إلى القيصر (عام 264) . وفى مقابل هذه التضحيات أسبغ عليه الرومان لقب«حاكم المشرق وولى عهد الإمبراطور»، وهو منصب لم يكن له نظير حتى ذلك الوقت . وبمقتضى هذا المنصب ، أصبح أذينة ملكا على الشام والجزيرة العربية وأرمينيا وبادوكية وقلقيلية .

تم اغتيال أذينة على يد ابن أخيه فى عام 266 أو 267 م فى حمص عندما عقد العزم على غزو مناطق أخرى . وتولى الحكم من بعده ابنه (أوابن زوجته) وهب اللات إسميا حيث كان لا يزال صغيرا ، أما مقاليد الأمور فكانت فى يد أمه زنوبيا ، وفى هذا الوقت كان الإضطراب قد بدأ فى الدولة الرومانية من الداخل فاستغلت زنوبيا الحاكمة القوية الشجاعة الفرصة السانحة فهاجمت آسيا الصغرى وانتزعتها من سيطرة الرومان وضمتها إلى نطاق ملكها ، وضربت السكة فى الإسكندرية باسم ولدها (عام 270 ميلادية) وأطلقت عليه لقب ملك وعلى نفسها لقب ملكة ، بل ولقبته بلقب «ملك الملوك»(ملكان ملكا) فى بعض النقوش ، وفى ذلك الوقت كان أورليان قد تولى الملك وأصبح إمبراطوراً للرومان ، فهب لسحق التدمريين ، واستولى على آسيا الصغرى ومصر

---

* وهى التى أطلق عليها المسلمون اسم المدائن .

منهم بالتدريج ، ثم عاد إلى تدمر وحاصر المدينة ، فرحلت زنوبيا وولدها عنها بهدف الحصول على العون من الفرس ، إلا أنهما وقعا أسيرين فى يد الرومان بالقرب من نهر الفرات ، وأصدر الامبراطور عفوه عن أهالى المدينة ، أما زعماء الدولة وعمالها فقد أعدمهم ، وكان من بينهم لونجينوس العالم الشهير الذى كان يعيش فى بلاط زنوبيا ، واصطحب الامبراطور كلا من زنوبيا وابنها معه إلى روما ، وفى الطريق بلغه أن أهالى تدمر قاموا بثورة ، فعاد أدراجه وأعمل القتل فى الشعب ودمر المدينة تدميرا (عام 272 ميلادية)، فقضت زنوبيا وابنها ما تبقى من عمرهما فى منفاهما بالقرب من مدينة روما على الراتب الذى أجرى لهما ، وفى النهاية وافتهما المنية فى نفس المكان .

كانت زنوبيا فى الكتابات العربية واحدة من أشهر ملوك الشرق وتروى عنها القصص، وكانت هذه الملكة أشبه بأبطال التاريخ منها إلى النساء ، فكانت فى بلاطها أشبه بملوك الفرس فى الأبهة والكبر وفى جيشها أقرب إلى تصرفات قادة الروم والإغريق وأطوارهم إضافة إلى جمالها وقوة بيانها ، لذا فهى معروفة جيدا لدى كتاب الإغريق والرومان ولو أنها لا شأن لها فى تواريخ العرب ، وقد حاول البعض أن يطابق بينها وبين الزباء التى اشتهرت فى الأساطير العربية إلا أنه ليس معلوما ما إذا كانت نفس الشخص أم لا [1]

ويمتد الخلاف ليشمل ما إذا كان التدمريون عربا أم آراميين وهو نفس الخلاف الذى ثار حول الأنباط ، والقدر المتفق عليه هو أن نقوش تدمر قد كتبت بالخط واللغة الآرامية مع وجود ألفاظ يونانية ولاتينية عديدة امتزجت باللغة ، وبقيت من آثار تدمر أطلال لمعبد ومقبرة فى المنطقة التى لازالت تعرف حتى اليوم باسم تدمر ؛ فكانت مبانيها على الطراز المعمارى الإغريقى وتحكى عن مجد كبير ، كما أن هناك عملات معدنية لأمراء تدمر تم الكشف عنها .

اللخميون :

على الطرق التجارية الشمالية كانت ثمة ثلاث دول أخرى تسمى اللخمية والغساسنة

---

(1) انظر رسالة ردهوس تحت عنوان Were Zenubia and Zebba Identical ?

تعد كلمة « زنوبيا » أقرب إلى اسم « زينب » .

وكندة ، وكانت عبارة عن قبائل من المهاجرين الجنوبيين ممن نزحوا من الجنوب إلى الشمال بغرض التجارة أو ربما على أثر انهيار سد مأرب وهو ما يرجحه كتاب الأخبار من العرب، ثم قامت هذه القبائل بتأسيس دول ظلت قائمة حتى ظهور الإسلام ، وعلى خلاف تدمر والبطراء اللتين كانتا أقرب إلى الآراميين والنبط كانت هذه الدويلات ذات سمات عربية واضحة ، ويتضح من النقوش التى تم الكشف عنها فى أراضى لخم [1] أن اللغة التى كانت متداولة فى تلك المنطقة كانت أقرب إلى العربية الشمالية (لغة الحجاز) وربما كانت نفس هذه اللغة فى أوان ظهور الإسلام ، وكانت تربط بين هذه الدويلات وبين العرب البدو الشماليين صلات وثيقة وعلاقات متعددة ، وكان شعراء البادية يحضرون إلى بلاطات الملوك اللخميين والغساسنة وينظمون فى مديحهم القصائد ، لذا فإن الأخبار والحكايات التى تتعلق بهذه الدويلات تعد أكثر من غيرها لدى كتاب الأخبار العرب ، وكانت هذه الدويلات شبه متحضرة وشبه مستقلة وكانت كل منها تتبع واحدة من الدول الكبرى المجاورة وكانت كل منها آداة فى يد كل من هذه الدول ؛ فكان اللخميون تابعين للفرس ، وكان الغساسنة يمدون أولياءهم بالعون فى الحروب التى كانت تنشب بين الفرس والروم وكانوا يسيرون فى ركبهم إلى ساحات الحرب فكانوا ينعمون بصلاتهم وبحمايتهم، أما فى أوقات السلام والانعزال عن الدول الكبرى فكانت هذه الدويلات تقوم بفتوحات فى البادية أو بالاقتتال فيما بينها .

كانت عاصمة الدولة اللخمية الحيرة ، وهى مدينة فى جنوب الكوفة الحالية على ساحل بحيرة النجف التى جفت اليوم ، و « حيرة » فى اللغة السريانية تعنى « قلعة » أو «حصن » ، وكانت هذه المنطقة بمثابة برزخ بين أراضى العراق وبادية الجزيرة العربية ونقطة التقاء بين أسلوبى الحياة الحضرى والبدوى ، وكان سكانها من مختلف قبائل العرب من شمالية وجنوبية (عدنانية وقحطانية) على السواء . وبناء على إحدى الروايات ، كانت إمارة هذه المنطقة فى أواسط القرن الثالث الميلادى فى يد رجل من قبيلة أزد أو قضاعة(من عرب الجنوب) يسمى جذيمة ويلقب بالأبرش أى الأبرص ، وقد دخل فى حروب مع الزباء (زنوبيا) ملكة تدمر ، وفى النهاية سقط فى يدها أسيرا فقتلته فى

(1) انظر نقش غارة ونقش حران فى «تاريخ اللغات السامية » لولفنسون ، ص 190- 194 .

عام ٢٧٠ ميلادية ، وخلفه فى الإمارة ابن أخته عمرو بن عدى بن نصر من قبيلة لخم وبه بدأت سلسلة ملوك اللخميين الذين يطلق عليهم أيضا اسم المناذرة وآل نصر ، واستمروا فى الإمارة حتى عام 602 ميلادية ، وقد حكم الحيرة ما يقرب من عشرين ملكا من هذه الأسرة فى غضون ثلاثمئة ونيف من السنين بلا انقطاع سوى فى فترتين قصيرتين .

كانت دولة الحيرة حاجزا يحول بين بلاد الفرس التى كانت تسيطر على أراضى العراق فى ذلك الوقت وبين عرب البادية ، فكانت بمثابة نقطة حراسة فى مواجهة الروم ، ومن ثم فقد كانت حمايتها والإبقاء عليها موضع اهتمام دولة الفرس ، وكان الملوك الساسانيون يستمدون من الحيرة عونا كبيرا فى حروبهم مع الروم ، ويرتبط تاريخ اللخميين بصورة كلية بتاريخ الساسانيين ، لذا فتاريخهم معروف إلى حد كبير نسبيا ، بالإضافة إلى أن المؤرخين البيزنطيين الذين عاصروهم يقدمون معلومات هامة عنهم . كان من كبار ملوك هذه الأسرة امرؤ القيس الأول الذى تم العثور على قبره فى نمارة بحوران الشرقية ، وعلى قبره نقش ، يعد من الناحية التاريخية ومن ناحيتى الخط واللغة ، وثيقة هامة ، ومن كبار ملوكهم كذلك النعمان الأول ابن امرئ القيس ، وهو صاحب القصر المعروف باسم الخورنق، وأسطورة سنمار الشهيرة تتعلق به ، ويروى أن يزدجرد الأول الساسانى كان قد أسلم ابنه بهرام (بهرام حمار الوحش) منذ طفولته للنعمان ليقوم بتربيته ، فأقام النعمان هذا القصر - حسبما تجرى الرواية - ونشأ نشأة عربية ، ولا يستبعد أن يكون بهرام قد عاش فى صباه بالحيرة ، أما ارتباط القصر باسمه ونشأته العربية بهذا القدر الذى تشير إليه الرواية فيعد مسألة غير مؤكدة

ومن مشاهير ملوك هذه الأسرة الملكية أيضا المنذر المعروف بابن ماء السماء والذى تولى الملك فى أوائل القرن السادس الميلادى ، وكان منحازا للفرس لدرجة الدخول فى حروب ضد الروم والغساسنة الخاضعين لحمايتهم ، ولقى مصرعه فى حربه مع الغساسنة فى عام 554 ميلادية ، وقام قباد الساسانى فى أواخر عهده بعزل المنذر عن الإمارة وولى بدلا منه ملك الكنديين حارث بن عمرو ، إلا أن مدة عزل المنذر كانت قصيرة حيث توفى قباد فى تلك الأثناء وخلفه على عرش فارس أنو شيروان الذى أعاد المنذر إلى عرشه ، ويقال أن غضب قباد على المنذر كان يرجع إلى اعتناق المنذر العقيدة المزدكية ، فكان المنذر يعارضه فى هذا الصدد ، فولى قباد حارثا الكندى الذى كان يميل أيضا إلى

العقيدة المزدكية مكانه ، إلا أن صحة هذا المبرر لا تزال أمرا غير مؤكد ولا تزال حقيقة الأمر محهولة

كان آخر ملوك اللخميين النعمان بن المنذر الذى جلس على العرش طبقا لأقوى الاحتمالات فى عام 580 ميلادية ، وهناك حكايات عديدة تروى عن هذا الملك فى أخبار العرب ، وقد حلد ذكره الشعراء الذين كانوا يترددون على بلاطه ، وفى حوالى عام 602 ميلادية أرسل خسربرويز ملك فارس فى طلب مثول النعمان فى بلاطه ، فألقى به فى السجن وبعد فترة ألقاه تحت أقدام الفيلة لتسحقه ، وفى رواية أخرى يقال إنه توفى بمرض الطاعون ، ثم قام خسرو بتنصيب أمير عربى من قبيلة طى يسمى إياس بن قبيصة على إمارة الحيرة مع وصى فارسى ، وبعد تسع سنوات وفى رواية أخرى بعد سبع سنوات تم ضم الحيرة إلى بلاد فارس نهائيا وتم تنصيب حاكم فارسى عليها ، وفى عام 11 هجرية فى خلافة أبى بكر وفى أثناء ارتداد القبائل أعلن أحد أبناء النعمان يسمى المنذر ويلقب باسم « عرور » الثورة فى الحيرة وتولى زعامة العرب المرتدين لبضعة أشهر إلى أن لقى مصرعه على يد جيش الحلافة فأصبحت الحيرة تابعة لسلطة الخلافة .

وهكذا دالت دولة الأسرة اللخمية وانهار السد الذى قضى الساسانيون سنوات فى بنائه وزال على يدى برويز ، ومازاد الأمر سوءا أن برويز بعد وفاة النعمان أرسل يطالب بالأموال التى كان النعمان قد أودعها لدى بنى شيبان فى طريقه إلى فارس ، فلم تقبل هذه الطائفة بأن تسلم الأموال له ووصل الأمر إلى درجة الحرب ، فأنزل العرب ، الذين كانوا أوفر عددا ، هزيمة قاسية بجيش فارس ، وكانت الهزيمة التى كشفت عن ضعف دولة الفرس فى ذلك الوقت ، وقد وقعت فى منطقة ذى قار بالقرب من الكوفة ، فانتشر الخبر فى أرجاء الجزيرة العربية ، فصارت موقعة ذى قار منطلقا لإرسال العرب لجيوشهم لغزو فارس فى العصر الإسلامى .

هناك خلاف حول أسباب إقدام برويز على القضاء على الأسرة الملكية اللخمية ، فتقول إحدى الروايات أن الأمير اللخمى كان قد دبر مؤامرة مع العرب ضد ملك الفرس ، وتقول رواية أخرى أن برويز ، بعد إبرامه للصلح مع الروم ، وجد نفسه فى غير حاجة إلى الأسرة اللخمية وأنه كان طامعا فى بلادهم ، ويقال فى رواية ثالثة أنه غضب على النعمان

لإعتناقه المسيحية أو لانحيازه إلى النساطرة فى حين كان برويز متعاطفا مع اليعاقبة ، وليست هذه الروايات سوى افتراضات حدسية لاترقى أى منها إلى مستوى اليقين القاطع.

ظهرت المسيحية فى الحيرة حوالى القرن الرابع الميلادى وانتشرت تدريجيا بين أهلها ، إلا أن الملوك اللخميين كانوا يكبحون ميلهم إليها ، وربما كانوا فى هذا الصدد يراعون توجهات البلاط الفارسى الذى كان يناهض المسيحية ويعتبرها دين الأعداء ، إلى أن أعلن النعمان بن المنذر اعتناقه لها فى أواخر القرن السادس ، وكان ذلك فى وقت ساد فيه السلام العلاقات بين الروم والفرس ، فانتشرت المسيحية فى فارس لدرجة أن اعتنقتها زوجة الملك وفرضت حمايتها عليها صراحة .

الغساسنة :

قامت دولة الغساسنة فى المنطقة الشمالية من شبه الجزيرة العربية فى منطقة تسمى حوران وبلقاء بجوار ممتلكات دولة الروم ، وكان لهذه الدويلة نفس الوضع الذى كان لدويلة اللخميين مع الفرس ، فكانت حامية حدود الروم فى مواجهة عرب البادية وذخرا عسكريا لحروبها مع الفرس ، وكان ملوك الغساسنة يلقبون من جانب الدولة الرومانية باسم «فيلارك» ويحظون بلقب « باتريكيوس » (بطريق) ، وكانوا يحصلون على رواتب سنوية من الروم ، وكانت عاصمة الغساسنة طبقا لرأى كتاب الأخبار من العرب من مهاجرى الجنوب الذين كانوا قد أقاموا بعد نزوحهم من الجنوب لفترة فى تهامة قرب عين ماء أوبئر يقال له غسان وأنهم صاروا ينتسبون إليه [1] ، وكان العرب سكان يثرب (المدينة) ممن يعرفون فى العصر الإسلامى باسم الأنصار يعتبرون أنفسهم من الغساسنة .

وهاجر الغساسنة فى القرن الخامس الميلادى من تهامة إلى منطقة حوران الشهيرة ، وكانت حكومة حوران فى ذلك الوقت فى يد طائفة من العرب تسمى الضجاعمة الذين كانوا حكاما يتم تنصيبهم من جانب الروم أى كانوا « فيلاركات » هذه المنطقة حسب

---

(1) يذكر بطليموس فى القرن الثانى الميلادى أن مستقر هؤلاء القوم كان فى السواحل الغربية للجزيرة العربية،ومن ذلك يتأكد لنا أن الغساسنة كانوا لا يزالون يقيمون فى تهامة حتى ذلك الوقت.(المؤلف) .

التسمية الرومانية . وفى أوائل القرن السادس الميلادى انهار الضحاعمة وأسلمت دولة الروم حكم تلك المنطقة لرجل مں آل غسان يسمى حارث بن جلة (عام 529 ميلادية) ، وأصبح هذا المنصب متوارثا فى نسله ، وكان العرب ينسبون هده السلسلة إلى اسم حد حارث هذا وهو آل جفنة .

كان حارث بن جبلة هذا يعد أكبر ملوك الغساسنة ، فقد حكم مدة طويلة نسبيا وكان يرافق القائد الرومانى المعروف بليرز فى غزواته وحملاته على الفرس ، وطالما دخل فى‌معارك مع ملك الحيرة ، لذا فقد اشتهر اسمه بين قبائل العرب ودكره الشعراء فى أشعارهم ونظموا وقائعه شعرا ، ومن هذه الأشعار معلقة الحارث بن حلزة التى تعد من المتعلقات السبع .

وبعد الحارث تولى المنذر الملك لمدة ثلاثة عشر عاما ، ثم غضب عليه الروم فحكموا عليه بالنفى إلى حزيرة صقلية التى ظل بها حتى وافته المنية ، ويحتمل أن غضب الروم على هد الأمير الغسانى كان يرجع إلى مسألة دينية حيث كان الغساسنة يعتنقون المذهب اليعقوبى الذى كان الروم يناهضونه ، وبعد المنذر ثار أبناؤه الأربعة بقيادة أكبرهم النعمان (غير النعمان بن المنذر اللخمى) على الروم ونقلوا مقرهم من المدينة إلى البادية ومنها أنطلقوا فى هجماتهم على المستعمرات الرومانية ، إلا أن الروم تمكنوا من القبض على النعمان عن طريق الخديعة وأخذوه إلى القسطنطينية حيث ألقوا به فى السجن ، ومن ذلك الوقت لم يعد للغساسنة ذكر فى كتابات الروم ، ولكن ثمة قصائد لبعض الشعراء العرب يرجع تاريخ نظمها إلى ما بعد سقوط النعمان ، وترد فيها أسماء بعض أمراء الغساسنة، ومن المعروف أيضا أن خسرو برويز قد هاجم الشام وفلسطين فى عام 413م . وظلتا تحت سيطرته حتى عام 629. وبناء على ذلك ، فإن دولة الغساسنة لو كانت لا تزال قائمة فلابد أنها قد زالت فى هذا الغزو الفارسى ، وبعد 629 م . عندما استعاد الروم سيطرتهم على الشام وفلسطين من أيدى الفرس ليس من المعروف ماإذا كانت دولة الغساسنة قد استردت مكانتها من جديد أم لا ، وفى ضمن أخبار الفتوحات الإسلامية يرد الحديث عن أمير غسانى يسمى جبلة بن الأيهم الذى كان ضمن جيوش الروم وقاتل ضد المسلمين ثم اعتنق الإسلام وبعدها ارتد إلى المسيحية ، وهناك أيضا خبر عن حرب خالد بن الوليد ضد أمير غسانى يسمى الحارث بن الأيهم ، إلا أن أيا من هذين‌الرجلين لم

تعرف هويته بعد   ومن المحتمل أن دولة الغساسنة تقوضت أركانها فى أعقاب موت النعمان هذا ولم يبق منهم سوى أمراء صغار فى أركان متفرقة . يقول ابن العبرى أن الغساسنة بعد زوال دولتهم تفرقوا ورحلوا إلى المناطق المحيطة ، وظل عدد منهم فى رى الموصل والعراق حتى العهد الذى عاش فيه ابن العبرى (أى القرن السابع الهجرى) وقد ظلوا ثابتين على مذهبهم اليعقوبى .

بنو كندة :

كانت دولة بنى كندة مملكة أنشأتها جماعة من قبيلة بنى كندة فى نجد ودومة الجندل ، وكان بنو كندة أيضا كاللخميين والغساسنة من القبائل المهاجرة ، وكانوا طبقا للروايات العربية يعيشون فى البداية على حدود حضرموت فى الجنوب ، ثم هاجروا شمالا تحت ضغط من الحضرموتيين أو بسبب ترك ملك اليمن الحميرى لإمارة بعض قبائل الشمال فى يد أمير بنى كندة ، فسكنوا فى المنطقة المعروفة ببطن عاقل فى نجد ، وكانت هذه الدويلة تعد تابعة للدولة الحميرية باليمن ، وكانت لها علاقات متشابكة بالدولتين المعاصرتين لها أى اللخميين والغساسنة .

ومؤسس الدولة الكندية هو حجر بن عمرو الملقب بآكل المرار [1] الذى تتحدث أخبار العرب عن حسن سياسته وعن الإنتصارات التى حققها على اللخميين ، ومن بعده أتى ولده عمرو ولقب بالمقصور لأنه لم يضف إلى ملك أبيه شيئا .

ويعد الحارث الإبن الأكبر لعمرو آخر وأعظم ملوك هذه الدولة ، ويرتبط تاريخه بتاريخ الفرس كما سبقت الإشارة إلى دلك فى الفصل الخاص بدولة اللخميين ، فيروى أن الحارث تقرب إلى قباد ملك الفرس عن طريق ميله إلى العقيدة المزدكية ، فاستولى قباد على منطقة الحيرة من المنذر وأهداها للحارث ، فجلس الحارث على عرشها وعين كلا من بنيه الأربعة أميرا على عدد من قبائل البادية فعلا شأنه، ولكن سرعان ما تم تنصيب المنذر وجد فى السعى فى أثره وأثر كل أقربائه، وتوفى الحارث فى ديار كلب فى حين تم قتل عدد كبير من أقاربه على يد المنذر، ووقعت الوقيعة بين أبناء الحارث الأربعة وقتلوا جميعا، وهكذا زالت أسرة الحارث، وكان آخر أفراد هذه الأ. ة إمرؤ القيس حفيد الحارث والشاعر العربى المعروف الذى ظل يطوف بين القبائل العربية طالبا العون على أمل استرداد ملك جده الضائع والثأر لدم أبيه وأعمامه، وفى النهاية ذهب إلى امبراطور الروم وعاد خالى الوفاض وتوفى فى طريق العودة، ويقال أن الامبراطور قتله بالسم، وبعد زوال آل الحارث آلت إمارة بنى كندة إلى أسر أخرى من هذه القبيلة وظلت حتى ظهور الإسلام ثم

(1) المرار عشب مر يأكله الجمل فتغلظ شفتاه ، ويقال أن زوجة حجر أطلقت عليه هذا اللقب لما كان له من شفاه غليظة

ضعف شأنها فى عهد الخلافة .

كانت هذه أهم المراكز الحضرية فى شمال الجزيرة العربية ، كانت مجتمعات متقدمة نسبيا وبلغت فى تطورها مرحلة الدولة ، وكانت بالشمال أيضا مراكز أخرى لمجتمعات حضرية أو بعبارة أخرى مستقرة ولا تعد دولة بأى حال من الأحوال ؛ ومن بينها مكة ويثرب والطائف وقرى وادى القرى والعلا وتيماء وغيرها ، مما سيرد ذكره تفصيلا فيما بعد. وحتى خارج الحدود الشمالية للجزيرة العربية وفى منطقة الصفاة الواقعة فى نطاق الشام وجدت آثار مستوطنة عربية لها خطها المستقل ولغتها الخاصة اللذان يعرفان بالخط واللغة الصفوية [1] .

إلا أن الأغلبية فى شمال الجزيرة العربية كانت من البدو الذين يعدون السكان الأصليين لهذه المنطقة ، وتشير الإحصاءات إلى أن أسلوب الحياة الحضرى كان من سمات المهاجرين من الجنوب فقط فى هذه المنطقة الشمالية كما سبق أن رأينا من قبل ، أو من خصائص حياة اليهود الذين كانوا يقيمون بوادى القرى كما سيرد الذكر بعد قليل ، وقد نزح كل من هاتين الجماعتين إلى هذه المنطقة من خارجها . أما بدو الشمال فكانوا يختلفون من حيث العنصر عن أهل الجنوب . فكانوا يعتبرون أنفسهم من نسل إسماعيل بن إبراهيم النبى العبرى لامن أبناء يعرب . لذا ، فقد أطلق عليهم كتاب الأخبار العرب اسم العرب المستعربة ، وكانت منازل هذه الأقوام فى تهامة ونجد والحجاز وفى بادية الشام من حدود العراق وحتى تخوم الشام .

من روايات أخبار العرب أن إبراهيم أخذ أمته هاجر وابنه إسماعيل بأمر من الله من فلسطين إلى أرض مكة، وكانت حينئذ أرضا قاحلة لا حياة فيها ولا ماء، ثم فجر الله بئر زمزم لإسماعيل، وبلغ إسماعيل أشده بين قوم من العمالقة كانوا يضربون خيامهم فى تلك المنطقة، ثم استولى جرهم وهم طائفة من القحطانيين على هذه المنطقة، فتزوج إسماعيل ابنة ملكهم وكان له منها اثنا عشر ولدا أولهم نابت وثانيهم قيدار، وأتى عدنان من نسل قيدار بعد عدة أجيال تتعدد الروايات حولها، وأنجب عدنان ولدين هما عك ومعد، وكان

---

(1) ويعرف هذا العصر فى تاريخ الإسلام باسم العدنانى والمعدى والمضرى والنزارى وهى أسماء أخذت من أسماء أجدادهم الواردة فى سلاسل نسبهم .

معد هذا جد كل القبائل العدنانية .

وقد ورد فى التوراة وبعض كتابات اليهود الأخرى ذكر عن قوم يقال لهم الإسماعيليون أهل مدين وبنو مشرق وبنو قيدار ، ويرى معظم المؤرخين المحدثين أن المراد بكل هذه المسميات الأقوام العدنانية بالجزيرة العربية ، وفى سفر التكوين صحاح 37 آية 25 ضمن قصة يوسف وإخوته ورد : « ثم جلسوا يأكلون ، وفتحوا عيونهم ليروا قافلة بنى إسماعيل وقد وصلت فجأة من جلعاد ، وكانت إبلهم محملة بالصمغ والبيلسان واللادن ووجهتهم مصر » ، وفى سفر أشعيا إصحاح 21 آية 16 ، 17 يقول : « قال الله لى بعد عام ستكسر شوكة قيدار وسيقل عدد رماة السهام وجبابرة بنى قيدار » .

وفى سفرى إرميا ويهوذا يدور الحديث كذلك عن هجوم بخت نصر (نبو خذ نصر) على قيدار وغارات بنى مشرق ، وفى سفر القضاة أيضا يرد ذكر لهؤلاء القوم وكذلك فى سفر أشعيا الذى يحكى عن « زوال شوكة بنى قيدار وفناء رماة أسهمهم وجبابرتهم » ، ويتضح من هذه النصوص أن هؤلاء الإسماعيليين كانوا شعبا من التجار وأصحاب الأموال وكانوا يتمتعون باحترام وقوة كبيرة فى بيئتهم ، وإذا اعتبرنا وجودهم فى قصة يوسف بالصورة التى وردت فى سفر التكوين مرجعا فلابد من القول بأن هؤلاء القوم كانوا موجودين فى القرن الثامن عشر قبل الميلاد لأن كتاب الوقائع يؤكدون أن يوسف كان يعيش فى ذلك القرن، ولكن ينبغى أن نرى أى أقوام كان هؤلاء أصحاب الأسماء المذكورة فى هذه المصادر وهل كانوا أسلاف عدنانيى الجزيرة العربية أم لا،فيرى ولفنسون أنهم كانوا من العبرانيين ويدخلون ضمن سائر الطوائف العدنية كبنى إسرائيل والكنعانيين وغيرهم، وكانوا يقطنون فى داخل أراضى الحجاز. وتعد قبائل بنى مدين أيضا من ذوى قرباهم وكانوا يسكنون على ساحل البحر الأحمر من العقبة إلى ينبع. ونظرا لعلاقة القربى الوثيقة التى كانت تربط هذين الشعبين فإن كتاب المصادر اليهودية كانوا يطلقون اسم كل منهما على الآخر، ويطلق ولفنسون على هذه الشعوب اسم «العبريين البائدين» ويرى أنهم قد زالوا فى غمرة فتوحات بخت نصر والفرس ومصر على شمال الجزيرة العربية بحيث امتزج الإسماعيليون بالعرب فى الجزيرة العربية فى حين ذابت بطون من بنى مدين فى بنى إسرائيل فى فلسطين[1]،ويطلق جورجى زيدان اسم «العرب الإسماعيليين» على الإسماعيليين فى كل مكان، ويرى أن هؤلاء العرب أصابهم الضعف من جراء هجمات

---

(1) تاريخ اللغات السامية ، ص111 .

بخت نصر ، ثم عادوا إلى الظهور من جديد فى حوالى عصر الميلاد (1) ، ويبدو أن المرجع الذى استندإليه ولفنسون فى تسمية الإسماعيليين باسم العبريين هو كونهم من أبناء إبراهيم ، فهو يطلق اسم « عبرى » على هذا المحمل ، ولا ينبغى أن ننسى أن علماء العرب أيضا كانوا يطلقون على العدنانيين اسم « المستعربة » ، كما سبق القول .

على أية حال ، فهؤلاء العرب المستعربة أو العدنانيون كانوا يختلفون اختلافا واضحا عن العرب العاربة أو القحطانيين من حيث النظام الإجتماعى واللغة والدين :

(1) فمن حيث النظام الإجتماعى ، كان العدنانيون باستثناء قبيلة أو قبيلتين هما قريش وثقيف كانوا من البدو سكان الصحارى من نوع البدو المعاصرين ، فى حين كان أهل الجنوب فى معظمهم من سكان المدن ومن الحضر الذين يسكنون فى بيوت ويستقرون فى مدن عامرة ، وفى قبائل الشمال كان تقليد تولى النساء لزمام الحكم شائعا مما لا يتصف بصفة الشيوع فى تاريخ الجنوب ، فتنص النقوش الآشورية على أسماء عدد من ملكات العرب اللاتى حكمن فى الشمال ، وفى تاريخ الفتوحات التى تمت فى عصر الرسول نرى قصة امرأة تسمى أم قرفة باعتبارها ملكة على إحدى القبائل، كما أن ثورة سجاح وقيادة عائشة للجيش فى موقعة الجمل لاتخلو من شبه بهذا التقليد البدوى القديم، وربما كانت هناك أمثلة أخرى على هذا التقليد بين قبائل البدو فى شمال أفريقيا اليوم .

(2) وتختلف اللغة العدنانية من حيث الإعراب والتصريف ووضع الضمائر والإشتقاق وأشياء أخرى عن لغة سكان الجنوب أى اللغة الحميرية ، ولو أن كلتا اللغتين تشتركان فى أصلهما السامى ، ويتضح الفارق الظاهر بينهما كذلك فى الأسماء الشخصية ؛ فأسماء سكان الجنوب أشبه بأسماء البابليين فى حين لا نجد تشابها بين أسماء أهل الشمال وبين أسمائهم ، ويقال أن اتخاذ أسماء الكائنات من قبيل أسد ونمر وثعلبة وكلب وما إلى ذلك يعد من خصائص أهل الشمال ، كما يلاحظ تغلغل اللغة اليونانية فى لغة الشماليين مما لا وجود له فى لغة الجنوبيين (2) .

---

(1) العرب قبل الإسلام ، ص 127 .

(2)انظر «العرب قبل الإسلام»،«تاريخ اللغات السامية »،«نشأة اللغة العربية»لأنستاس الكرملى

(3) ورغم العناصر المشتركة العديدة التى تربط بين القومين من حيث الديانة إلا أن كلا منهما كانت له آلهته الخاصة به ، كما سيرد بالتفصيل فيما بعد .

ينقسم العدنانيون إلى قسمين باسم ولدى عدنان « عك » و « معد » ، فكانت قبائل عك التى تسمى فى كتابات الروم باسم أخيتاى »[1] تقيم فى أطراف زبيد بجنوب تهامة ، وليس لهذه القبائل تاريخ هام ، اما المعديون الذين يطلق عليهم « العدنانيون » بصورة مطلقة فلهم فروع عديدة ، وينقسمون بصورة كلية إلى قسمين : نزار وقنص ، وكانت الأغلبية فى هذين القسمين للنزازين الذين كانوا يشملون العديد من القبائل ، وأشهرها خمس قبائل : مضر وربيعة وإياد وأنمار وقضاعة ، وهناك اختلاف فيما إذا كانت قضاعة من العدنانيين أو القحطانيين .

يقول كتاب الأخبار العرب أن هذه القبائل كانت تتعايش معا فى العهود القديمة ، ثم تفرقت بها السبل على أثر الشقاق والحروب التى نشبت بينها ، فمضت كل منهما إلى مكان ، ويطلق أهل الأخبار على هذه الحروب اسم « أيام العرب » ويسردون تاريخها بالتفصيل ، إلا أن السبب الحقيقى لتفرق القبائل وتشتتها كان الحياة البدوية نفسها حيث كان البحث عن الماء والعلف يستدعى التفرق ، بل وكانت هذه القبائل تغير على المدن والبلاد العامرة المجاورة للجزيرة العربية . ويحكى مؤرخو الروم عن نزوح بعض قبائل العرب حول الميلاد إلى مصر والحبشة ، وربما كانوا شعبة من بنى قضاعة ، وهناك أيضا بطن أخرى منها تسمى الضحاعمة ورد ذكرهم فى حوران الشام ثم فى الحضر بين الموصل وتكريت .

كانت هذه القبائل الرحالة تربط نفسها أحيانا بالدول المجاورة أى تلك الدويلات التى سبق الحديث عنها منذ قليل ، فتحظى بحمايتها فى نظير جزية تحصلها هذه الدول منهم مع ضم عدد من أبناء القبيلة إلى جيوشها ؛ فكان العدنانيون تحت سيطرة دولة حمير الجنوبية كما رأينا بإيجاز فى أخبار دولة كندة . وفى أواسط القرن الخامس تولى رجل اسمه زهير بن جناب الكلبى حكم عرب الشمال من طرف الدولة الحميرية ، وثارت عليه قبيلتا بكر وتغلب من قبائل ربيعة بسبب الجزية التى كان زهير يتبع القسوة فى

(1) Acchitai

جمعها وكانتا عاجزتين عن دفعها ، فأرسلوا فى البداية قاتلا لاغتياله على طريقة البدو إلا أن سيف القاتل أخطأه ، فاضطروا إلى إشعال الحرب فانتصر زهير ، وفى أواخر القرن نفسه جمع رجل عدنانى يسمى كليب بن ربيعة شمل قبائل معد وهزم الحميريين وخلص قبائله من هيمنتهم ، ويطلق على هذه الحرب فى أخبار العرب اسم " يوم خزاز " ، فكان كليب يمثل بطلا قوميا بالنسبة للعرب العدنانيين . ورغم هذا النصر الذى أحرزه العدنانيون إلا أنهم لم يتمكنوا من تأسيس دولة لهم لتعلقهم الشديد بحياة البادية والروح الفردية ، كما أنهم انشغلوا كذلك بحروب داخلية واغتيالات فيما بينهم ، فكانوا من حين إلى آخر يخضعون لهيمنة دولة من الدول ، ومما يعد معروفا أن العدنانيين لم يحتمعوا فى الجاهلية تحت راية واحدة إلا ثلاث مرات : إحداها فى يوم خزاز ، وأخرى فى موقعة سلان والثالثة تحت لواء عامر بن الظرب فى حربه ضد قبائل مذحج اليمنية . وفى العصر الإسلامى احتمع شمل هذه القوة الضخمة المشتتة مرة أخرى تحت لواء واحد ، وشملت الوحدة القبائل العدنانية كلها بل والعرب بأسرهم ، فتمت هذه الفتوحات الكبرى ، ولكن فى أواخر عصر الخلافة الأموية استيقظ ذلك الحس الفردى البدوى والتعصب القبلى الذى شجعه الخلفاء وأضرموا نيرانه، فانفرط عقد الوحدة العربية، كما سيرد تفصيلا فيما بعد. وهناك قول عربى مأثور يقول "أنا وأخى على ابن عمى وأنا وابن عمى على الغريب" .

ديانات العرب فى الجاهلية :

كانت الديانة المنتشرة عامة فى الجزيرة العربية فى الجاهلية هى عبادة الأوثان على الصورة التى كانت مألوفة لدى سائر الشعوب السامية بالإضافة إلى الخصائص الخاصة التى ترتبط بالعرب والجزيرة العربية وأوجه التأثر الأخرى التى اقتبسوها عن الشعوب المجاورة لهم .

كان للعرب كسائر عباد الأوثان من الشعوب القديمة نوعان من الآلهة : عائلى وقبلى ، يقول ابن الكلبى أنه كان لكل بيت من بيوت مكة صنم يعبده سكانه ، وكلما كان أحد الأفراد يود السفر كان آخر شىء يفعله قبل الرحيل أن يتمسح فىّ إلهه ، وكان ذلك أيضا أول ما يفعله عند عودته إلى داره ، وفى الطريق أيضا كان كلما ينزل فى أحد المنازل يجمع أربعة أحجار يراها أجمل من غيرها ويعتبرها إلها ، ويتخذ من ثلاثة أحجار أخرى دعامات لموقده ، ومع الرحيل يترك كل ذلك وراءه ليفعل نفس الشىء فى منزل

آخر[1]، وكانت عبادة العرب للأحجار معروفة أيضا للإغريق، فيصرح بذلك كل من هيرودوت وكليمان السكندري. وفى تفسير لهذه العقيدة ، يقول مؤرخو العرب أن أهل مكة من فرط تعلقهم بحرم الكعبة ومكة كانوا فى تنقلاتهم منها إلى أى مكان آخر يحملون معهم حجرا من مكة ينصبونه فى مستقرهم الجديد ويطوفون حوله، وكانوا يطلقون على هذه الأحجار اسم"الأنصاب"فى مقابل"الأصنام"التى كانت تطلق على التماثيل ذات الأشكال، وكانت الأصنام تصنع من الخشب والذهب والفضة والأوثان من الحجر [2] .

وكانت الآلهة ، القبلية أصناماً تعبدها قبيلة واحدة أو تشترك فى عبادتها عدة قبائل، وكان لبعض هذه الآلهة عمومية كبيرة تشترك فى تقديسها قبائل كثيرة، وكان لكل من هذه الآلهة معبد فى مكان ما وبين القبائل لدى قبيلة بعينها، وكانت تقوم على خدمة (سدانة) هذا المعبد أسرة محددة من تلك القبائل وتتوارث هذه المهمة، وكان بعض هذه القبائل عبارة عن تمثال محوت مثل الإله "ود" الذى كان على هيئة رجل يرتدى رداء البدو ويحمل سيفا وقوسا ورمحا ، وكان بعضها عبارة عن حجر طبيعى غير منحوت مثل " ذى شرى" صنم أنباط البطراء الذى كان على شكل حجر مربع الشكل، و"حلد"صنم حضر موت الذى كان عبارة عن قطعة من الحجر الأبيض تعلوه قطعة حجر سوداء على هيئة رأس آدمية، فى حين كان بعضها مجرد صخرة فى الصحراء يتوافد الناس إليها بغرض التعبد.

كانت عبادة هذه الآلهة، كما يتضح من الروايات ، تنصب على أغراض الحياة الدنيا ، فمما يجمع عليه المؤرخون ويعبر عنه القرآن صراحة أن العرب لم يكونوا يعتقدون فى الحياة الآخرة والحشر والبعث ، فكان العرب يلتمسون الحماية والبركة فى أعمالهم من هذه الآلهة ويسألون رضاها عن طريق القرابين والهدايا، وكانوا فى إقدامهم على عمل من الأعمال وخاصة الأعمال الهامة من سفر وحرب وتحديد النسب يستخيرونها ويستشيرونها، فكانوا يعدون عدة عيدان من الخشب كتب عليها كلمات منظومة تدل على الأمر والنهى ويضعونها أمام الصنم، وكانوا يطلقون على هذه العيدان اسم "الأزلام" وكان تقليد

(1) الأصنام ، 32 - 33، لمزيد من المعلومات عن الآلهة العائلية ، انظر كتاب " الحضارة القديمة " لفوستل دو كولانج .

(2) الأصنام ، 53

العبادة بالقرابين والطواف والتمسح بالصنم قائما ، وكان لحم الأضحية يوزع على الحاضرين ويمسحون وجه الصنم بدمها . وفي خبر عن المنذر بن ماء السماء الملك اللخمي ورد ذكر أضحية آدمية ، ويبدو أنه كانت ثمة مواسم محددة في كل سنة للتعبد العام . يقول ابن الكلبي أن الأوس والخزرج كانوا يحلقون رؤوسهم في وقت الحج إلى مناة [1] ، وكان لبعض الأصنام بيت وبناء على هيئة معبد ومن بينها اللات بالطائف ، وتحت أقدام الصنم كانت ثمة حفرة تجمع فيها النذور ، فكان الناس يهدون جزءا للأصنام من قطعانهم ومحاصيلهم الزراعية ، يقول ابن الكلبي عن " فلس " صنم قبيلة طيء أن معبده كان مفتوحا حتى للصوص [2] .

ويذكر القرآن أسماء عدد من أصنام العرب التي ورد ذكرها في الروايات والأشعار العربية، كما تم الكشف عن عدد من النقوش . وكان بعض من هذه الأوثان مشتركا بين عرب الشمال وعرب الجنوب بينما كان بعض آخر منها يخص أحدهما دون الآخر : ففي شمال الجزيرة كانت اللات ومناة وعزى وهبل أشهر هذه الآلهة ، فكانت اللات تعد الإله الرئيسي لطائفة بني ثقيف (بالطائف) وكانت مناة إله كل من الأوس والخزرج (بالمدينة) وعزى الإلهة الأولى لقريش ولبعض الطوائف الأخرى ، وكانت لقريش بالإضافة إلى عزى التي كان مقرها ببطن نخلة خارج مكة ، آلهة أخرى في مكة في داخل الكعبة وحولها ، وكان أكثرها هبل إلا أن ذكره لم يرد بالقرآن ، وكان إساف ونائلة من آلهة مكة وكانا عبارة عن قطعتي حجر في منطقة زمزم ، وكانت قريش تقدم لهما القرابين .

ويورد القرآن أسماء خمسة أصنام لأبناء نوح ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر، ويبدو أن هذه الأصنام كان يعبدها عرب الجنوب،في حين أنها لم تكن – حسب قول ابن الكلبي– تحظى بأية قدسية لدى عرب الشمال[3] . وورد في نقوش جنوب الجزيرة وشمالها على السواء ذكر لأسماء أصنام ومعلومات عن المعابد والكهنة والكاهنات، وكانت في دول

---

(1) الأصنام ،14 .

(2) الأصنام ، 49 ، ضبط القاموس والجمهرة كلمة " فلس " بكسر أولها وسكون ثانيها في حين ضبطها آخرون بصور أخرى

(3) الأصنام ، 27 .

الجنوب عدة آلهة مشتركة بين الجميع وعدة آلهة أخرى خاصة بكل من هذه الدول : فمن الآلهة المشتركة شمس وعشتار وهو نفس الإله عشروت (استرته البابلى) . وقد ورد فى نقوش الصفا اسم اللات مرارا وبعده العزى واللاه ، وأسماء أخرى مثل رضا ، جد عويد ("جد " بمعنى " حظ " ، و" عويد " اسم طائفة من الناس) وشمس ورحام وشبع القوم ، وكانت هذه آلهة الصفا [1] ، ثم اتخذوا بعد ذلك من آلهة الشام " بعل سمين " و " ذى شرى" آلهة لهم .

وتضم آثار الجنوب عددا من الأسماء الشخصية المركبة مع لفظ " إيلو " (" إيل " فى العبرية " واله " فى العربية) مثل " إيلى ضرع " و " إيلى عز " و " إيلى سمع " ، ومن هنا يعتقد أنهم كانوا يعتقدون فى إله أعلى ، وكانوا أحيانا يستدلون بلفظ " إيلو " لفظ " أبو " أو " عم " وهما لفظان يطلقان على الإله بصورة مطلقة ، وتلاحظ كلمة " سمهو " (اسمه)تسبق بعض الأسماء الخاصة ويبدو أن اسم الذات كان لا يتم التصريح به على طريقة اليهود ، كما كان عرب الشمال يتخذون من أسماء الآلهة جزءا من الأسماء الشخصية مثل " عبد العزى " و " تيم اللات " وما إلى ذلك من أسماء .

يقول المؤرخون الإسلاميون إن العرب كانوا فى الأزمان الغابرة مسلمين حنفاء أى على دين إبراهيم ، ثم ألف المهاجرون الذين كانوا يخرجون من مكة عبادة الأوثان بالصورة التى سبق شرحها ، ثم حدث أن أتى عمرو بن لحى الخزاعى الذى تولى إمارة مكة بعد الجرهميين بالأوثان إلى مكة لأول مرة (تلك الأصنام الخمسة السابقة الذكر) ودعا الناس لعبادتها وأدى إلى هجر دين إبراهيم وإسماعيل، وفى إحدى الروايات أن عمرو بن لحى أتى بهذه الأصنام فى رحلة للشام بقصد العلاج، وتشير رواية أخرى إلى أن هذه الأصنام كانت مدفونة تحت الأرض بتهامة فى زمن الطوفان فأخرجها عمرو بن لحى بوحى من الجن.

ويبدو أن الإيمان "بالله" أيضا كان فى مكة ، فقد ورد فى القرآن على لسان المشركين (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ) ،(هؤلاء سفهاءنا عند الله)

، ويقول مؤرخو العرب أن كنانة وقريشا كانتا ترددان فى وقت الإهلال (من مراسم الحج) قائلين :

---

(1) انظر " الأصنام " لأحمد زكى باشا .

الإهلال(من مراسم الحج) قائلتين :

" لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك ، الا شريك هو لك ، تملكه وما ملك" [1] ، ويقول ابن الكلبي أن اللات ومناة وعزى كان العرب يطلقون عليها "بنات الله" ويعتبرونها شفيعة لهم عنده[2] ، وهو ما ألمح إليه القرآن .

كان العرب لا يؤمنون بالحشر والبعث كما سبق أن ذكرنا ، وفيما يتعلق بروح الميت كانوا يعتقدون أن الجن والشياطين تسكن الأصنام ويؤمنون بأن ثمة أصوات تصدر أحيانا عن الأصنام .

ولكن عند ظهور الإسلام كان بمكة عدد معدود من الناس ينفرون من عبادة الأوثان وديانات العامة وكانوا يؤمنون بالتوحيد وينتظرون ظهور نبي ، وكان منهم من يتباحث في شئون الدين مع رهبان النصارى وأحبار اليهود . ويطلق المؤرخون على هؤلاء اسم "الحنفاء" ويقولون بأنهم كانوا يؤمنون بدين إبراهيم . وفيما يتعلق بأجداد النبي ، يتفق العلماء والأئمة على أنهم كانوا جميعا من الموحدين ولم تصمهم وصمة الشرك .

وينبغي أن نؤكد على أن هاتين الديانتين الساميتين - أي اليهودية والمسيحية - اللتين كانتا تنتشران في المناطق المحاورة للجزيرة العربية بل وفي داخلها كان لهما نفوذ كبير في هذه الأراضي في أواخر العصر الجاهلي وخاصة المسيحية التي كان لها مركز هام للغاية في الجزيرة العربية وهو نجران ، وكانت طوائف بني حنيفة في اليمامة والغساسنة في الشمال الغربي واللخميين في الشمال الشرقي وقسم من بني طيء في التيماء وتعتنق الديانة المسيحية ، وكانت الدولتان المسيحيتان المحاورتان ، وهما الدولة البيزنطية ودولة الحبشة ، تعملان بجد شديد على نشر هذه الديانة في الجزيرة ، كما سبق أن رأينا .

وكان اليهود يمثلون عنصرا هاما في الجزيرة العربية، فكان تعدادهم في المدينة كبيرا، وكانت التجارة والصناعة في أيديهم، وربما كان العرب الذين نزحوا إلى المدينة بعد اليهود أي الأوس والخزرج لا يزيدون من الناحية العددية على اليهود[3]. وبالإضافة إلى المدينة،

---

(1) سيرة ابن هشام ، ج 1 ، ص 77 ، " الأصنام " ، 7 .

(2) انظر " الأصنام " 19 - ووردت هذه النقطة أيضا في كتب أخرى .

(3) L' Islam, P 9

كانت الواحات الكائنة بوادى القرى تحت يد اليهود الذين كانوا يعملون بالزراعة حيث لم يكن العرب يميلون إلى الاشتغال بها ، وكانت ثمة مستوطنة يهودية فى الطائف أيضا فى بدء الإسلام ، أما فى مكة فكان وجود التجار اليهود عابرا ، وكانوا قد رسخوا دعائم ديانتهم فى اليمن أيضا كما رأينا ، وكان الملك الحميرى ذو نواس يعتنق الديانة اليهودية ويعمل على نشرها ، وكان لليهود فى الجزيرة العربية كنيس وحاخام ومدرسة وكانوا يقيمون كل الشعائر الدينية ، وكانوا يعتبرون أنفسهم أرقى من العرب " الأميين " ، وكان العرب أنفسهم ينظرون إليهم من هذه الزاوية وكانوا ينصتون لكهانهم وعلمائهم ، وقد ورد فى التاريخ ذكر لبعض العرب المتهودين .

ويقال أن الجزيرة العربية كانت تضم أيضا بعض الصابئة [1] ممن كانوا يقدسون النجوم، وكان بعض من أصنام العرب ، التى كانت على ما يبدو مأخوذة من البابليين ، يرتبط بالأجرام الفلكية مثل الشمس وعشتروت (الزهرة) : وهناك ما يؤيد هذه الفكرة فى كتاب أيوب ، ويؤكد موير أن القرابين كانت تقدم للنجوم فى اليمن حتى القرن الرابع [2]، ويقال أيضا أن الديانتين الزرد شتية والمانوية كانتا معروفتين فى الجزيرة العربية بين أفراد قبيلة بنى تميم وأن عددا منهم كان يعرف اسما بكل منهما وقد رأينا فيما سبق أن الملك الكندى الحارث بن عمرو كان قد اعتنق المزدكية ، إلا أن صحة هذه الأخبار لا تعد أمرا مؤكدا . وعلى أى الأحوال ، فمن المستبعد أن يكون هناك أى وجود لهذه الديانات فى الجزيرة العربية * .

---

(1) تطلق كلمة " صابئى" على عابد النجوم بصورة مطلقة ، إلا أنها كانت على ما يبدو إسما لفرقة ما من الناس.لمزيد من التفاصيل انظر The Foreign Vocabulary of the Quran، تأليف جفرى

(2) Muir , The Life of Mohammad

* لا أدرى إذا كان المؤلف بتصريحه هذا يقصد إلى شىء من العنصرية أم إلى ربط كل ديانة بعنصر بشرى محدد ، فإن كان يرمى إلى اعتبار العنصر الآرى أرقى فنحن نعلم أن الفرس القدامى كانوا يقدسون النار وما من شىء يميزهم عن عرب الجاهلية من عبدة الأحجار ، كما أننا لا نستطيع القول بقصر دين من الأديان على جنس بشرى معين ، فالمسيحية دين سامى ، كما ذكر المؤلف نفسه منذ قليل، بينما تدين بها معظم شعوب أوروبا من عناصر جرمانية وآرية وسكسونية وغيرها ، (المترجم) .



الفصل الثانى

النبى فى مكة



مكة وقريش

تقع مدينة مكة ضمن منطقة تهامة في واد ضيق على شكل هلال بين جبلى أبى قيس وقعيقعان، ويتميز مناخ هذا الوادى بالجفاف والحرارة العالية ، ويستمد ماءه من آبار تستجمع ماءها بدورها من أمطار الشتاء والربيع ؛ وهى أمطار تسقط أحيانا بصورة غزيرة ، فتتكون فى لحظات سيول ضخمة تتدفق من الجبلين المحيطين إلى قلب الوادى وتهدد المدينة بالدمار. لذا ، فقد أقام الأهالى مصدات للسيول من قديم الزمان فى الجبل بغرض حماية الكعبة التى تعرضت لأضرار السيول مرات عديدة ، وآثار هذه المصدات باقية حتى اليوم ، ويطلق اسم البطحاء على قاع الوادى حيث تقع الكعبة وحول الكعبة المسجد الحرام ثم تمتد بيوت الأهالى حتى سفوح الجبال .

ترجع أهمية هذه المدينة فى العهود القديمة إلى موقعها على الطريق التجارى الممتد من اليمن إلى الشام وفلسطين ومصر ، وقد زاد وجود الكعبة من أهمية المدينة حيث كانت فى الجاهلية مزارا ومطافا. لذا، نرى فى التاريخ أن مختلف الطوائف العربية كانت تتقاتل من أجل بسط السيطرة عليها منذ قديم الزمان ؛ ومن هذه الطوائف آل جرهم والخزاعيون وأخيرا قريش التى كانت تبسط نفوذها على مكة بصورة مستقلة عند ظهور الإسلام .

حسب الروايات الإسلامية، بنى الكعبة إبراهيم وولده إسماعيل بناء على أمر من الله[1]، فأقاما بناءها على أساس الكعبة القديم الذى كان قد وضعه شيث وأزاله طوفان نوح، وقد أمر إبراهيم بإقامة شعائر الحج طبقا لوحى أتاه مع جبريل، ثم عاد إبراهيم إلى فلسطين فى حين ظل اسماعيل بمكة قائما على نشر دين أبيه وعلى شئون الكعبة، وكذلك فعل أبناؤه الى أن أتى آل جرهم من الجنوب، وفرضوا سيطرتهم على الكعبة ثم تغلب بنو خزاعة الذين كانوا من المهاجرين القحطانيين أيضا على آل جرهم، وعلى أثر ذلك قام الملك الخزاعى عمرو بن لحى بالترويج لعبادة الأصنام فى مكة ، كماسبق أن ذكرنا. وبناء على أقوال معظم المؤرخين العرب كانت إدارة مواسم الحج فى منى وعرفات فى يد بطون من نسل إسماعيل وكانوا يتوارثونها جيلا بعد جيل طوال عهود آل جرهم وخزاعة .

(1) لمزيد من التفاصيل انظر كتاب الحبس ، ج 1 ، ص 100.

تبدأ سلطة قريش منذ عهد قصى بن كلاب، ويقال أن قصيا كان صغيرا عندما توفى أبوه ، فتزوجت أمه من رجل من بنى قضاعة وأقامت معه فى داره على مشارف الشام، وهناك بلغ قصى أشده ثم جاء إلى مكة وتزوج ابنة خليل بن حبشية [1] آخر أمراء مكة من الخزاعيين ، وبعد وفاة والد زوجته التف حوله أقاربه من قريش واستمد العون من قبيلة قضاعة ، وتغلب على الخزاعيين بقوة السيف وتولى إمارة مكة وأمسك بزمام أمور الكعبة فى يده .

جمع قصى قبيلته قريش التى كانت حتى ذلك الوقت تقيم فى الوديان والجبال المحيطة بالمدينة وأقرهم فى الحى الذى يرغبه الجميع أى حول الكعبة وبنى لهم دار الندوة وجعل مهمة حمل مفاتيح الكعبة ورايتها والسقاية والرفادة فيهم ، وكانت الأحكام التى أقرها قصى موضع احترام وتنفيذ تام من جانب قريش، بل وكانت تشبه "تعاليم الدين" حسب قول ابن اسحق المؤرخ ، وعندما بلغ قصى سن الشيخوخة أسلم مقاليد الأمور لولده الأكبر عبدالدار وتوارث أبناء عبدالدار مقاليد الأمور من بعده، إلا أن أبناء عبد مناف (الولد الآخر لقصى) ثاروا وكانت هذه أول فرقة وانقسام يصيب قريش ، فجمع الطرفان حلفاءهما وأعدا العدة للحرب. ويروى أن أبناء عبدمناف وضعوا كأسا به طيب إلى جوار الكعبة وغمسوا أيديهم به كرمز للاتحاد بينهم ، ومسحوا به جدار الكعبة وكانت هذه المعاهدة تعرف باسم " حلف المطيبين " ، ولكن لم تنشب الحرب ، فقد عقد الطرفان وثيقة صلح على أن يتم تقسيم المناصب والمهام فيما بينهما ؛ فكان مفتاح الكعبة ورايتها وزعامة دار الندوة لبنى عبد الدار فى حين تؤول السقاية والرفادة إلى بنى عبد مناف ، وكانت زعامة الطائفة الأخيرة لهاشم رغم وجود عبدشمس أخيه الأكبر، وفى تفسير أسباب ذلك يروى أن عبدشمس كان دائم الترحال ، كما أنه كان فقيرا مثقلا بأعباء العديد من الأبناء، فى حين كان هاشم رجلا ذا قدرة .

كان هاشم وهو جد سلسلة بنى هاشم زعيم قريش فى عصره ، وكان اسمه الأصلى عمرو واتخذ لقبه هذا عندما أصاب قومه القحط فى أحد الأعوام فهشم الخبز بينهم ، اذ أن كلمة " هشم " تعنى التكسير والتفتيت [2]، وكان هاشم طبقا لبعض الروايات هو

---

(1) ابن هشام ، ج 1، ص125، وهناك روايات أخرى فى هذا الصدد ، انظر الطبرى ، ج2 ، ص 182

(2) ابن هشام ، ج 1، ص 143 وهناك تفاصيل أخرى فى " الروض الأنف " لسهيلى

الذى حدد لقريش رحلتى الشتاء والصيف ؛ فكانت رحلة الشتاء هى رحلة قوافل التجارة إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام وفلسطين ، ويروى أنه عقد اتفاقيات مع دولة الروم ومع أمراء الغساسنة بهدف تأمين وتسهيل عبور قوافله ويقال أيضا أن عبد شمس أخا هاشم عقد تحالفا مع ملك الحبشة وأن نوفل عقد حلفا مع ملك فارس وعقد مطلب حلفا مع ملك اليمن، وهكذا تم تنظيم تجارة قريش على يد أبناء عبد مناف .

ويروى أن أمية بن عبد شمس ابن أخى هاشم كان يكن ضغينة لعمه ، وكان يحاكى أعماله ، وذات يوم ثار على هاشم ووصل الأمر إلى محاكمته أمام كاهن خزاعى ، وصدر عليه الحكم ، وبمقتضى الشرط الذى قبل به هاجر إلى الشام لمدة عشر سنوات، وكانت هذه أول عداوة بين أسرتين من عبد مناف .

وتزوج هاشم بامرأة من طائفة بنى النجار فى رحلته إلى مدينة يثرب (المدينة)، وكان له من هذه الزيجة ولد يسمى شيبة، وعاش هذا الطفل لدى أمه بالمدينة ، وتوفى هاشم فى رحلة أخرى إلى مدينة غزة بفلسطين ، وبعد هاشم تولى مطلب مهمة المناصب المتوارثة، وعندما علم بوجود ابن أخيه فى المدينة ذهب إليه وأتى به معه إلى مكة ويروى أنه حين ورد إلى مكة مع ابن أخيه تساءل الناس عمن يكون ، فكان عبدالمطلب يجيب " هذا عبدى " لذا فقد عرف شيبة بعبد المطلب (1)

كان عبد المطلب من كبار رجال قريش وله تاريخ يزدحم بالأحداث ، وبعد وفاة عمه تولى المناصب المتوارثة، ومنذ البداية وقع الشقاق بينه وبين عمه الآخر نوفل ، وكان الوحيد من أعمامه الذى كان لايزال حيا حول الأراضى التى آلت اليه بالإرث ، وكانت خاضعة لسيطرة نوفل فطلب العون من أقاربه من ناحية أمه بالمدينة فاضطر نوفل إلى التخلى عن الأرض ، لكنه ذهب إلى بنى عبدشمس وأقسم معهم على بنى هاشم، فقام عبدالمطلب بدوره بحشد عدد من بنى خزاعة ، وعقد معهم حلفا داخل الكعبة ، وبهذا وقع الخلاف من جديد بين بنى أمية وبنى هاشم

ومن الوقائع الهامة فى حياة عبد المطلب حفر بئر زمزم ، ذلك البئر الذى تفجر فى

---

(1) الطبرى ، ج 2 ، ص 177

زمن إسماعيل بمقتضى الروايات التاريخية ، وكأن أساس الحياة فى مكة ، وكان قد ردم قبل عصر عبدالمطلب بعهود طويلة وطواه النسيان ، فصدر الأمر لعبد المطلب فى منامه بأن يعيد حفره ، وتبدى له مكانه الذى لم يكن عبدالمطلب ولاغيره يعرفونه ، فبدأ فى الحفر بمساعدة ولده الحارث الذى كان ابنه الوحيد إلى ذلك الوقت ، وبعد مدة من الحفر ظهر لهما كنز عبارة عن غزالتين من الذهب كان آل جرهم قد دفنوه هناك فى زمن نزوحهم، كماعثروا على عدة سيوف ودروع فتنازعت قريش وعبدالمطلب على ملكية البئر الذى اعتبروه ملكا لجدهم اسماعيل ، ونازعوه فى الكنز أيضا ، واستقر الرأى على إجراء القرعة بينهم ، فكان الكنز من نصيب الكعبة والسيوف والدروع من نصيب عبدالمطلب فى حين لم يكن من نصيب قريش أى شىء فأهدى عبدالمطلب ماقسم له إلى الكعبة فصنع لها بابا من السيوف وأقام الغزالتين الذهبيتين بها ، وكانت هذه أول زينة ذهبية تقام بالكعبة (1) ، وبينما كانت قريش تنازع عبدالمطلب كان هو قد نذر الى الله أن يقدم واحدا من بنيه أضحية إن رزق بعشرة منهم ، فكان له ماتمنى ، فجمع بنيه ودخل الكعبة وأجرى القرعة بينهم ، وكان كل خوفه أن تأتى القرعة على اسم ولده عبدالله أصغر بنيه وأحبهم إلى قلبه إلا أن هذا ماحدث فأمسك عبدالمطلب يد ولده عبدالله دون تردد وأخذه والسكين فى يده إلى المذبح ليوفى نذره ، فحالت قريش وبنو عبدالمطلب بينه وبين ماأراد ، واستقر الرأى على إجراء القرعة بين الأضحية وبين دية الإنسان (وكانت فى ذلك الوقت عشرة من الإبل) وإذا أصابت القرعة الفداء ليزيدوا فى عدد الإبل ، وأجريت القرعة إلى أن أصابت الإبل ، فقدم عبدالمطلب الدية وانتهى الأمر إلى مئة ناقة ، ومنذ ذلك الوقت صارت دية الانسان مئة من الإبل.

ثم اختار عبدالمطلب آمنة بنت وهب ، رئيس قبيلة بنى زهرة (من بطون قريش)، زوجة لولده عبدالله ، ولكن بعد عدة أشهر توفى عبدالله بالمدينة فى إحدى رحلاته التجارية فى طريق العودة من الشام بصحبة قافلة . فدفن بها وفى ذلك الوقت كان النبى فى بطن أمه .

ومن أحداث عصر عبدالمطلب أيضا قصة أصحاب الفيل التى ورد الحديث عنها فى

---

(1) ابن هشام ، ج 1 ، ص 139 والطبرى وغيرهما

الجزء الأول من هذا الكتاب، فمن المعروف أن أبرهة قام برد الإبل التى كان جنوده قد استولوا عليها لقريش احتراما لمنزلة زعيم قريش وحرمته، ولماتعجب أبرهة من إحجام عبدالمطلب عن مطالبته بالرجوع عن الكعبة قال عبدالمطلب : " إن للبيت ربا يحميه " .

توفى عبدالمطلب ، طبقا لرواية كتاب السيرة ، بعد ثمانى سنوات من حادثة الفيل[1] وانتقلت الزعامة والسلطة من بعده من بنى هاشم إلى بنى أمية ، حيث كان زعماء بنى أمية فى التجارة أشد ثراء ونفوذا ، وفى زمن عبدالمطلب زادت قريش ثراء من التجارة وحازت نفوذا عظيما فى مكة ، وزادتها حادثة الفيل علوا ، فكانوا يقولون : "نحن أبناء إبراهيم وأهل الحرم والحرمة وأولياء البيت وساكنو مكة وليس لأى من العرب مالنا من حق ومنزلة " وفى مراسم الحج كانت لهم امتيازات ولمن ينتسبون اليهم على سائر الحجيج وكان أصحاب هذه الامتيازات يقال لهم "حمس" [2]وكان من هذه الامتيازات ترك الوقوف والإفاضة من عرفات حيث كانوا يقولون "نحن أهل الحرم ولانحترم سوى الحرم" ، وفى حالة الإحرام كان من غير المسموح به لأهل الحمس طهى الكشك أو الطهى بالزيت أو استخدام الصوف فى صنع الخيام ، وقاموا بسن قانون يقضى بألايحق لأى حاج أن يأكل طعاما جاء من خارج الحرم ، وبأن يتم الحاج أول طواف له برداء يمنحه إياه الحمس ، وإن لم يجد الحاج مثل هذا الرداء كان عليه أن يطوف عاريا، وبالنسبة للنساء اجازوا ارتداء قميص ، وظلت تعاليم الحمس سارية إلى ظهور الإسلام حيث تم إلغاؤها .

ميلاد النبى (ﷺ) وطفولته :

ثمة خلاف بين أهل الحديث حول تاريخ مولد النبى ، فمن المتعارف عليه أنه كان فى عام الفيل يوم الإثنين الثانى عشر من ربيع الأول [3] يرى هوار أنه نظراً لأن وفاة النبى قد حدثت فى عام 632 ميلادية حين كان فى الثالثة والستين من العمر فإن مولده كان فى حدود عام 570ميلادية [4]ويرى المؤرخون الأوربيون أن عام الفيل

---

(1) المتفق عليه ان وفاة عبدالمطلب كانت حين بلغ النبى سن الثامنة ، ويرجع القول بأنه توفى فى العام الثامن بعد عام الفيل الى اعتبار أن النبى (ﷺ) ولد فى عام الفيل . وفى ذلك خلاف يرد فى الفصل القادم .

(2)جمع " أحمس " أى شديد المراس فى الدين وفى الحرب .

(3)التفاصيل بكتاب الخميس ، ج 1 ، ص221

(4) Histoire des Arabes , T I . P , 88

كان عام غزوة قام بها أبرهة بتحريض من الروم بهدف مهاجمة فارس من شمال الجزيرة العربية ، ولكنه عاد من منتصف الطريق ، وكانت هذه الواقعة فى أواسط القرن السادس الميلادى أى قبل مولد النبى بفترة من الزمن ، ومن ناحية أخرى يرى المؤرخ العربى الكلبى أن حادثة الفيل كانت قبل ميلاد النبى بثلاثة وعشرين عاما، إلا أن الرأى الذى ذهب إليه البعض من أنها حدثت قبل مولد النبى بأربعين سنة لايتفق مع الدلائل الموجودة [1]

وفى وقت مولد النبى، كماسبق القول ، كان والده عبدالله قد مات إلاأن جده عبدالمطلب كان لايزال حيا، ويروى أنه احتضن حفيده الوليد وحمله إلى الكعبة ودعا له وأسماه محمدا، وعندما كانت عشيرته تتساءل عن السبب فى إعراضه عن أسماء الأجداد كان يجيب قائلا " أردت له أن يكون محمودا فى السماء والأرض" ، لكن ابن اسحاق وغيره يؤكدون أن أمه هى التى أسمته بهذا الإسم بناء على هاتف أتاها بذلك ، ثم ظلت آمنة ترضعه مدة ثلاثة أيام ، وبعد ذلك أرضعته ثويبة أمة أبى لهب مدة أربعة أشهر ثم ظهرت حليمة وتعهدت بمهمة إرضاعه وكان من المألوف فى ذلك الوقت أن تأتى نساء البدو إلى المدينة لأخذ الرضع ، وكانت حليمة قد أتت مع نساءقبيلتها بنى سعد إلى مكة لهذا الغرض، ويروى أن أيا من هؤلاء النسوة لم تقبل أخذ محمد لأنه كان يتيما ، وكانت القابلات عادة ترمى إلى مايجود به أباء هؤلاء الرضع ، أما حليمة فقد اضطرت إلى قبول الطفل محمد بعد أن فشلت فى العثور على غيره ، فحملته إلى البادية وبعد عامين أى بعد فترة الرضاع أتت به إلى أمه وكان وجود الطفل محمد باعثا للخير والبركة فى دار مرضعته ، لذا لم ترد أن تبعده عنها وقالت لأمه : " إنى أخاف عليه من وباء مكة " ، وظلت تلح على أمه إلى أن وافقت فعادت به مرضعته إلى البادية .

ولكن بعد فترة [2] وقعت حادثة خافت على أثرها حليمة على الطفل ، فذات يوم كان محمد قد مضى مع ابن حليمة إلى الصحراء للرعى ، وفجأة جاء ولد حليمة يعدو

---

(1) تاريخ عربستان ، تقى زاده ، دوره 2 ، قسمت بنجم ، ص 9 - 10

(2)ثمة خلاف حول تاريخ هذه الحادثة فيقول ابن هشام انها وقعت بعد عدة أشهر ويرى ابن سعد أنها حدثت وهو فى الرابعة ، فى حين يرى غيرهما أنها حدثت وهو فى الثالثة ، وفى بعض الروايات حدثت واقعة شق الصدر فى زمن البعثة .

قائلا إن رجلين يرتديان ثيابا بيضاء قد أتيا وأخذا محمدا فشقا صدره ، فهرعت حليمة إلى محمد فوجدته واقفا بوجه يشع نورا ، فأخذته إلى الدار ثم أعادته إلى أمه خشية أن يكون قد " مسه الجن " .

كان محمد فى سن السادسة حين أخذته أمه إلى المدينة لزيارة عشيرة أبيه أى قبيلة بنى النجار ، وفى طريق العودة من المدينة توفيت آمنة فى الأبواء ودفنت بها ، وعاد محمد إلى مكة بصحبة أم أيمن أمة أبيه التى كانت معهما فى رحلتهما هذه ، ومنذ ذلك الحين آلت مهمة رعاية اليتيم إلى جده عبدالمطلب .

وبعد عامين ، أى عندما كان النبى صلى الله عليه وسلم فى الثامنة من عمره ،توفى عبدالمطلب فتكفل عمه أبو طالب بالعناية به ، وذلك لأن أبا طالب كان شقيقالعبدالله أبى محمد وكلاهما من أم واحدة ، ويقال إن عبدالمطلب أيضا أوصى أبا طالب بمحمد ورغم فقر أبى طالب وكثرة عياله خاصة وأن مكانة بنى هاشم كانت قد ضعفت فى ذلك الوقت إلا أن أبا طالب كان كريم النفس جوادا ، وكان يحب ابن أخيه محمدا وظل يرعاه بكل حبه وعطفه وظل على حبه له إلى آخر حياته .

ومن المعروف أن النبى صلى الله عليه وسلم كان قد ذهب إلى الشام وهو فى الثانية عشرة من عمره برفقة عمه أبى طالب، وفى البصرة تعرف راهب يسمى بحيرا على نبى المستقبل من سماته وملامحه، وهناك أيضا روايات تروى أنه كان فى شبابه يقوم برعى أغنام عشيرته فى جبال مكة، فى حين يروى البعض حرفة الرعى لديه ضمن وقائع سن العشرين [1] .

شباب النبى وبعثته :

من الأحداث التى وقعت فى عهد شباب النبى تلك الحرب التى نشبت بين قريش وهوازن والتى تعرف بحرب الفجار نظرا لنشوبها فى أحد الأشهر الحرم ، كانت قافلة فى طريقها من الحيرة إلى سوق عكاظ محملة بالمسك وفى الطريق اعترضها رجل من بنى كنانة (أصهار قريش) يسمى براض ، فقتل حارس القافلة الذى ينتمى إلى هوازن فى أثناء نومه وسرق البضائع ، فى ذلك الوقت كانت قريش وهوازن مجتمعتين بسوق عكاظ

(1) الخميس ، ج 1 ، ص 293

فوصل خبر الحادث الى قريش أولا، فهرع رجالها إلى مكة على الفور ، وبعد حين علم رجال هوازن بماجرى فأسرعوا فى أثر رجال قريش ، وبلغ القرشيون مكة ليلا بعد كروفر ، ولماكانت مكة أرضا حراما نقد عاد رحال هوازن أدراجهم ، وبعد فترة نشت الحرب بين الطرفين عدة مرات، وفى إحدى هذه المرات كان النبى حاضرا مع عشيرته طبقا لروايته هو صلى الله عليه وسلم (1)،واختلفت الروايات حول سن النبى فى ذلك الوقت بين أربعة عشر عاما وخمسة عشر وعشرين .

وبعد فترة من حرب الفجار تم عقد حلف الفضول ،حيث شكلت قريش تحالفا بهدف صد العدوان على القبيلة وحماية الضعفاء من القهر، وأقسم المتحالفون على حماية اى مظلوم سواء من أهل مكة أو من غير أهلها وعلى الثبات حتى يأخذوا للمظلوم حقه، وكانت هذه المعاهدة تعرف بحلف الفضول ، ويروى عن سبب تسميتها بهذا الإسم أن آل جرهم القدامى كان بينهم حلف مماثل ، وكانت أسماء الأعضاء الذين أبرموه جميعها مشتقة من مادة " فضل " (فضل ، فضال ، مفضل ، فضيل) ، فأطلق أصحاب هذا الحلف هذا الإسم على حلفهم ، وقد تم عقد هذا التحالف بدار عبدالله بن جدعان الذى كان من أفاضل قريش ، وكان النبى، حسب رواية له، من شهود هذا الحلف المبارك ، وقد قال عنه : " لقد شهدت فى دار عبدالله بن جدعان حلفا ماأحب ان تكون لى به حمر النعم ولو دعى به فى الإسلام لأجبت " .

وقد أطلع النبى قيس بن ساعدة عن سوق عكاظ وزيارته له، ويبدو أن هذه الواقعة أيضا كانت قد حدثت فى شباب النبى ، وفى سن الخامسة والعشرين التحق النبى بخدمة خديجة ، وهناك روايات مختلفة تقول بأن خديجة هى التى أرسلت فى طلب محمد أو أن أبا طالب هو الذى عرفه بها. على أية حال ، فقد تقبلت خديجة عمل محمد لديها برحابة صدر، وكانت تؤجره ضعف أجر الآخرين لأنها كانت قد سمعت عن مدى صدقه وأمانته .

كانت خديجة ابنة خويلد من أشراف قريش وكان لها مال من التجارة كسائر أفراد قريش ، فخرج محمد صلى الله عليه وسلم إلى الشام بقافلة خديجة يرافقه ميسرة

(1) ابن هشام والطبرى .
(2)ابن هشام ، ج 1 ، ص 125.

غلامها، ويروى أنه كان يرى له فى الطريق كرامات وخوارق العادات وتعرف إليه راهب آخر وأنبأ ميسرة عماينتظره ، وبعد العودة أنبأ ميسرة خديجة بماعرف ، فعرضت خديجة عليه الزواج بها، فذهب محمد صلى الله عليه وسلم برفقة عمه حمزة إلى خويلد لخطبتها، وتم الزواج ويرى الواقدى أن عم خديجة عمرو بن أسد هو الذى زوجها إياه إذ كان والدها حسب مايرى الواقدى كان قد مات قبل ذلك بسنوات. وبناء على هذا ، فإن الروايات التى تقول بأن خويلد لم يكن راضيا عن زواجهما تعد مغلوطة (1) .

كان النبى فى الخامسة والعشرين من عمره حين تزوج، وكانت خديجة بين الأربعين والخامسة والأربعين ، وكانت خديحة قدتزوجت مرتين، ومات عنها زوجاها ، ولها منهما ولد وبنتان يعدا ربيبى ، النبى ومنذ زواجهما انتقل النبى للإقامة فى دار خديجة ، وكان يكن لها كل محبة واحترام حتى أنه لم يتخذ زوجة أخرى معها طوال حياتها ، وأنجبت له ثلاثة بنين ماتوا جميعا قبل زمن بعثته وأربع بنات .

لم يذكر التاريخ أية واقعة منذ زواج النبى (ﷺ) وبعده بعشر سنوات ، وفى العام العاشر أى حين كان فى الخامسة والثلاثين من عمره ، بدأ موضوع ترميم الكعبة ، وكانت قريش قد فكرت فى تحديد بناء الكعبة، إذ كان بناؤها القائم والذى بناه قصى عبارة عن ثلاثة جدران قصيرة بلاسقف ، وحدث أن سطى اللصوص مرات عديدة على أموال النذور من داخلها، ويروى أيضا أن النار اشتعلت فى ستار الكعبة من محمرة امرأة أوقدت نارا فاحترق البيت ، ويقال أيضا أنها إنهدمت من جراء سيل جارف . على أى الأحوال ، فقد أزالت قريش البناء القديم فى تلك السنة ، وأقامت بدلا منه بيتا أكثر علوا يكسوه الخشب ، ويروى أن إحدى السفن التجارية الرومية كانت قد تحطمت عند جدة فى ذلك الوقت ، فأخذت قريش أخشابها وبنت به سقف الكعبة على يد نجار قبطى. (2)

وقامت مختلف عشائر قريش بتقسيم عملية البناء فيمابينها، فتعهدت كل عشيرة بإنشاء أحد الأضلاع ، وشيئا فشيئا بلغ البناء مرحلة يبغى عندها وضع الحجر الأسود ووقع الخلاف بين العشائر من جديد حول وضعه والعشيرة الأولى بهذا الشرف ، فتعطل

---

(1) الطبرى ، ج 2 ، ص 197

(2) الخميس ، سطى

البناء ووصل الأمر إلى درجة النزاع ، بل وأتت قبيلة بني عبد الدار بوعاء دم التحالف وغمسوا فيه أيديهم ، فعرفوا منذ ذلك اليوم باسم " لعقة الدم " ، وفى النهاية اقترح أبو أمية الذى كان كبير قومه أن يرضخوا لما يراه أول من يدخل المسجد ، وحدث أن كان أول الواردين محمداً (ﷺ) فارتضت قريش حكمه ، إذ كانوا يعرفونه بالأمين معنى ولقبا ، فأمر النبى (ﷺ) بأن يأتوا برداء فوضع الحجر فيه بيديه ، وأمسكت كل قبيلة بطرف من أطراف الرداء وحملوه إلى قاعدة البناء ثم رفع النبى الحجر بيديه وأقامه فى مكانه ، وفى نفس عام بناء الكعبة ولدت فاطمة بنت النبى .

وبعد فترة قصيرة من بناء الكعبة شهدت مكة جفافا وقحطا فأراد النبى أن يمد يد العون لعمه أبى طالب من خلال كفالته لأحد بنيه ، كما حث عمه الآخر العباس وكان رجلا ذا مال على أن يفعل نفس الشيء فذهبا معا إلى أبى طالب، وأخذ النبى عليا رضى الله عنه ، فى حين أخذ العباس جعفرا ، وكان على فى الخامسة أو السادسة من عمره آنذاك .

وفى ذلك الوقت، كان هناك شخص آخر يعيش فى رعاية النبى (ﷺ) وورد ذكره فى التاريخ مرارا فيما بعد وهو زيد بن حارثة ، كان زيد من أبوين على الدين المسيحي يعيشان على مشارف الشام وكان قد وقع أسيرا فى يد بعض قطاع الطرق فى طفولته، وبيع فى سوق مكة لرجل من أهل خديجة يسمى حكيم ، وحين تزوج النبى من خديجة أعطى حكيم زيدا لخديجة ، ولما كان زيد غلاما نشيطا نابها فقد حظى بحب النبى فوهبته خديجة إياه وبعد فترة جاء أبو زيد يبحث عنه فوجده عند النبى ، فصرح النبى لزيد بأن يمضى بصحبة أبيه ، إلا ان زيدا فضل البقاء مع النبى ، لذا فقد قبل النبى تبنيه بالإضافة إلى منحه حريته، وأعلن هذا التبنى عند الحجر الأسود على عادة أهل مكة ومن ذلك الوقت سمى زيدا بن محمد ، وزوجه النبى بامرأة من قريش وهى زينب بنت جحش .

ورد فى روايات عديدة أن النبى ﷺ كان يرى رؤى صادقة قبل البعثة ونزول جبريل عليه بفترة طويلة ، وعندما كان يسير فى وديان مكة كانت الأحجار والأشجار تتحدث إليه وتسلم عليه صلى الله عليه وسلم ، وكان ميالا للانزواء والخلو بنفسه ، فكان يذهب

إلى غار حراء [1] مدة شهر من كل سنة (شهر رمضان فى بعض الروايات) حيث يعتكف ويتأمل ويطعم المساكين ، وكان هذا الإعتكاف من عادات قريش ، ويطلق عليه اسم " التحنث " ،وعندما اقتربت سنة البعثة تنزل جبريل على النبى ﷺ فى غار حراء وأوحى له بأول سورة من سور القرآن ، وكانت واقعة شرح الصدر التى سبق ذكرها طبقا لبعض الروايات من أحداث ذلك الوقت، وكانت المدة التى استغرقتها هذه الأحوال قبل البعثة ثلاث سنوات فى بعض الروايات، وستة أشهر فى روايات أخرى [2].

البعثة والدعوة والهجرة إلى الحبشة :

فيمايتعلق بأول جزء نزل من القرآن ، فمن المتفق عليه أنه كان سورة اقرأ التى أتى بها جبريل على صحيفة من الأرض فى غار حراء إلى النبى (ﷺ) ، وقرأها النبى ولكن فى رواية عن جابر بن عبدالله [3] أن النبى قال : « كنت معتكفا فى غار حراء وبعد ختم الاعتكاف هبطت إلى الوادى ، وماكدت أبلغه حتى سمعت نداء ، فنظرت يمنة ويسرة وأمامى وورائى فلم أر شيئا وعندما نظرت فوق رأسى رأيته جالسا على مقعد بين السماء والأرض ، فارتعدت وهرعت إلى خديجة وقلت دثرونى وصبوا على ماء ، ثم نزلت على هذه السورة . ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ .

ومن المعروف أن البعثة كانت فى العام الأربعين من عمر النبى (ﷺ) ، وهناك من يؤكد أنها كانت فى سن السابعة والثلاثين أو الحادية والأربعين ، إلا أنه قول ضعيف، وثمة خلاف أيضا حول شهر البعثة فقيل رمضان ، وقيل فى رجب وفى ربيع الأول ،إلا أن المسلمين اليوم يعتبرونها فى السابع والعشرين من رجب وهو ماعليه

---

(1) حراء بالكسر والتخفيف والمد ، جبل من جبال مكة على ثلاثة أميال ، معجم البلدان .

(2) ذكرت رواية الثلاث سنوات فى كتاب المناقب لابن شهر آشوب عن الشعبى وابن عامر، ورواية الستة أشهر فى كتاب الخميس (ج 1 ، ص 317)

(3) الطبرى ، ج ، 2 ص 208

الإجماع [1] ، وأراد البعض الجمع بين الروايتين بالقول بأن الوحى قبل رمضان كان فى أثناء النوم وفى رمضان فى اليقظة [2] .

وتتفق الروايات على أن الوحى انقطع فترة بعد الوحى الأول، ولاعلم بمدة هذا الإنقطاع ولابأسبابه ، يقول ابن اسحق إن النبى (ﷺ) حزن حزنا شديدا لانقطاع الوحى إلى أن عاد جبريل بسورة الضحى التى تشير الآية ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ بها الى هذا الانقطاع ، وقد أورد الطبرى وآخرون خبرا عن تجدد الوحى ضمن أخبار أخرى على لسان النبى نفسه : " كنت سائرا وإذا بى أرى نفس الملك الذى رأيته فى غار حراء جالسا على مقعد بين السماء والأرض فأسرعت خائفا إلى خديجة وقلت زملونى زملونى (وفى روايات أخرى دثرونى) ثم غطونى وصبوا على الماء ، ونزلت على سورة (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ) [3] وبمقارنة هذا الخبر بالخبر الذى ذكره جابر وأوردناه فى أول هذا الباب يمكن استنتاج أن سورة المدثر كانت أول سورة نزلت من القرآن بعد فترة انقطاع الوحى وأن أول وحى كان بسورة اقرأ وهو المتفق عليه .

وفى سورة المدثر صدر الأمر إلى النبى(ﷺ) بالدعوة فى قوله تعالى(قُمْ فَأَنذِرْ)

وبعدهذه السورة استمر نزول الوحى متصلا ، أما عن كيفية نزوله فقد ورد أنه كان أحيانا حالة تشبه الإغماء تطرأ على النبى ، فيتصبب عرقا ويثقل جسمه ، وعن النبى أنه قال : " يأتينى مثل صلصلة الجرس" وفى بعض الأحيان كان يتنزل عليه بدون هذه الحالة ، فكان النبى (ﷺ) يقول فى حالته العادية " هذا جبريل يأمرنى " ، وروى الإمام جعفر الصادق أن حالة الإغماء كانت تحدث عندما كان الوحى يتنزل عليه بصورة مباشرة دون توسط جبريل ، أما فى الحالة العادية فكانت حين يأتى جبريل بالرسالة [4]

---

(1) بحار ، ج 6 , ص 447 .
(2) الخميس ، ج 1 ، ص 316
(3) الطبرى، ج 2 ، ص 208
(4) بحار ، ج 6 ، ص 471 .

كانت الدعوة فى البداية تتسم بالسرية ، وتقتصر على أهل البيت ، وكان موضوع الدعوة الإقرار بالتوحيد والتبرؤ من الأوثان ، وكانت أول فريضة فرضت هى الصلاة، وكانت كل الصلوات فى ذلك الوقت فى ركعتين ، ومن المتفق عليه أن خديجة كانت أول من آمن بالدعوة ، وكان ثانى من أعلن ايمانه بالدعوة وأول رجل هو على بن أبى طالب رضى الله عنه حسب أشهر الروايات وأدقها وتلاه زيد بن حارثة ، وكان أبو بكر كمايقول ابن اسحاق رابع من آمنوا بالإسلام ، وبإيمانه بالإسلام خرجت الدعوة من بيت النبى الى خارجه ، كان أبو بكر من قريش وكان يعمل بالتجارة وكانت له مكانته بين قومه وكان حسن العشرة ومطلعا على أنساب قريش وتواريخ أهلها، وكان الناس يترددون على داره، وبدعوته دخل الإسلام أربعة من كبار القوم وهم عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبدالرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص ، وهم من أطلق عليهم اسم السابقين ، وبعدهم اتجهت أعداد المؤمنين إلى الازدياد ، ولكن فى الخفاء ، وكان النبى (ﷺ) يؤم أتباعه فى الصلاة خفية فى وديان مكة

وبعد ثلاث سنوات أوشك عهد إعلان الدعوة على الملأ من بدايته بنزول آية ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ ﴾ وآية ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ فاعتلى النبى (ﷺ) يوما تل الصفا وصاح (ياصباحاه)، وكانت هذه صيحة تطلق عادة فى لحظة الخطر لكى يحتشدالناس لمعرفة الخبر عمن أطلقها ، فاحتشدت قريش ، فأنذرهم النبى (ﷺ) من العذاب الذى ينتظرهم، فقال له أبو لهب " تبا لك ، ألهذا جمعتنا ؟! " ، فتفرق الناس ، ونزلت آية ﴿ تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ﴾ .

وذات يوم آخر دعا النبى (ﷺ) أقاربه من بنى عبدالمطلب إلى داره ، وقدم لهم الطعام ثم دعاهم للإسلام ، وذكر لهم مايعود عليهم من فوائد دنيوية وأخروية من ذلك، واشترط على كل من يبايعه أن يكون له أخا وصاحبا ووارثا، إلا أن أيا منهم لم يجبه سوى على رضى الله عنه ، وبهذا ووجهت الدعوة إلى الإسلام بالرفض من جانب أشراف مكة ، أما فى الطبقات الدنيا فقد أبدى الناس اهتماما تدريجيا بها ، فكان من بين السابقين إلى الإيمان بالدعوة عدد من عبيد مكة ومستضعفيها ومن بينهم عمار بن ياسر وصهيب وبلال ويسار وجبر وأبو فكيهة وعدد من الإماء كذلك [1] .

---

(1) انظر ابن هشام ، ج 1 ، ص 339

كان النبى فى ذلك الوقت قد استقر بدار الأرقم واتخذ منهامركزا للدعوة ومقرا لتجمع أتباعه، وهذه الدار لاتزال قائمة بمكة إلى جوار تل الصفا وتسمى دار الخيرزان .[1]

ويروى أن النبى كان يقضى النهار بهذا المكان وكان الذين سبقوا إلى الإسلام يأتون بأشخاص جدد ليستمعوا لأحاديث الرسول والآيات القرآنية المنزلة ، ويذكر المؤرخون عددا ممن اعتنقوا الدين الجديد بدار الأرقم ، ومن بينهم عمار بن ياسر وعمر بن الخطاب وأعمامه الأربعة .

ولم يتوقف الرسول (ﷺ) عن دعوته لزعماء قريش، وتدل قصة ابن مكتوم التى تشير إليها آية الأعمى على مدى اهتمام الرسول بقريش ، وتبين أنه كان يتبع العطف والمودة مع أتباع دعوته ، وكان سلوك قريش تجاه النبى (ﷺ) يبدو متعقلا فى بادىء الأمر ، فكان موقفهم لايزيد عن الإهمال والإنكار [2] ، وما أن يرد حديث يذكر الأوثان والأجداد بسوء كان القوم يثورون ويبادرون بالعداء ، ولما كان النبى (ﷺ) يعيش فى حماية أبى طالب فلجأوا بالشكوى إليه قائلين " إن ابن اخيك يذكرنا بسوء ويقبح ديننا ويعتبرنا سفهاء ويعتبر آباءنا من الضالين "، وكانوا يطالبون أبا طالب إما بنهى ابن أخيه عمايفعل أو بإطلاق يدهم يفعلون به مايشاءون ، فهدأ أبو طالب من ثورة القوم بحديثه إليهم ، الا أن النبى كان شديد الانشغال بالدعوة ، فلجأ القوم مرة أخرى إلى أبى طالب يطالبونه بنهى ابن أخيه عن سب الآلهة فى مقابل أن يدعوه لإلهه ، فاستدعى أبو طالب النبى وقص عليه ماكان من قومه ، فأحجم النبى (ﷺ) عن مهادنتهم ، وعاد إلى دعوتهم إلى التوحيد، فمضى القوم بثورتهم ومضى النبى بوعد من أبى طالب بالتأييد والعون .

وعندما علمت قريش أن أبا طالب ماكان ليخلى بينهم وبين النبى يأسوا من التعرض له ووجهوا حملتهم إلى أتباعه فكانوا يجبرون من ينتسب إلى إحدى القبائل منهم على احترام عادات قبيلته بإيذائه ، وكان أذاهم أفدح بالنسبة للعبيد والغرباء الذين لم يكن لهم

(1) الرحلة الحجازية ص 37 .

(2) فى الطبرى (ج 2 ، ص 218) " لم يبعد منه قومه ولم يردوا عليه بعض الرد " .

من يحميهم ، فرحل قوم كثيرون عن مكة ، وأخفى آخرون إيمانهم ولم يبق منهم سوى عدد قليل ، وظل النبى (ﷺ) يعيش فى حمى أبى طالب، وانحاز بنو هاشم وبنو عبدالمطلب باستثناء أبى لهب إلى موقف أبى طالب ، وبهذا انقسمت قريش إلى فريقين فريق يحمى النبى ﷺ وفريق يناصبونه العداء .

أمر النبى أتباعه الذين بقوا معه بلاحماية بالهجرة إلى الحبشة فرارا بحياتهم ، وقال لهم : " إن بها ملكا لايظلم لديه أحد ، وهى أرض صدق فامضوا إليها إلى أن يفتح الله عليكم وينجيكم من الضيق " ، وجدير بالذكر أن الأحباش كانوا فى ذلك الوقت يعتنقون المسيحية وكانوا أشد تحضرا من العرب ، كما كان لأهل مكة معرفة قديمة بهم وكانوا يترددون عليهم ويتعاملون معهم فى التجارة .

قسوة قريش :

بينما كان مهاجرو الحبشة يعيشون فى أمان فى حمى النجاشى سمعوا ذات يوم أن الصلح قد عقد بين النبى (ﷺ) وقريش وأن أهل مكة تحولوا إلى الإسلام ، فعاد عدد منهم الى مكة، وعلى مشارف مكة علموا أن العداوة لاتزال قائمة على حالها، فلم يستطع أى منهم أن يدخل مكة إلا فى حمى أحد ذوى النفوذ أو خفية ، وكانت هذه العودة بعد شهرين تقريبا من الهجرة (إلى الحبشة) ، وعادت الضغوط إلى الإزدياد من جديد، فأرسل النبى(ﷺ) المستضعفين من الصحابة مرة أخرى إلى الحبشة وكانت هذه هى الهجرة الثانية ، ولم يعد هؤلاء المهاجرون إلى الجزيرة العربية إلا بعد هجرة النبى إلى المدينة .

وفى هذا الوقت أى فى العام السادس بعد البعثة دخل الإسلام اثنان من صفوة قريش ، وبتحولهما إلى الإسلام استمد هذا الدين الجديد قوة جديدة وقويت شوكة أتباعه نسبيا، وكان أحدهما حمزة بن عبدالمطلب والآخر عمر بن الخطاب ، فقام حمزة بضرب أبى جهل فى المسجد الحرام فى حضور قريش معرض حماية النبى (ﷺ) ، فلم يتعرض له أحد . وفى أواخر هذا العام السادس استبد الغضب بقريش من سلوك أبى طالب فى حمايته للنبى (ﷺ) ، فعقدوا فيمابينهم حلفا يقضى بألا يتزوجوا أو يمارسوا التجارة مع أسرة بنى هاشم وبنى عبدالمطلب من بعد ، ودونوا هذا الحلف على صحيفة علقوها

بداخل الكعبة ، وعلى الجانب الآخر احتشد بنو هاشم وبنو عبدالمطلب باستثناء أبى لهب حول أبى طالب واستقروا جميعا بصحبة النبى وخديجة فى شعب أبى طالب (1) للحفاظ على أرواحهم (فى الشهر الأول من العام السابع بعد البعثة) ، فلم يدخل الشعب أحد ولاكان أحد منهم يغادره إلا فى موسم الحج ، وقد استمر الحال على هذا عامين أو ثلاثة أعوام ، واشتد الأمر بساكنى الشعب الى أن تعاطف عدد من المعارضين معهم ، وأخذوا يتحدثون عن محنة بنى هاشم على الملأ فى المسجد الحرام ، وقاموا بنزع الصحيفة من الكعبة وقد أكلها النمل ، وتوقف الحصار فى أوائل العام العاشر بعد البعثة .

وبعد شهر من الخروج من الشعب وقعت حادثتان أليمتان للنبى (ﷺ) وهما وفاة خديجة وأبى طالب بفاصل زمنى بينهما (بين ثلاثة أيام وعدة أشهر على اختلاف الروايات) ، وكانت خديجة حين الموت فى الخامسة والستين من عمرها عاشت منهم مابين عشرين وخمسة وعشرين عاما فى بيت النبى (2) ،وكان أبو طالب قد تجاوز الثمانين .

وبعد وفاة خديجة تزوج النبى (ﷺ) سودة التى كان قد توفى عنها زوجها سكران بن عمرو الذى كان من مهاجرى الحبشة ، وبعد فترة تزوج عائشة بنت أبى بكر ، ويروى عن النبى أنه قال : " مانالت منى قريش شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب " ، لذا فقد اعتكف فى داره بعد وفاة أبى طالب ، وكان نادرا مايغادرها ، وفى ذلك الوقت كمايروى ابن سعد حدث أمر غير متوقع ، فقد عرض أبو لهب الذى كان حتى ذلك الوقت من أشد أعداء محمد (ﷺ) الصلح معه وأتى إليه يعرض عليه حمايته ، وبعد ذلك لم يتعرض أحد بالإيذاء للنبى (ﷺ) خشية بطش أبى لهب، إلا أن قريشا أوقعت بينهما، فعاد أبو لهب إلى عداوته السابقة، وتروى بعض الروايات أن أبا طالب استدعى آل بيته وهو على فراش الموت وأوصاهم بالنبى، وإن صحت هذه الروايات فربماكان اهتمام أبى لهب بالنبى قد حدث على أثر هذه الوصية، ولاننسى أن أبا لهب كان أيضا عم النبى .

---

(1) شعب (بكسر الأول وسكون الثانى) تعنى " وادى " أو فتحة بين جبلين ، وورد ذكر شعب أبى طالب فى معجم البلدان والمراصد باسم " شعب أبى يوسف " وهو واد بمكة كان ملكا لعبد المطلب وآل لبنيه بالتوارث ،وكان للنبى فيه سهم وكان يسكنه بنو هاشم

(2)وهذا الاختلاف ناجم عن الاختلاف حول سن خديجة حين تزوجت النبى كماسبق أن ذكرنا

ويقال أن قريشا بعد رجوع أبى لهب عادت الى بطشها المعهود وأذاها الذى أنزلته بالنبى (ﷺ) وأتباعه فورد فى الأخبار أن جيران النبى ألقوا على داره يوما سقط شاة، فحملها النبى (ﷺ) على طرف عصاه وقال :

" يابنى عبد مناف ، أهذا حق الجيرة والجوار عندكم ؟! " ، وفى دار خديجة بمكة هناك صخرة يقال أن النبى، (ﷺ) كان يحتمى بها من الجيران ومايلقونه عليه من أحجار فى أوقات الصلاة [1] ويروى أيضا أنهم يوما صبوا التراب على رأس النبى (ﷺ) ويقول الطبرى وابن هشام ان النبى (ﷺ) كان يطوف بالكعبة يوما فوقف جمع من قريش فى ركن ، وكانوا كلما مر بهم النبى فى طوافه يفحشون القول له ، وفى ثالث مرة غضب النبى (ﷺ) وقال لهم : " يامعشر قريش أما والذى نفس محمد بيده لقد جئتكم بالذبح »، فخاف الناس مماقال وطلبوا عفوه ولكنهم فى اليوم التالى أحسوا بالخجل من تخاذلهم هذا ، فازدحموا عند النبى وقام أحدهم (برواية عقبة ابن أبى معيط) بشد رداء النبى (ﷺ) حول رقبته وأخذ يضغط ، فصاح بهم أبو بكر قائلا: " أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ! " فتفرق الجمع . [2]

ولم يرد تاريخ هذه الوقائع فى الأخبار، والمسلم به أن الأمور قد ازدادت سوءا على النبى (ﷺ) بعد موت أبى طالب ، فلم يتحول أحد إلى الإسلام فى الفترة الأولى ، وكان معظم الصحابة قد هاجروا الى الحبشة ، وكانت مقاومة قريش بالعدد الضئيل من المستضعفين الذين ظلوا بمكة تبدو أمرا محالا لولا أن كان عزم النبى أقوى من قدرات المناوئين له ، وظل النبى (ﷺ) يبحث عمن يحميه فاتجه نظره الى خارج مكة .

يرى البعض أن حادثة شق القمر وقعت فى العام التاسع بعد البعثة ، ومن ثم فقد وقعت ابان إقامة النبى (ﷺ) وأتباعه بالشعب .[3]

---

(1) الرحلة الحجازية .
(2) الطبرى ، ج 2 ، ص 223
(3) الخميس ، ج 1 ص 337

الدعوة خارج مكة :

كانت الطائف أول مدينة تجذب نظر النبى (ﷺ) من المدن خارج مكة ، وكانت الطائف التى تقع على بعد ثلاثة أيام على الطريق إلى الشرق من مكة فى واد أخضر عامر بالحياة مستقرا لبنى ثقيف فى ذلك الوقت ، وكانت تحت زعامة ثلاثة إخوة هم عبد ياليل ومسعود وحبيب أبناء عمرو بن عمير ، وكانوا على اتصال وثيق بزعماء قريش وبينهم تجارة وتعاملات ، كماكانت الطائف مقرا للات احد أكبر أوثان العرب ، لكل هذه الأسباب كان من الطبيعى ألاينظر أهل الطائف الى الدعوة الجديدة بأى مودة ، وتطالعنا الأخبار أيضا بأن أثرياء الطائف كانوا يحثون قريشا على مناصبة النبى العداء فى أوائل ظهور الاسلام ،الا أن هذه السمات التى ميزت الطائف لم تدخل اليأس على قلب النبى من نشر الدين الجديد ودعوة أهل الطائف اليه ، فخرج ذات يوم برفقة زيد بن حارثة (أو بمفرده فى بعض الروايات) من مكة فطوى وادى منى وعرفات وبلغ الطائف وبقى بها عشرة أيام ، واجتمع بالاخوة الثلاثة وحثهم على قبول الدين الجديد والوقوف معه فى مواجهة قريش ، الاأنهم رفضوا ، فنهض النبى ، ويقال انه ألح فى طلبه منهم ألايعلنوا عن زيارته وحديثه اليهم حتى لايبلغ الخبر مكة فيؤدى الى زيادة اضطهاد قريش، الا أن الاخوة حثوا جمعا من السفهاء والغلمان على تعقب النبى (ﷺ) بالجلبة والسفه، وعاد النبى الى مكة جريح القدمين وفى منتصف الطريق فى مكان يسمى نخلة توقف لعدة أيام، وفى منتصف الليل حيث كان قائما يصلى ويرتل القرآن مر بالمكان جماعة من الجن فآمنوا بالاسلام على أثر سماعهم القرآن ، وعادوا الى قومهم بالبشرى وتتناول سورة الجن فى القرآن هذه الواقعة .

وعندما اقترب النبى (ﷺ) من مكة أحجم عن دخولها، وأرسل أحد المارة إلى الأخنس بن شريف يطلب حمايته وكان رد الأخنس بالرفض، فأرسل إلى سهيل بن عمرو فرفض أيضا، فأرسل إلى مطعم بن عدى فقبل ، وفى الصباح دخل المسجد مع بنيه وأبناء أخيه مسلحين كإشارة إلى أنهم يسبغون حمايتهم على شخص ودخل النبى (ﷺ) مكة .

كان موسم الحج يمثل دائما فرصة مواتية للنبى (ﷺ) لنشر الدين والدعوة إليه بين القبائل، إذ كانت الطوائف على اختلافها تجتمع فى هذا الموسم فى مكة والأسواق المحيطة

بها، وكانت حرمة الأشهر الحرم تمنع إيقاع أى أذى بين الناس ، فكان النبى يلتقى بالواردين إلى مكة ويشرح لهم أركان دينه ويطلب منهم الحماية . ويصف لنا عربى من بنى عامر كان قد أتى إلى مكة فيقول : " أتانا شاب من قريش من بنى عبد المطلب قال انه نبى ودعانا لحمايته ومرافقته إلى بلادنا ، وفى خبر آخر يتعلق بواحد من مجالس الدعوة هذه أن أبا لهب وقف وراء النبى وما أن انتهى النبى من حديثه بدأ يكذبه ويحذر الناس من متابعته .

وكان النبى يحضر أسواق عكاظ ومجنة وذى مجاز لنشر الدعوة وابلاغ كلمة الله للناس ، الا أن العرب ماكانوا ليقبلوا اعتناق الاسلام وحماية النبى سواء خوفا من قريش أو من الدين الجديد الى أن جاء خزرج المدينة يوما الى النبى .

بيعة العقبة والهجرة : (من العام الحادى عشر الى الثالث عشر من البعثة)

فى قلب جبال الحجاز ثمة واد طويل يقال له وادى القرى يمر به الطريق التجارى من اليمن الى الشام بعد العبور من أطراف مكة ، وعلى طول هذا الوادى الممتد من الشمال الى الجنوب ثمة واحات عديدة تنزل بها القوافل للتزود بماء آبارها والقليل من الخضرة ومن بين هذه الواحات مدينة يثرب القديمة التى تعرف باسم المدينة وكانت تسكنها طوائف من اليهود منذ القدم ، وكانت قد أتت اليها من الشمال ، وفى أوائل القرن الرابع الميلادى نزحت طائفتان من عرب الجنوب (القحطانيين) هما الأوس والخزرج إلى يثرب وسكنوا مع يهودها ثم تعاون أفراد الطائفتين العربيتين مع اخوتهم من البدو على اليهود ، وقاموا بقتل زعمائهم ليلا فى أحد المجالس وفرضوا هيمنتهم على يثرب ، ولكن لم يمر وقت طويل حتى وقع الشقاق بينهما ، وأبرمت كل قبيلة حلفا مع قبائل أخرى من العرب، وانقسم اليهود أيضا الى فريقين : بنو قريظة وبنو النضير الى جانب الأوس وبنو قينقاع الى جانب الخزرج.

وبينما كان النبى مشغولا بالدعوة فى مكة كان العداء قد بلغ ذروته بين الأوس والخزرج فى المدينة، وكان قد أتى إلى مكة عدد منهم بقيادة أنس بن رافع لطلب المدد من قريش ، فالتقى بهم النبى وعرض عليهم دين الاسلام ، فأعجب أحدهم ويسمى إياس بن معاذ بحديثه ، إلا أن قائد الجماعة وكانت عينه مركزة على استمداد قريش وبخه ، وبهذا

لم يقبلوا دعوة النبى (ﷺ) ، ومضوا فى طريقهم ، وفى النهاية نشبت حرب مستعرة بين القبيلتين وهى حرب بعاث وحالف الاوس النصر ، فقاموا بإحراق بساتين النخيل الخاصة بأعدائهم وتخريب ديارهم ، وظل القتلى يتساقطون على الجانبين بين حين وآخر وظل السلام يعم فترة والحرب تنشب فترة بالتناوب .

وفى النهاية مل الطرفان سفك الدماء، وسعيا الى عقد السلام وكان من أشراف الخزرج رجل اسمه عبدالله بن أبى يلوم قومه على هذه الفوضى ولم يشارك فى حرب البعاث ولهذا فقد توسط لدى كلتا القبيلتين ، وفى هذه الأثناء حيث ظهرت بوادر الصلح بين الطرفين قبلت القبيلتان أن يتولى هو زعامتهما وأعدتا له كما تجرى الرواية تاج الامارة ، الا أن الحادثة التالية وقعت وحالت دون توليه الزعامة .

ذات يوم كان النبى (ﷺ) يطوف بالحجيج فى موسم بمكة كعادته وفى المكان المسمى بالعقبة وقعت عيناه على جماعة فسألهم عن هويتهم ، فقالوا له " نحن طائفة من الخزرج "، فسألهم « وهل أنتم من موالى اليهود ؟ » ، فقالوا " نعم " ، فسألهم أن يجلسوا قليلا لكى يتحدث معهم ، فجلسوا ودعاهم الرسول (ﷺ) إلى الله والى الاسلام وتلى عليهم آيات من القرآن ، ويروى أن هؤلاء القوم كانوا يجاورون اليهود بالمدينة وكان اليهود أهل علم وكتاب وكان هؤلاء من المشركين عبدة الأصنام ، ونادرا ماكان اليهود يسمحون لهم بدخول منازلهم ، وكلما كانت تنشب بينهم منازعة كان اليهود يقولون لهم : " إنا ننتظر نبيا سيظهر فى هذه البلاد وسنتبعه وسنقضى عليكم بصحبته كماقضى على عاد وارم " ، وعندما سمع الخزرج فى ذلك الوقت ماقاله الرسول (ﷺ) بمكة قالوا " هذا هو النبى الذى يخيفنا به اليهود " ، وفى نفس المجلس أعلنوا اسلامهم قبل أن يبادر اليهود بذلك، لكنهم قالوا للنبى . " ثمة خلاف وعداء بين قومنا وعسى الله ان يزيله على يديك، انا ذاهبون لنعرض عليهم ماأتيتنا به، فإن قبلوه فلن يكون بيننا أعز منك »، ومضوا . وكانت هذه الحادثة فى العام الحادى عشر من البعثة وكان الخزرجيون ستة ، وبعد أن بلغوا المدينة بدأوا فى الدعوة ، فانتشر الاسلام بها حتى انه يروى انه لم يبق بها بيت من بيوت الأنصار لايدور فيه حديث النبى [1] .

---

(1) الطبرى ج 2 ، ص 234

وفى العام التالى (الثانى عشر بعد البعثة) أتى الى مكة فى موسم الحج نفس هؤلاء الخزرجيون الستة ومعهم ستة آخرون من قومهم وبايعوا النبى (ﷺ) فى العقبة واثقين مماتحقق للإسلام من تقدم فى ربوع المدينة ، وتسمى هذه البيعة " بيعة العقبة الأولى " ، وكان نص هذه البيعة كماأورده الطبرى كمايلى : " نبايعك على ألا نشرك بالله أحدا وألانسرق ولانقتل أولادنا ولانكذب ولانعصاه فى خير يأمرنا به " ، وردا على هذه البيعة قال النبى (ﷺ) : " إن وفيتم لكم الجنة وإن خنتم العهد أقيم عليكم الحد فى الدنيا وتكونوا من الكافرين إن ظهرت خيانتكم وإن خفيت فإنكم تتركون ليوم القيامة يعفو الله عنكم أو يعذبكم » ، ولم تنص هذه البيعة على التكليف بالقتال ويسمى هذا الجزء من البيعة " بيعة النساء " وذلك لان النبى فى فتح مكة أقر بيعة النساء بهذا القسم .

وبعد بيعة الخزرج عادوا الى المدينة بعزم أكبر على نشر دين الاسلام ، وأرسل الرسول اليهم واحدا من رجاله هو مصعب بن عمير القرشى لتعليمهم شئون دينهم وتلاوة القرآن عليهم .

يرى معظم المؤرخين أن واقعة الإسراء والمعراج (1) كانت فى العام الثانى عشر من البعثة ، وكمايدور الخلاف حول العام الذى حدثت فيه يدور الخلاف كذلك حول الشهر واليوم ، وكذلك حول موضعها ، ومالإذا كانت قد وقعت فى دار النبى أم من المسجد الحرام أم من دار أم هانىء (بنت أبى طالب) ، وثمة خلاف أيضا حول ما إذا كان الإسراء والمعراج قد حدثا معا فى ليلة واحدة أم فى ليلتين ، وحول تفاصيلهما التى وردت فى كتب الحديث المذكورة ، ويرى جمهور المسلمين من الشيعة الامامية أن الإسراء والمعراج كانا معا فى ليلة واحدة وكانا بالجسد لا بالروح وحدها وفى اليقظة لا فى المنام ، وفى ليلة المعراج تقررت الصلوات الخمس ، يقول الواقدى إن صلاة الحضر كانت فى البداية ركعتين كصلاة السفر ، ثم زيدت بعد ذلك فى العام الثانى للهجرة

---

(1) المراد بالإسراء السفر من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ، والمعراج الصعود الى السموات، يقول النووى فى التهذيب (طبعة المنيرية ، ج 2 ، ص 81) أن أفضل احاديث الاسراء هوحديث مالك بن صعصعة الذى اتفق عليه كل من البخارى ومسلم (المؤلف) .

واقترب العام الثالث عشر من البعثة ، وكان أمر الإسلام قد علا فى المدينة بحيث يقال انه لم يبق بين الأوس والخزرج سوى أربع أسر على غير الإسلام، وفى موسم الحج من ذلك العام أتى إلى العقبة سبعون من زعماء المدينة مع مصعب بن عمير وبايعوا النبى (ﷺ) ، وهذه هى البيعة الثانية وكانت أشد من بيعة العام السابق فكانت بيعة حرب الأحمر والأسود والتزام بحماية النبى ونسائه وبنيه ، وقام النبى بتحديد اثنى عشر منهم ليتولوا قيادة قومهم بلقب " نقيب " .

كانت هذه المباحثات تتم سرا وليلا، ويروى المؤرخون أن عباس بن عبدالمطلب كان يحضر هذه المباحثات ويساعد على حلب اهل المدينة[1] وبعد ثلاثة أيام داع الخبر بمكة وبدأت قريش فى تعقب المسلمين ببطشها ، ويطلق المؤرخون على هذا " الفتنة الثانية " فى مقابل " الفتنة الأولى " التى أدت الى الهجرة الى الحبشة ، ولكن فى هذه المرة كان للمسلمين ملاذ محكم كالمدينة وأنصار يؤازروبهم كالأوس والخزرج ، وبهذا بدأت الهجرة الى المدينة، فنزح المسلمون جماعات بأمر من النبى (ﷺ) ولم يبق منهم سوى النبى نفسه ومعه على وأبو بكر .

وفى أوائل العام الرابع عشر من البعثة أدركت قريش استفحال أمر الاسلام ، فاجتمعوا فى دار الندوة يتشاورون ويروى أن الشيطان حضر هذا المجلس فى صورة شيخ نجدى وأدلى برأيه بضرورة قتل النبى (ﷺ) وبضرورة أن يتم هذا الأمر بصورة جماعية حتى يشيع الأمر ولايقع الجرم على فرد بعينه ، فأقر الجميع هذا الرأى، وفى الليل حاصروا بيت النبى فأمر النبى (ﷺ) عليا بأن ينام فى فراشه ، وخرج هو قاصدا غارثور وعبر من بين القوم ومضى فى حمى الله دون أن يراه أحد واستيقظ أبو بكر بعد لحظات من خروج النبى ولحق به ، وتروى معظم الروايات أن أبا بكر كان يحدس بنية الرسول (ﷺ) فى الهجرة قبلها بمدة طويلة لذا فقد أعد أسباب السفر إلى أن حلت ليلة الهجرة حين غادر النبى من بيت أبى بكر ويرفقته قاصدا الغار ومكثوا بالغار ثلاثة ايام وفى كل ليلة كان راعى اغنام ابى بكر يأتى الى الغار بغنمه ويقدم لهما اللبن وكان ابن

---

(1) الطبرى ، ج2 ، ص 238

أبى بكر يأتى اليهما بأخبار مكة كل ليلة ، وبعد مضى الأيام الثلاثة وهدوء الاضطراب أتى غلام أبى بكر بجملين كان قد أعدهما لهذا الغرض وخرج النبى (ﷺ) وابو بكر برفقة الدليل الذى استأجراه قاصدين المدينة ، ويشير القرآن الى مؤامرة قريش فى الآية [وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ] (الأنفال ، 30) ويشير كذلك الى القلق الذى ألم بأبى بكر فى الغار فى الآية. [إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ] (التوبة ، 40) .

* * * *



الفصل الثالث

النبى فى المدينة



العام الأول بعد الهجرة

فى الثانى عشر من ربيع الأول من العام الرابع عشر بعد البعثة وهو السنة الأولى وصل النبى (ﷺ) إلى المدينة ونزل فى قباء ، وهى حى خارج المدينة ، وهبط من راحلته فى ظل شجرة ، وتوافد الناس بعد أن ظلوا يترقبون قدومه ، ونزل النبى (ﷺ) بدار أحد أفراد بنى عمرو بن عوف ، فى حين نزل أبو بكر فى حى آخر يسمى "سنح" ، وكان على قد ظل بمكة حتى يرد الأمانات التى كانت لدى النبى (ﷺ) إلى أصحابها ، وبعد إتمام مهمته غادر مكة بعد ثلاثة أيام من بلوغ النبى المدينة ، ونزل فى قباء وسكن مع النبى .

وظل النبى بقباء حتى نهاية الأسبوع ، وحدد بقعة ليقام عليها المسجد بها ، وأدى الصلاة بها ، وفى يوم الجمعة ذهب إلى المدينة بصحبة موكب بنى النجار الذين كانوا يمتون للنبى بصلة قربى ، وفى الطريق أدى أول صلاة جمعة بين قبيلة بنى سالم بن عوف ، ثم دخل المدينة ، فاحتشد الناس بعد أن ملأتهم الفرحة بقدوم النبى (ﷺ) ، وظل كل منهم يسعى للإمساك بزمام راحلته أملا فى النزول عليه ضيفا ، إلا أن النبى قال : " اتركوها فهى مأمورة وتعرف أين يحط بها المقام " ، فبركت الناقة فى حى بنى النجار على باب دار أبى أيوب ، فأخذ أبو أيوب بزمامها إلى داره فنزل النبى (ﷺ) عنده ، وكانت ثمة قطعة أرض بور (مربد) أمام الدار وبها عدد من النخل وعدد من القبور القديمة ، فاشتراها النبى وكانت ملكا ليتيمين (وفى رواية أهدوها إليه) فأقام بها مسجدا ، ويقوم المسجد الرئيسى بالمدينة على أساس هذا المسجد ، وتم بناء هذا المسجد بيد النبى نفسه (ﷺ) ومعه صحابته ، فأقاموا أربعة جدران من الآجر النيء بدون سقف، وباتجاه القبلة التى كانت لا تزال إلى بيت المقدس أقاموا عمودا من خشب النخيل تعلوه مظلة ، وعلى أحد جوانب المسجد أقاموا مصطبة فرشت عليها الفرش لفقراء الصحابة (أصحاب الصفة) ، وبنوا بيتين ملحقين بالمسجد لزوجى النبى سودة وعائشة ، وفى ذلك الوقت زف النبى إلى عائشة التى كانت قد بلغت التاسعة ، وبعد إقامة المسجد فرض الآذان وتقرر أن يكون بلال مؤذن المسجد .

وبدأ تعداد المهاجرين فى الازدياد بحيث خلت ديار عديدة من سكانها تماما فى مكة ، وكان الأنصار يأوون المهاجرين فى ديارهم ، وعقد النبى عهد أخوة بين المهاجرين

والأنصار (فى الشهر الخامس أو السادس من الهجرة) ، واختار عليا بن أبى طالب رضى الله عنه أخا له ، وأصبح المسجد مركزا للاجتماع ، وكان الرسول (ﷺ) يؤم الناس فى الصلاة به ويخطب فيهم .

وكان من بين عرب المدينة من يخالفون النبى ولا يؤمنون بالإسلام ، فهاجر بعضهم كأبى عامر الذى عرف بالراهب ، وأما من بقى منهم بالمدينة فكان يضمر البغضاء دون القدرة على إظهارها ، وهؤلاء هم من يطلق القرآن عليهم « المنافقون » ، ومنهم عبد الله بن أبى الذى ضاعت منه زعامة المدينة بسبب الإسلام ، وكانت المسألة الأهم هى يهود المدينة الذين كان لهم وضع خاص ، فكانوا سكان المدينة القدامى ويسيطرون على مائها وأرضها ، وكانت تربطهم بالأوس والخزرج عهود ومواثيق قديمة ، بالإضافة إلى أن اليهود من أهل الكتاب والتوحيد ، كانوا بمقتضى كتبهم ينتظرون ظهور نبى ، وعلى ذلك كان عليهم ألا يتخلفوا عن العرب " الأميين " فى الميل إلى الإسلام ، فلم يدخر النبى (ﷺ) وسعا فى مهادنتهم ، وفى نص قرار الإخاء بين المهاجرين والأنصار (1) أقر بالحفاظ على أمنهم بشرط حفاظهم على أمن المسلمين ، ورغم تحول اثنين من أحبار اليهود إلى الإسلام وهم مخيريق وعبد الله بن سلم اللذان كانا يجادلان اليهود لنصرة الرسول (ﷺ) إلا أن عامة اليهود ظلوا يقاومون الإسلام ويعارضونه بكل ما أوتوا من قوة ، وكانوا يتربصون بالحبرين المسلمين المذكورين ، وانضم المنافقون إلى اليهود ، ثم أطلع الله النبى وحيا بما يضمره الفريقان له ولأتباعه ، ونزلت آيات عديدة ومن بينها ما ورد فى سورة البقرة ضد اليهود وكشف بها سوابق كفرهم وإلحادهم وقتلهم للأنبياء وتحريفهم للكلم عن مواضعه وإنكارهم بعد إقرارهم به .

حسب رواية كل من الواقدى والطبرى بدأت العمليات الحربية من ذلك العام ، أما ابن إسحاق فيرى أن بدء الغزوات كان فى العام الثانى من الهجرة، وهناك اختلاف حول تاريخ العزوات والسنوات التى حدثت فيها بصورة عامة بين كتاب السيرة، بل وأحيانا يرد ذكر غزوة ما تحت اسمين وفى مكانين مختلفين. على أية حال، تجرى رواية الواقدى على أن النبى (ﷺ) أوفد حمزة فى الشهر السابع من ذلك العام وبصحبته ثلاثون من المهاجرين

---

(1) النص كاملا فى ابن هشام ، ج2 ، ص94

إلى قافلة لقريش ، وكان قائد القافلة أبا جهل ومعه ثلاثمئة فرد ، فعاد حمزة دون قتال ، وفى الشهر الثامن خرج عبيدة بن الحارث (من بنى عبد مناف) بصحبته ستين من المهاجرين إلى رابغ [1] لملاقاة إحدى القوافل ، ونشبت معركة محدودة بالسهام بين الفريقين، وفى شهر ذى القعدة خرج سعد بن أبى وقاص مع ستين فرداً إلى خرار ، وعندما بلغوا ذلك المكان كانت القافلة قد مرت ، وكان أفراد هذه الفرق جميعا من المهاجرين وكان قادتها من رجال مكة وقريش ، وكان النبى (ﷺ) عندما يجرد الفرقة يعقد لها راية يسلمها لقائدها كرمز على تسلمه لواءها .

العام الثانى بعد الهجرة :

فى ذلك العام تحولت القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة، وكان النبى (ﷺ) والمسلمون منذ بداية الإسلام وحتى ذلك الوقت (أى بعد ستة عشر شهرا من الهجرة أو ثمانية عشر شهرا فى رواية أخرى) يولون وجوههم فى الصلاة شطر بيت المقدس ، فقال اليهود" إن محمدا وصحبه لا يعرفون لهم قبلة إلى أن هديناهم إليها " ، فحزن النبى (ﷺ) وود لو كانت الكعبة قبلة المسلمين ، وذات يوم كان النبى (ﷺ) يصلى الظهر بمسجد بنى سلمة ، فنزلت عليه آية بتحويل القبلة،﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾[2]، فاتجه النبى(ﷺ) فى الحال شطر الكعبة وتبعه من كانوا يصلون معه ، ثم مضى إلى مسجد قباء ووجه المحراب شطر القبلة الجديدة

وبعد فترة قصيرة من هذا الحدث فرض صيام شهر رمضان بدلا من صوم عاشوراء الذى كان قد فرض فى العام السابق، وفى نهاية شهر رمضان أبلغ النبى(ﷺ) حكم زكاة الفطر فى خطبة له، وفى يوم عيد الفطر ذهب إلى مصلاه،وكانت هذه أول صلاة عيد تؤدى فى المصلى،وبعد عدة أشهر أجريت مراسم عيد الأضحى لأول مرة،فخرج النبى (ﷺ) إلى مصلاه، ونحر بيديه شاة، وكذلك فعل القادرون من الصحابة، ثم صلى بهم صلاة العيد.

كانت العمليات الحربية فى ذلك العام عديدة ، وشارك النبى فى بعض منها ، وتسمى العملية الحربية « غزوة » فى مقابل " السرية " التى كانت تخرج دون رفقة النبى

(1) مكان على الطريق بين مكة والمدينة قرب البحر

(2)سورة البقرة آية 144 ،ورد الخبر إجمالا لدى ابن هشام وتفصيلا لدى الطبرى وفى مجمع البيان.

(ﷺ)[1] ، وكلما كان النبى يخرج بنفسه كان يولى على المدينة واحدا من صحابته ، وكان الهدف من هذه العمليات إلقاء ضغوط على قريش من خلال مهاجمة قوافلها وإخضاع القبائل غير المسلمة فى النقاع المجاورة وإدخالها فى الإسلام ، كانت غزوة الأبواء التى تسمى أيضا غزوة ودان هى الأولى ، ثم تلتها غزوة بواط وكانتا جميعا فى شهر ربيع الأول ، وفى كلتا الغزوتين عاد النبى (ﷺ) دون قتال ، وكان يقصد بها قوافل لقريش ، وفى هذه الأثناء قام شخص يسمى عامر بن كريز (أو كرز بن جابر) الفهرى بالهجوم على أطراف المدينة والإغارة على قطعان أغنام تخص أهلها ، فتعقبه النبى (ﷺ) إلى بدر فلم يلحق به ، وقد سميت هذه الغزوة بدر الأولى [2] .

وفى شهر جمادى الأولى شاع الخبر بأن قافلة قريش فى طريقها من مكة إلى الشام بقيادة أبى سفيان ، وكان أبو سفيان يعد شيخ بنى أمية ومن أكبر زعماء قريش ومكة ، فخرج النبى (ﷺ) بصحبة مئتى رحل وثلاثين جملا وراء هذه القافلة وبلغوا عشيرة دون اللحاق بها ، فعقد حلفا فى هذه المنطقة مع قبيلتى بنى مدلج وبنى ضمرة . وكان هذا أول حلف يعقد مع قبائل خارجية .

وفى جمادى الثانية أو رجب من نفس العام أرسل النبى (ﷺ)عبد الله بن جحش برفقة ثمانية أفراد أو اثنى عشر فردا من المهاجرين إلى نخلة بالقرب من مكة لتقصى أحوال قريش، فنصب عبد الله كمينا فى نخلة، ومرت إحدى القوافل فقام المسلمون بقتل أحد رجالها ويسمى عمرو بن الحضرمى بسهم ،وعادوا إلى المدينة بما كانت تحمله القافلة من بضائع ومعها أسيران، وكان هذا أول نصر يتم إحرازه، ولكن وقعت هذه الواقعة فى أحد الأشهر الحرم، فاحتجت قريش واليهود على ذلك، وحتى المسلمون أنفسهم وجهوا اللوم إلى عبد الله بن جحش ورفاقه وامتنع النبى(ﷺ) عن الحصول على نصيبه مما غنموا إلى أن نزلت آية تبرىء هذه الفعلة وهى ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾(سورة البقرة آية 217)

(1)لم يرد هذا الاصلاح لدى الطبرى

(2)يرى بعض المؤرخين أن هذه الغزوة كانت بعد غزوة عشيرة

وفى أعقاب هذه الواقعة وقعت غزوة بدر ، كانت قافلة قريش عائدة من الشام بقيادة أبى سفيان ، فخرج النبى (ﷺ)وصحابته قاصدين هذه القافلة ، ونصبوا كمينا فى بدر ، فلما بلغ الخبر أبا سفيان حاد عن الطريق وأرسل رسولا إلى مكة يطلب المدد ، فجاءته جماعة من أهلها ووقعت المواجهة بينهم وبين المسلمين فى بدر ، وعندما مرت القافلة من مكان الخطر أرسل أبو سفيان رسالة إلى قريش لكى يعود رجالها دون قتال ، وكان من بين المسلمين أيضا عدد جاءوا قاصدين القافلة وحسب دون ميل إلى القتال ، خاصة وأن عدد المسلمين كان يقل كثيرا عن عدد رجال قريش ، . إلا أن أبا جهل بالغ فى تصويره حادثة مقتل عمرو بن الحضرمى لدى قريش وحثهم على القتال ، علاوة على ذلك كانت قريش ترى كثرتها أمام قلة عدد خصومها ، فمالوا إلى وجهة نظره مع رغبة فى ترهيب أهل الحجاز ، فاصطف الطرفان واتخذ النبى (ﷺ) مكانه فى ظل شجرة ووقف جمع من صحابته حوله يدافعون عنه بينما مضى الباقون إلى ميدان القتال ، ولم يمر وقت طويل حتى لحقت الهزيمة بالمشركين ، فقتل سبعون من قادة قريش وأسر سبعون آخرون وفرت فلول منهم ، وكان الرسول قد أمر بعدم قتل أحد من بنى هاشم ، ولذا فقد تم التحفظ على العباس عم النبى ضمن الأسرى ، وألقى بالقتلى فى قاع بئر ، ووقع الخلاف بين الصحابة حول الغنائم ، فكان من شاركوا فى القتال يريدون نصيبا يزيد عما تسم لمن ظلوا حول النبى ، إلى أن نزلت الآية ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (سورة الأنفال، الآية الأولى)، فجمع النبى (ﷺ) الغنائم

بمقتضى هذه الآية وسار بجيشه باتجاه المدينة، وفى الطريق وزعها بينهم بالتساوى، وفى الطريق أيضا أمر بضرب أعناق عدد من الأسرى ممن كانوا يغالون فى مناهضة الإسلام من قبل، ودخلوا المدينة، وفى اليوم التالى أتوا بالأسرى مهللين فرحين، وكانت واقعة بدر أول فتح للإسلام، فهلك عدد من زعماء قريش ممن كانوا يناصبون النبى واتباعه فى مكة أبلغ عداء، فقويت الروح المعنوية لدى المسلمين وآمنوا بنصر الله لهم وبمنعة الإسلام .

وألمت الفاجعة بأهل مكة من غزوة بدر ، وظلت أصوات النواح والبكاء تعلو من ديارها مدة من الزمن ، وأحجم أهلها عن افتداء أسراهم فى بداية الأمر ثم توافدوا واحداً بعد واحد كل يفتدى أسيره بالمال ، أما العباس فقد أطلقه المسلمون بلا فدية إكراما لكونه

عم النبى، ومات أبو لهب بمكة بعد عدة أيام من موقعة بدر ، وأصبح أبو سفيان زعيما لمكة فعليا من بعد ، وظلت قريش كلها تفكر فى اليوم الذى تثأر فيه لهزيمتها .

وبعد بدر تعقب النبى (ﷺ) المنافقين واليهود بالمدينة وعاقبهم ، فقتل على يد الأنصار اثنان من المنافقين نظما شعرا ضد النبى وكانا يثيرا الاضطراب بين الناس ؛ أحدهما أبو عفك الشاعر الذى كان من بنى عمرو بن عوف وكان يهوديا والأخرى امرأة من الأوس تسمى عصماء بنت عمير ، وكان يهود قينقاع أول طائفة يهودية ينزل بها العقاب ، وكانوا يسكنون فى قلعة خارج المدينة ويعملون بصياغة الذهب والحدادة ، وفى شهر شوال جمعهم النبى وقال لهم أن اعتبروا من المصير الذى آلت إليه قريش وآمنوا بالإسلام فأنتم تعلمون أنى النبى ، فامتنعوا وأغلظوا له القول ، فنزل عليه الوحى ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ (الأنفال 58)، فأحكم النبى (ﷺ) الحصار حول قلعتهم خمسة عشر يوما إلى أن طلبوا الأمان، ولكن بشفاعة من عبد الله بن أبى الذى كان حليفهم ويحميهم بدل النبى(ﷺ) حكم بتلهم إلى النفى، فرحلوا جميعا إلى مشارف الشام وصارت أموالهم غنيمة للمسلمين بعد وضع الخمس ونصيب النبى، وكانت هذه أول مرة يتم فيها تحصيل الخمس.

وفى آخر ذى الحجة وقعت غزوة سويق [1] ، كان أبو سفيان قد أتى إلى مشارف المدينة برفقة مئتين من أتباعه وفاء لنذر قطعه على نفسه ، فأضرم النار فى عدد من النخيل ، وقتلا شخصين ، فتعقبه النبى (ﷺ) إلا أن أبا سفيان كان قد لاذ بالفرار بسرعة ، وبلغ النبى خبر بأن قبيلتى بنى سليم وغطفان كانتا تحتشدان للدخول فى حرب ضد النبى ، وكانت هاتان القبيلتان تسكنان فى نجد على الطريق التجارى بين مكة والخليج العربى وكان يربطهما بقريش تحالف ، فهاجم النبى (ﷺ) مع مئتين من أتباعه قرقرة الكدر وهو الحى الذى تسكنه القبيلتان ، إلا أنهما كانتا قد لاذتا بالفرار ، فغنم المسلمون عدداً من الإبل وأسروا رعاتهم ، يرى البعض أن هذه الغزوة سبقت غزوة سويق ويرى البعض أنها كانت فى العام الثالث بعد الهجرة [2] .

---

(1) " سويق " تعنى " الطحين " ، يقال ان المشركين فى فرارهم خففوا بتروا ما لديهم من طحين، فسميت الغزوة بهذا الاسم .

(2) انظر الطبرى ، ج2 ، ص 298 .

ومن وقائع العام الثانى بعد الهجرة زواج فاطمة الزهراء من على رضى الله عنه فى شهر ذى الحجة[1] .

العام الثالث بعد الهجرة :

فى شهر صفر من ذلك العام خرج النبى (ﷺ) مرة أخرى قاصدا قبيلة غطفان بنجد، فرحل عنها أهلها، فأمضى بقية الشهر بها ثم عاد (غزوة ذى أمر)، وفى ربيع الأول خرج قاصدا بنى سليم فذهب إلى نجران، ومرة أخرى عاد دون قتال، وفى نفس هذا الشهر كان قتل كعب بن الأشرف اليهودى، كان أبو كعب من أعراب بنى طى وأمه من يهود بنى النضير، وكان هو نفسه يدين باليهودية، ويروى أنه فى بداية هجرة النبى إلى المدينة أعلن إسلامه ثم ارتد إلى دينه بعد تحويل القبلة، وأصبح يعلن مناهضته للإسلام، ويروى أنه ذهب إلى مكة فى أعقاب غزوة بدر وأخذ ينظم الأشعار فى رثاء قتلى بدر وكان يحرض قريشا على الإسلام والمسلمين، ثم عاد بعد ذلك إلى المدينة وظل يتناول فى أشعاره سيرة بعض نساء المسلمين حتى ضاق الناس ذرعا به ، فتطوع محمد بن مسلمة وخرج مع عدد من رفاقه ليلا وقتلوه ، وفى غداة مصرعه أمر النبى(ﷺ)أتباعه بقتل كل يهودى يحدونه، فهاجم أحد الصحابة يسمى محيصة تاجرا يهوديا يسمى ابن سنينة[2] وقتله ، يقول الواقدى أن اليهود تملكهم الخوف على أثر هذه الحوادث ، فأرسلوا عددا منهم إلى النبى وعقدوا معه معاهدة جديدة، وظلوا بعد ذلك يعيشون دوما فى زلة واضطراب .

وفى جمادى الثانية وقعت سرية قردة ، وجدت قريش بعد غزوة بدر أن الطريق الساحلى الآخر لا يصلح للعبور ، فخرجت قافلة فى الشتاء تحمل فضة على طريق البادية، فتولى زيد بن حارثة قيادة الحملة ، فأدرك القافلة فى منطقة قردة وعاد إلى المدينة محملا بالكثير من الغنائم ، وكانت أول سرية وفيرة الغنم حتى أن خمس النبى منها بلغ عشرين ألف درهم ونصيب كل فرد ثمانمئة درهم ، وفى شعبان من ذلك العام تزوج النبى حفصة بنت عمر

---

(1) طبقا للشيخ مفيد فى مسار الشيعة (ط القاهرة ، ص 36) كان هذا فى أول ذى الحجة

(2) ورد الاسم بصورة مختلفة ، ويرى صاحب الروض الآنف أن صحيحه " شبينة " .

وفى يوم السبت السابع من شوال وقعت معركة أحد ؛ فعلى أثر هزيمة قريش فى بدر استمدت قريش العون من حلفائها ، وفى ذلك اليوم خرج جيش يقال إنه كان يضم ثلاثة آلاف ومئتى جواد وألفاً من الإبل بقيادة أبى سفيان قاصدا المدينة ، فأرسل العباس عم النبى والذى كان قد عاد إلى مكة بعد خلاصه من الأسر رسالة إلى النبى (ﷺ) يبلغه فيها بخبر حملة قريش ، فبلغ رسوله المدينة بعد ثلاث ليال ، وبلغ المشركون مشارف المدينة عند ذى الحليفة فى عشرة أيام ، واتجهوا منها إلى شمال المدينة ، ونزلوا عند سفح جبل أحد فى بقعة بها الماء والكلأ ، فأرسل النبى (ﷺ) عيونه يستطلعون أحوال العدو بدقة، وفى يوم الجمعة تشاور مع صحابته فى المسجد وكان قد استدعى إلى هذه الجلسة أيضا عبد الله بن أبى رغم أنه لم يشاوره فى أى أمر من قبل ، فرأى عبد الله ضرورة البقاء بالمدينة لجذب القتال إلى الداخل ، وكان النبى (ﷺ) ميالا لهذا الرأى ، أما الآخرون فقد أصروا على الخروج إلى الصحراء للقتال ، فاتخذ النبى عدة الحرب ، فخجل الناس من حمل الرسول (ﷺ) على قبول رأيهم ، إلا أن النبى قال : " لا ينبغى لنبى أن يلبس لامته فيضعها حتى يقاتل " ، ثم خرج فى ألف من المسلمين ، وفى شوط عبد الله بن أبى عزم النبى على الرجوع فى ثلاثمئة من أتباعه ، وعزمت قبيلتا بنى سلمة وبنى حارثة لذلك على الرجوع ، لكن الله ثبتهم ، ووردت فى القرآن إشارة اليهما :

﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[1]، فواصل النبى (ﷺ) طريقه مع سبعمئة من أتباعه وجوادين فقط ومئة مقاتل يرتدون الدرع فبلغوا أحدا ليلا ، وفى الغداة اصطف الفريقان ، وأمر النبى خمسين من الرماة بقيادة عبد الله بن جبير بأن يصطفوا فى مواجهة فرسان العدو يصدونهم، وبدأ القتال رجلا لرجل كما هو معتاد آنذاك، ثم بدأ الفريقان فى الهجوم العام، فانتصر المسلمون فى مستهل الهجوم واخترقوا أعماق صفوف جيش العدو وأعملوا القتل فيهم، إلا أن الرماة خوفا من أن يخرجوا بلا نصيب فى الغنم تركوا مواقعهم، وبهذا سنحت الفرصة لفرسان العدو بقيادة خالد بن الوليد فأحاطوا بجيش المسلمين وتغيرت موازين الحرب ، وكان النبى (ﷺ) فى ذلك الوقت واقفا يرقب سير

(1) سورة آل عمران ، آية 122 ، المترجم .

القتال فى مقر قيادته برفقة عدد من حراسه ، فهاجم عدد من المشركين موقعه وجرحوا النبى وعلا الصياح بأن النبى قد قتل ، فلحقت الهزيمة بالمسلمين مرة واحدة ولاذ عدد من جندهم بالفرار من المعركة ، ولجأ النبى (ﷺ) مع من تبقى من أصحابه معه إلى واد ، واتجه أبو سفيان إلى المسلمين وصاح : " أعل هبل ، موعدنا العام القادم فى بدر " .

بدأ المشركون بعد ما حققوه من نصر فى الاستعداد للعودة ، وكان النبى (ﷺ) يخشى أن يغير المشركون على المدينة ، فأرسل من أتاه بنبأ أن المشركين حين اقتربوا من المدينة اختلفوا فى الرأى حول دخول المدينة ، وفى النهاية انصرفوا واتخذوا طريق مكة على ظهور الإبل ، فاطمأن المسلمون وبدأوا فى دفن قتلاهم ، فأتى النبى (ﷺ) على رؤوس القتلى وقال : " أنا شهيد على هؤلاء " ، وعزم البعض على نقل قتلاهم إلى المدينة ولكن النبى (ﷺ) منعهم ، فتم دفن كل اثنين أو ثلاثة من الشهداء فى قبر ، وكان عددهم أربعة وسبعين شهيدا ، أربعة من المهاجرين والباقين من الأنصار ، وبلغ عدد قتلى العدو عشرين قتيلا ، ومن شهداء أحد المشهورين حمزة " سيد الشهداء " عم النبى الذى استشهد بحربة غادرة من غلام جبير بن مطعم ، وحزن النبى (ﷺ) حزنا شديدا على موت حمزة وبكى ، وقبر حمزة معروف فى أحد وهو من المزارات ، ويروى أن عبد الله بن جحش مدفون فى نفس القبر .

وعاد النبى (ﷺ) إلى المدينة مع صحابته والنساء اللاتى جئن فى أثر شهدائهن ، وفى اليوم التالى أذن مؤذن النبى بأن كل من كان فى الحرب عليه اليوم أن يمضى بصحبة النبى لتعقب الأعداء ، فاحتشد الناس على ما بهم من جراح وإعياء وذهبوا مع النبى ، ويروى أن النبى كان يهدف من هذا التحرك إلى إلقاء الرعب فى قلوب الأعداء ولكى يعلموا أن المسلمين لا تزال قوتهم باقية ، ونزل الركب فى حمراء الأسد على مسير يوم من تحرك قريش منها ، فأوقدوا النار على التلال المحيطة وفى أماكن متفرقة لإيهام العدو بكثرة عددهم ، ثم عادوا إلى المدينة ، وفى الطريق سقط اثنان من جند العدو ضلا الطريق فى يد المسلمين ، وهما أبو عزة الشاعر ومعاوية بن المغيرة ، وتم قتلهما بأمر من النبى ، وتعرف هذه الواقعة بغزوة حمراء الأسد .

وفى أعقاب غزوة أحد انشغل النبى بمواساة المسلمين ، ونزلت آيات عديدة من بينها :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾[1]، وآية ﴿ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ﴾[2] وغيرهما كثير مما أورده ابن هشام، وفى هذه الآونة نزل حكم الإرث بصدد أبناء سعد بن الربيع الذين استولى أحدهم على ميراثهم،وفى هذه الآونة أيضا صدر الأمر بقتل حارث بن سويد الذى كان من منافقى المدينة لقتله أحد المسلمين يسمى مجذر فى يوم أحد بسبب قتله لأبى حارث فى الجاهلية، ومن وقائع العام الثالث بعد الهجرة أيضا ميلاد الحسن بن على.

العام الرابع بعد الهجرة :

بلغ النبى أن قبيلة بنى أسد تعتزم الهجوم على المدينة ، فأرسل النبى (ﷺ) أبا سلمة المخزومى على رأس مئة وخمسين جنديا (فى أول محرم من السنة الرابعة) ، وكان يسير ليلا ويختبىء نهارا بأمر من النبى إلى أن بلغ قطن (3) ، ففر الأعداء وعاد أبو سلمة بالغنائم والأسرى ، وكان أبو سلمة من جرحى أحد ، وفى الطريق انفتح جرحه وتوفى متأثرا به بعد فترة .

وفى الخامس من محرم أمر النبى عبد الله بن أنيس بقصد سفيان بن خالد اللحيانى شيخ قبيلة هذيل لذيوع خبر بأن سفيان ينوى تجريد جيش يهاجم به المسلمين ، فنزل عبد الله فى حى يقال له عرفة عند سفيان وقتله وعاد برأسه إلى المدينة،فمنحه النبى(ﷺ)عصا كجائزة.

وفى شهر صفر من ذلك العام وقع ستة من أصحاب النبى فى يد الكفار فى رجيع بالقرب من مكة، ويروى أنهم كانوا قد أوفدوا لتعليم الأعراب شئون دينهم وهم أعراب عضل وقارة ، وفى رجيع أغار عليهم اللحيانيون فقتلوا أربعة منهم واستسلم آخران وتم أسرهما وبيعا لقريش فى مكة، فقتلتهم قريش قصاصا لقتلاهم فى بدر، وتعرف هذه الحادثة بسرية رجيع .

---

(١) سورة آل عمران، آية 169، (المترجم). (٢) سورة آل عمران، آية 153. (المترجم).

(٣) قطن (بفتح الأول والثانى) جبل فى منطقة نجد فى لحد

وفى نفس الشهر وقعت حادثة أشد أثرا وهى حادثة بئر معونة ، كان الرسول (ص) قد أوفد أربعين من صحابته – وفى رواية سبعين – لدعوة قبيلة بنى عامر بناء على طلب من شيخ القبيلة ، وفى بئر معونة هاجمهم عامر بن الطفيل وجمع من بنى سليم وقتلهم جميعا عدا عمرو بن أمية الضمرى حيث وسم عامر على جبينه وسما طلبا للرحمة على أمه ثم أطلق سراحه ، وفى الطريق التقى عمرو باثنين من بنى عامر فقتلهما وعاد إلى المدينة ، وتألم النبى ألما عظيما لحادثة بئر معونة حتى أنه استنزل اللعنة على اللحيانيين وغيرهم من الأعراب بأسمائهم فى صلاة الصبح مدة شهر [1] ، وفى هذه الآونة أوفد بنو عامر رسولا إلى النبى يطالبون بدية العامريين اللذين قتلهما عمرو بن أمية بمقتضى المعاهدة التى عقدها النبى معهم، فأراد النبى (ﷺ) أن يأخذ هذه الدية من يهود بنى النضير لأنهم كانوا قد أبرموا معاهدة مماثلة مع بنى عامر، فذهب مع عدد من أصحابه إلى قلعة بنى النضير وجلس إلى جوار جدار بيت من بيوتها للتفاوض، وقبلوا اقتراح النبى ظاهريا، أما فى قلوبهم فقد اضمروا إلقاء حجر رحاة على رأسه من أعلى السطح، فأطلعه جبريل على ما اعتزموا، فعاد النبى إلى المدينة وأرسل إلى بنى النضير رسالة يأمرهم فيها بالرحيل عن أراضى النبى، فأذعن اليهود فى بادىء الأمر، إلا أنهم عادوا ورفضوا الرحيل بتحريض من عبد الله بن أبى، فخرج النبى مع صحابته مسلحين ومكبرين وعسكروا عند قلعة بنى النضير، وامتد الحصار خمسة عشر يوما إلى أن استسلموا، فاشترط عليهم أن يتركوا أموالهم ويرحلوا وأن يأخذ كل ثلاثة منهم حملا وحملا ماء، وتم إبعادهم إلى أذرعات الشام(فى صفر من السنة الرابعة)، وتم توزيع ممتلكاتهم بين المهاجرة، وتعرف هذه الواقعة بغزوة بنى النضير ، وفى هذه الغزوة نزل حكم تحريم الخمر.

وبعد شهرين خرج النبى (ﷺ) إلى نجد قاصدا بنى محارب وبنى ثعلبة من طوائف غطفان ، وفى حى ذات الرقاع وهو اسم جبل التقى الجمعان ، إلا أن الحرب لم تنشب بينهما وعاد النبى ، وفى هذه العزوة التى تعرف بذات الرقاع تقررت صلاة الخوف وأقيمت لأول مرة (فى جمادى الأولى من السنة الرابعة) .

وفى شهر شعبان ، وفى رواية الواقدى فى شهر ذى القعدة خرج النبى (ﷺ) إلى بدر للموعد الذى ضربه أبو سفيان يوم أحد ، وعلى الجانب الآخر خرج أبو سفيان ومعه أهل

---

(1) الخميس ، ج 1 ، ص 508

مكة إلا أنه تردد فى المضى عند مجنة حيث كان العام عام جفاف ، فعاد أدراجه ، وكانت هذه هى غزوة بدر الثالثة وتعد فى رأى البعض بدر الثانية .

وفى نفس هذا العام أمر النبى (ﷺ) زيد بن ثابت بأن يتعلم كتابة اليهود ، فقد كانت كتب [1] الرسول حتى ذلك الوقت يدونها له يهود ، وقال النبى "لا آمن أن يبدلوا كتابى"، وكان زيد بن ثابت شابا من الأنصار وكان قد تعلم الخط العربى من أحد أهل مكة تم أسره فى غزوة بدر ، وهو زيد الذى قام بجمع المصحف وتدوينه فى عهد عثمان .

وكان من أحداث هذا العام أيضا ميلاد الحسين بن على رضى الله عنه فى شهر شعبان، ووفاة فاطمة رضى الله عنها وزواج النبى من أم سلمة .

العام الخامس بعد الهجرة :

فى ربيع الأول من ذلك العام خرج النبى إلى غزوة دومة الجندل ، وكان هذا المكان بقعة على رأس الطريق التجارى بين الخليج العربى والبحر الأحمر وكان منزلا للقوافل ، وكان قد بلغ الرسول (ﷺ) خبر بأن ثمة جمعا قد احتشد بهذا المكان وينوون سوءا ، فخرج فى عدد كبير من أتباعه قاصدا دومة الجندل ، وظلوا يسيرون بالنهار ويكمنون بالليل ، ولكن كان الجمع قد لاذ بالفرار ووقع عدد من الأغنام فى أيدى المسلمين غنيمة ، وتكمن أهمية هذه الرحلة فى أن هذه المنطقة كانت تقع على حدود الشام ، فوقف أهلها على مدى قوة الإسلام إلى حد ما ، ثانيا تأكدت قدرة المسلمين على الوصول إلى بقاع نائية وصحارى شديدة الحرارة ، وفى العودة عقد النبى معاهدة عدم اعتداء مع قبيلة فزارة وأذن لهم برعى أغنامهم على أطراف المدينة فى ذلك العام الذى تميز بالجفاف .

وفى ذلك العام تزوج النبى(ﷺ) من زينب بنت جحش بعد أن طلقها زوجها زيد بن حارثة،وفى تلك الآونة نزلت آية الحجاب وتقررت الأحكام على النساء عامة وعلى أمهات

---

(1) ربما كان المقصود بذلك الرسائل التى كان النبى (ﷺ) يكتبها ليهود ، ويروى البلاذرى عن زيد بن ثابت أنه بعد أن تعلم كتابة اليهود قال " كنت اكتب له إلى اليهو د وإذا كتبوا إليه قرأ كتابهم " . (فتوح البلدان ، ص480) .

المؤمنين خاصة .

وفى شهر شعبان من نفس العام حدثت غزوة بنى المصطلق [1] ، وكان بنو المصطلق من قبائل خزاعة وكان الخزاعيون فى تلك الفترة على وفاق دائم مع النبى ، وإذا بنبأ يرد بأن بنى المصطلق قد احتشدوا ضد النبى ، فخرج النبى (ﷺ) قاصدا إليهم ومعه جيش المسلمين ، ونشبت الحرب عند بئر مريسيع قرب ساحل البحر الأحمر ، وكان النصر فيها للمسلمين وغنموا منها أموالا وأسرى .

تروى عن هذه الحرب عدة وقائع ، منها أن نزاعا قد وقع يوما بين أجير لعمر بن الخطاب وأحد موالى الخزرج ، فاستصرخ هذا معشر المهاجرين واستنجد ذاك بالأنصار ، فغضب عبد الله بن أبى وأغلظ القول للإسلام والمسلمين فى حضور جمع من قومه (الخزرج) . فقام شاب يسمى زيد بن أرقم كان من حضور المجلس بإبلاغ النبى بما جرى ، وكان عمر عند النبى فقال : " يا رسول الله مر عباد بن بشر بقتله " ، إلا أن عبد الله بن أبى جاء بنفسه إلى النبى وكذب زيد بن أرقم وتشفع له الأنصار ، فأمر النبى (ﷺ) الجيش بالرحيل مع أن ساعة الرحيل لم تكن قد حانت بعد حتى يحتوى الأزمة ، ثم نزلت الآية { إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ . . . } المنافقون ، اية [1] واسترضى النبى زيدا .

وفى طريق العودة إلى المدينة أتت جويرية بنت الحارث شيخ بنى المصطلق وكانت ضمن غنائم أحد المسلمين إلى النبى تطلب عونه ، فأشتراها النبى من صاحبها وتزوجها ، وعلى أثر هذه الزيجة أطلق المسلمون سراح مائة أسرة من أسرى بنى المصطلق بحكم كونهم من أصهار النبى [2]

وفى تلك الغزوة أيضا حدثت قصة الإفك ، وعند العودة إلى المدينة نزل الجيش عند ذات الجيش بالقرب من المدينة وأمضى جزءا من الليل،ثم تحرك الجيش، وكان النبى(ﷺ)

---

(1) يرى كل من الطبرى وابن هشام أن هذه الغزوة وقعت فى العام السادس ، إلا أن الواقدى وغيره كثيرين يعتبرونها من أحداث العام الخامس ، ويرى البعض أنها وقعت فى العام الرابع وهو ما يخالف رأى جمهور المؤرخين ويثير مشكلات تاريخية ، انظر إمتاع الأسماع ، ج 1 ، ص 214

(2) الطبرى ، ج 3 ، ص 46

في أسفاره يصطحب بعض زوجاته بحكم القرعة ، وفي تلك السفرة كان يصطحب عائشة، وكان التقليد يقضي بأن يوضع هودج النساء والأستار مسدلة عليه عند باب خيمة النساء وقت التحرك ، فتجلس فيه المرأة ثم يأتي بعض الأفراد ويحملونه ، فوضع الهودج عند باب خيمة عائشة عند التحرك كما هو معمول به وأسدلت عليه الستر ورفع على ظهر الجمل ، وعندما بلغ الجيش منزلا كان الهودج خاليا ، وبعد حين أتت عائشة على ظهر جمل في مؤخرة القافلة وكان صحابي يسمى صفوان ممسكا بلجام الجمل ، وانتشر الخبر في الجيش ، ولم تسلم عائشة من طعن المنافقين بل ومن عدد كبير من المسلمين أيضا ، وتقول عائشة نفسها عن هذه الحادثة : " عندما توقف الجيش ذهبت لقضاء حاجتي ، فضاعت قلادتي فتأخرت حتى أجدها ، وحين عدت إلى الركب كانت القافلة قد شدت رحالها ، وفي ذلك الوقت أتى صفوان وكان قد تخلف عن الركب لحاجة له ، فحملني على جمل وأتى بي إلى منزل القافلة " ، وتألم الرسول (ﷺ) ألما شديدا لهذه الحادثة ، فهجر عائشة حينا إلى أن تلقى وحيا ببراءتها وتوبيخ من اتهموها ظلما ، فجاء النبي (ﷺ) بالبشرى لعائشة وأجرى الحد على أربعة ممن اتهموها ، وتقرر في هذه الآية حكم لزوم أربعة شهود في دعوى الزنا ضمن هذه الآيات .

وفي شوال من ذلك العام وقعت غزوة الخندق التي يطلق عليها أيضا غزوة الأحزاب ، وذهب عدد من يهود بني النضير المستبعدين ممن كانوا يسكنون بخيبر إلى قريش وقبيلة غطفان وحرضوهم على محاربة النبي ، فاتحدت الطائفتان واستندوا إلى حلفائهم وحشدوا ما لا يقل عن عشرة آلاف رجل للهجوم على المدينة ، فبلغ الخبر النبي ، فبدأ في تعبئة الجيش وأمر بحفر خندق حسبما ارتأى سلمان الفارسي وكانت المدينة تتمتع بمنعة طبيعية من ثلاثة جوانب بالبيوت والنخيل، ولم تكن مكشوفة إلا من طرفها الجنوبي الغربي ، فتم حفر الخندق هناك ، وكان أحد طرفيه متجها إلى المدينة والطرف الآخر إلى جبل سلع ، وتم توزيع العمل على الطوائف ، فأخذت الفؤوس والمعاول من يهود بني قريظة ، وسار العمل بجدية تامة ، وكان النبي (ﷺ) يشارك في العمل إضافة إلى تشجيعه المعنوي لرفاقه ، وكان يردد معهم أغانيهم التي كانوا يترنمون بها في عملهم ، ورأى ذات يوم في الشرار المتولد من اصطدام المعاول بالأحجار ما تحمله الأيام التالية من فتوح للإسلام ، وبهذا تم إعداد الخندق في غضون ستة أيام رغم أنها كانت سنة جفاف عانى الناس فيها

من نقص فى الأرزاق ، وعندما وصل الكفار وجدوا أنفسهم فى مواجهة إجراء عسكرى لا سابقة له عند العرب .

أمر النبى (ﷺ) جيشه بالتمركز على طول الخندق واقيمت له قبة من الجلد الأحمر ، وأقامت النساء فى أبراج حصينة ، وتم تعيين عدد من الحراس بالمدينة للحيلولة دون وقوع أية فتنة محتملة ، كما وقف عدد آخر لحراسة النبى وعدد آخر لدعم المناطق الضعيفة من الخندق ، وعسكر الفريقان على حانبى الخندق فى المواجهة ولم تحدث سوى بعض المناوشات بالسهام والحجارة ، وذات يوم تمكن عمرو بن عبدود وعكرمة بن أبى جهل ومعهما عدد آخر من عبور إحدى النقاط الضعيفة من الخندق ، وسارع المسلمون لصدهم ، فقتل على رضى الله عنه عمرو وفرق رفاقه ، وفى اليوم التالى قام الكفار بشن هجوم مكثف حتى تعرضت قبة النبى للخطر ، إلا أن شجاعة المسلمين ومهارة الرماة على وجه الخصوص مكنتهم من صد الحملة ، واستمر القتال فى ذلك اليوم حتى المساء وفاتت أوقات آداء الصلاة وقد حمعها الرسول (ﷺ) فيما بعد وصلاها بهم قضاء ، وكانت هذه أول مرة تقام فيها الصلاة قضاء ، وقتل فى هذه المعركة ثلاثة من الكفار واستشهد خمسة من المسلمين ، وأصيب سعد بن معاذ شيخ الأوس بجرح توفى متأثرا به بعد حين .

يروى عن أم سلمة قولها . " كانت غزوة الخندق أصعب الغزوات وأشقها " ، وكان من مصاعبها الكبرى أن يهود بنى قريظة وقفوا إلى حانب الكفار فيها بتحريض من حيى بن أخطب ، وطلب الرسول (ﷺ) من نعيم بن مسعود الذى كان من قادة قبيلة غطفان ووقف على الحياد فى هذه المعركة أن يحدث الفرقة فى صفوف القوم وقال له : " إنما أنت فينا رحل واحد ، مخذل عنا إن استطعت فان الحرب خدعة " ، فذهب نعيم الذى كان يتظاهر بالحيدة مع كل الأطراف ، وأحدث الوقيعة بين بنى قريظة وقريش وغطفان بخدعة ماكرة بحيث صار كل منهم يخشى الآخر . ومن ناحية أخرى ، دخل شيوخ غطفان فى مفاوضات منفصلة مع النبى بعيدا عن قريش على أن يحصلوا على ثلث محصول نخيل المدينة ويرحلوا ، إلا أن شيخ الأنصار سعد بن عبادة الخزرجى وسعد بن معاذ الأوسى لم يوافقا على هذا الشرط وفضلا خوض الحرب ، وأصبح معلوما أن الأنصار لا يرضون بالتخاذل ، وحاء الحل من الغيب ، فهبت ريح عاتية وتساقط المطر وعمت برودة شديدة لدرجة تعذر معها إيقاد النار وبناء التحصينات من حانب الكفار ، فأعلن أبو سفيان تراجعه وركب

جمله ومضى وتبعه الآخرون ، وفى اليوم التالى عاد النبى (ﷺ) مع المسلمين إلى المدينة ، وهكذا فض الاشتباك بين الجيشين بعد خمسة عشر يوما من المواجهة ، إلا أن نتيجة المواجهة بالنسبة للإسلام كانت كبيرة وهامة ، فقد أضحى ضعف قريش وقوة المسلمين واضحا أكثر من ذى قبل فى الداخل والخارج ، فعلت همة المسلمين وتخاذلت قوى الكفار ، وكانت موقعة الخندق إرهاصا بالانتصار النهائى للإسلام . لذا ، فقد قال الرسول ، (ﷺ) ، فى طريق العودة من الخندق : " الآن نغزوهم ولا يغزونا " .

وفى عودته إلى المدينة أمر الرسول (ﷺ) بإقامة خيمة فى المسجد لسعد بن معاذ الذى كان جريحا وأقام بها تحت الرعاية ، وما كاد النبى (ﷺ) يضع عنه سلاحه حتى تنزل عليه جبريل وأنبأه بأن الملائكة لم تضع سلاحها وبأنه يجب أن يخرج لملاقاة بنى قريظة، فأصدر النبى أمره بالتحرك على الفور ، وعسكر الناس تحت قلعة بنى قريظة حتى صلاة العشاء ، واستمر حصار القلعة مدة خمسة وعشرين يوما وفى إحدى الروايات شهر، وطلب منهم أن يذعنوا لحكم النبى لكنهم امتنعوا ، وكانوا يعرفون جرمهم ، وكان أبو لبابة[1] الذى كان وسيطا فى التفاوض قد أنبأهم عن طريق الإشارة أن حكم النبى يقضى بقتلهم ، وكان الأوس الذين كانوا حلفاء بنى قريظة يتوقعون اتخاذ إجراء تجاه يهودهم يماثل ما اتخذ تجاه اليهود حلفاء الخزرج (يهود بنى قينقاع) ، أى النفى ، واستقر الأمر على تحكيم سعد بن معاذ زعيم الأوس ، فأتوا بسعد من المدينة رغم ما به من مرض ، وكان حكمه على غير ما توقعه اليهود والأوس ، فقد حكم بقتل رجالهم وأسر من تبقى منهم واقتسام أموالهم ، فجيء باليهود إلى المدينة مقيدين ونفذ فيهم حكم سعد،ويروى أن قتلاهم بلغوا ما بين ستمئة وتسعمئة ، ولم يقتل من نسائهم سوى امرأة واحدة كانت قد قتلت مسلما بحجر ، وفى تقسيم أموالهم حصل كل فارس على ثلاثة أسهم وكل راجل على سهم واحد ، وكانت هذه أول مرة يتقرر فيها الفارق بين الراكب والراجل[2]، ومن بين الأسرى اختار النبى (ﷺ) فتاة تسمى ريحانة كأمة له، ولما ظلت على غير الإسلام فقد بقيت أمة حتى آخر حياتها، وتم نقل عدد من الأسرى إلى نجد حيث تم بيعهم واستخدم ثمنهم فى شراء الجياد والسلاح ، وفى هذه الواقعة لم يقتل من المسلمين سوى

---

(1) كان أبو لبابة من الأوس (حلفاء بنى قريظة) ومن نقباء بيعة العقبة الاثنى عشر، (المؤلف) .

(2) أى الفرسان والمشاة ، (المترجم) .

فرد واحد ، وتمت إعادة سعد بن معاذ إلى خيمته بالمسجد ، لكن جرحه انفجر وما كاد حتى مات ، وتألم النبى (ﷺ) وصحابته لوفاة زعيم الأوس الوفى ، أما أبو لبابة الذى خان النبى فى تفاوضه مع اليهود فقد أمر بالمثول فى المسجد وتم تقييده إلى حجر إلى أن نزلت آية وقبلت توبته .

وفى تلك السنة أجريت مسابقة خيول فى المدينة بأمر من الرسول (ﷺ) ، فتقررت مسافة محددة للجياد المضمرة (خيول الركض) ومسافة أقل للحياد غير المضمرة ، وكان من المشاركين فى هذه المسابقة عبد الله بن عمر .

العام السادس بعد الهجرة :

ارتفعت فى هذا العام درجة النشاط العسكرى ، فكانت فرق الجيش فى حركة دائبة بين صد القبائل المعتدية وتعقب اللصوص والاستيلاء على قوافل قريش ، كما ازداد عدد الفرسان فى الجيش بدرجة ملموسة .

وفى شهر محرم نزل محمد بن مسلمة ومعه ثلاثون فارسا فى حى يقال له ضربة (بين البصرة ومكة) وفاجأوا قبيلة القرطاء فقتلوا عددا منها وفر الباقون ، وعاد المسلمون إلى المدينة وقد غنموا خمسين من الإبل وثلاثة آلاف من الأغنام ، وفى الطريق التقوا عابرا من بنى حنيفة فأسروه وأخذوه معهم إلى المدينة وقيدوه إلى عمود المسجد ، فتعرف عليه النبى (ﷺ) ، وكان ثمامة بن أنال شيخ اليمامة ، فأكرم ضيافته فأسلم وعاد إلى قومه، وامتنع من بعد عن توريد القمح إلى مكة ردا لإحسان النبى إليه ، إلى أن عانت قريش فاشتكت إلى السى (ﷺ) حتى أذن بإعادة توريد القمح إليها .

وفى ربيع الأول أو جمادى الأولى خرج النبى (ﷺ) من المدينة قاصدا بنى لحيان لمعاقبتهم على قتل المسلمين فى سرية رجيع (العام الرابع بعد الهحرة) ، وبهدف ضمان مباغتتهم اتجه صوب الشام أولا وبعد قطع مسافة من الطريق حاد عنه واتجه بسرعة إلى غران التى كانت سكن بني لحيان ، ولكن القوم كانوا قد فروا إلى الجبال ، فبقى النبى (ﷺ) بها يوما أو يومين ودعا لشهداء رجيع ، ثم اتجه إلى عسفان ومعه مئتان من

الفرسان بغرض ردع أهل مكة ، وأرسل عددا منهم إلى كراع الغميم ثم عاد إلى المدينة .

وفى هذه الأثناء هاجمت المدينة جماعة من بنى فزارة واختطفوا عددا من النوق من القطيع الخاص بالنبى وكان يرعى فى غابة ، فحشد النبى المسلمين معلنا " الفزع " وعبأ جيشا فى ذى قرد وجرده لتعقب اللصوص ، واسترد الجيش النوق بعد أن قتل أحد أفراده، ويطلق البعض على هذه الغزوة اسم غزوة غابة فى حين يذكرها البعض باسم غزوة ذى قرد ، وذكر البعض تاريخها فى أعقاب الحديبية التى سيرد الحديث عنها لاحقا .

وفى ربيع الأول صدر الأمر لعكاشة بن محصن بأن يهبط على بنى أسد مع أربعين رجلا فى حى غمر ، ولكن ما أن بلغوا المكان حتى لاذ القوم بالفرار ، فعاد المسلمون إلى المدينة غانمين مئة من الإبل .

وكانت قبائل غطفان قد نزلت على مشارف المدينة بغرض الرعى وتعرضت قطعان المسلمين للخطر ، فصدر الأمر لمحمد بن مسلمة وعشرة معه بالخروج لاستطلاع الأمر ، وفى حى ذى القصة وقعت هذه الفرقة فريسة فى يد أعراب بنى ثعلبة وقتل كل أفرادها سوى محمد بن مسلمة الذى سقط جريحا فوجده أحد المسلمين وحمله إلى المدينة ، فأرسل النبى (ﷺ) أبا عبيدة بن الجراح ومعه أربعين رجلا فى أعقاب بنى ثعلبة ، فلاذ الأعراب بالجبال ، فغنم المسلمون عددا من الإبل والأغنام .

وفى جمادى الأولى كانت قافلة قريش فى طريقها إلى الشام على الطريق الساحلى ، فهاجمها زيد بن حارثة فى حى العيص فاستولى على كمية كبيرة من الفضة وعدد من الأسرى ، وكان من بين الأسرى أبو العاص ابن أخ خديجة ، وكان أبو العاص هذا قد وقع أسيرا فى غزوة بدر ثم أطلق النبى سراحه بشرط أن يرسل زينب امرأته إلى النبى بعد بلوغه مكة ، فأرسلها إلى المدينة برفقة أخيه كنانة ، وعندما وقع فى الأسر هذه المرة أتى به إلى المدينة فأمنته زينب ، فأطلق المسلمون سراحه إكراما لابنة النبى ، فعاد إلى مكة وجمع ماله وأقفل عائدا إلى المدينة حيث دخل الإسلام وتزوج زينب بنت النبى بعقد جديد ، إلا أن زينب كانت قد أصيبت من قريش عند الهجرة من مكة بعد سقوطها من فوق الجمل على أثر ضربة رمح وجهت إليه ، وقد أجهضت على أثر سقوطها وظلت تعانى المرض إلى أن توفيت بعد ذلك بعام ، وعلى أثر موتها أصدر النبى (ﷺ) أمره بحرق من أصابوها

حيثما وجدوا ، لكنه أمر فى اليوم التالى بقتلهم بالسيف تخفيفا إذ " لا يحرق بالنار إلا رب النار " .

وفى جمادى الأخرى وقعت سرية حسمى ، كان دحية الكلبى عائدا من عند قيصر الروم إلى المدينة ، وكان محملا بأموال من هبات القصر أو بتجارة له حسب روايات أخرى ، وفى منطقة حسمى أغار عليه أعرابى يسمى هنيد من قبيلة جذام واستولى على ماله ، فهبت قبيلة جذام التى كانت كلها من المسلمين وترتبط مع النبى بعهد لنصرة دحية واسترداد أمواله من قاطع الطريق ، إلا أن دحية جاء إلى النبى وطالب بدم السارق ، فأمر النبى (ص) زيد بن حارثة بالخروج مع خمسمئة آخرين ، وفى الصباح هاجموا قبيلة جذام وأعملوا فيها القتل والغارة واستولوا على ألف من الإبل وخمسة آلاف من الغنم وأسروا مئة امرأة وطفل ، فأسرع شيخ بن جذام إلى المدينة ، وفى المسجد رفع المعاهدة فى يده وطالب بالقصاص،فقال النبى(ﷺ)وماذا أنا فاعل فى القتلى؟،فتنازل الشيخ عن دم القتلى واستقر الأمر على أن يسترد أسراه وأموال قومه ، فأرسل النبى عليا رضى الله عنه بعلامة منه(سيفه الخاص)إلى زيد يأمره برد ما تم الاستيلاء عليه من أموال وأسرى .

وفى شعبان أوفد النبى (ﷺ) عبد الرحمن بن عوف ومعه سبعمئة رجل إلى بنى كلب بدومة الجندل لدعوتهم إلى الإسلام ، وأوصاه إذا قبل القوم دعوته بأن يتخذ من ابنة شيخهم زوجة له ، وقال فى أمر الحرب : " قاتلوا من كفر بالله ، لا تغلوا ولا تعذروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا فهذا عهد الله وسيرة نبيه فيكم " ، فظل عبد الرحمن فى دومة الجندل ثلاثة أيام ، فأسلم شيخ القبيلة وعدد من قومه وفرضت الجزية على الباقين ، وعاد عبد الرحمن ومعه ابنة الشيخ .

وفى شعبان ذهب رضى الله عنه مع مئة من المسلمين إلى قبيلة بنى سعد التى كانت تنزل ما بين فدك وخيبر ، ففر القوم واستولى المسلمون على خمسمئة من الإبل وعشرة آلاف من الأغنام غنيمة لهم .

وكان زيد بن حارثة قد مضى إلى الشام ومعه تجارة عدد من الصحابة ، فأغارت عليه طائفة من بنى فزارة وجردوه مما معه ، وعندما أتى إلى المدينة أعاده النبى (ﷺ) مع جيش لمعاقبة القوم (وكان ذلك فى رمضان) ، فبلغ زيد منزل القوم عند الفجر وقبض

على أم قرفة التى كانت بمثابة " ملكة " على قومها فقتلها وطاف برأسها فى المدينة ، وكانت قريش تعتبرها لا تهزم من فرط قوتها [1] .

وفى رمضان أيضا خرج عبد الله بن أنيس فى عدد من القوات ليلا على أبى رافع التاجر اليهودى الذى كان يقيم بخيبر فقتله ، يرى البعض أن هذه الواقعة حدثت فى العام الثالث بعد الهجرة ، وبعد مصرع أبى رافع اختار يهود خيبر رجلا يسمى أسير (أو يسير) بن رزام [2] زعيما عليهم ، وترددت أنباء عن تآمره ضد الإسلام مع قبيلة غطفان، فذهب عبد الله بن رواحة فى البداية لتقصى حقيقة النبأ ومعه ثلاثة من رفاقه ، وذهب مرة أخرى إلى أسير مع ثلاثين رجلا وأوهمه بأن النبى يود لقاءه لتوليته إمارة خيبر ، فخرج من داره، وفى الطريق قتله ومعه ثلاثين من قومه .

وفى هذه الأثناء أتى إلى المدينة عدد من عرب بنى عرينة وأعلنوا إسلامهم وأقاموا بها، إلا أنهم سرعان ما اشتكوا من عدم ملائمة مناخ المدينة لهم، فأرسلهم النبى(ﷺ) بقطيعه الخاص إلى البوادى حتى يستردوا صحتهم بلبن الإبل ومناخ البادية، وذات يوم تعرض رعاة النبى للقتل وفى رواية قطعت أيديهم وأرجلهم وذر الشوك فى أعينهم واختطف القطيع، فأرسل النبى(ﷺ)كرز بن جابر الفهرى ومعه عشرون رجلا لتعقب الجناة، فعادوا بهم مسلسلين من غابة إلى النبى الذى أمر بقطع أيديهم وأرجلهم ثم شنقهم (جمادى الآخرة أو شوال) ، فنزلت الآية: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾[3]

يرى البعض أن سرية مينا وقعت فى هذا العام ، فى حين يرى البعض أنها كانت فى العام الثالث ، يروى أن زيد بن حارثة خرج فى سرية إلى مدين وعاد بأسرى من مينا التى تقع على ساحل البحر وأول حدود مصر ، ثم عرضهم أصحابهم فى سوق المدينة للبيع بعد فصل الأمهات عن أطفالهن ، فبلغ النبى بكاء الأسرى ، فأمر بعد أن تحقق من أمرهم ألا يتم بيعهن إلا مع أطفالهن .

أمر النبى (ﷺ) عمرو بن أمية الضمرى بالذهاب إلى مكة لقتل أبى سفيان ، يروى

---

(1) ابن هشام المختصر ، الطبرى وابن سعد والإمتاع المفصل .

(2) ورد الاسم فى بعض الكتب رازم ورزام (3) سورة المائدة ، آية 33

أن أبا سفيان كان البادىء فى هذا مع النبى وكان قد أوفد أعرابيا إلى المدينة لقتل النبى إلا أن أمره انكشف قبل تنفيذ ما أوفد لأجله ، ولهذا كان أمر النبى لعمرو ، كان عمرو هذا قد تكرر ذكر اسمه فى تاريخ الإسلام مقترنا بالذكاء وسعة الحيلة وكان فى الجاهلية من رجال العرب الأشداء المعروفين . لذا، فقد تعرف عليه الناس حين دخل مكة فلاذوا بالفرار، وقد ضحك النبى (ﷺ) حين قص عليه عمرو قصته هناك .

وفى نفس هذا العام أتى المدينة عشرة من قبيلة بنى عبس وأعلنوا إسلامهم ، وكانت بنو عبس قبيلة صغيرة إلا أنها عرفت بالشدة فى الحرب .

وهكذا، فى أواخر ذلك العام امتدت قوة الإسلام لتشمل شمال شبه الجزيرة العربية، فخضعت قبائل البدو بها ، فأسلم بعضها وقبل البعض الآخر بدفع الجزية، وبقيت مكة نقطة المقاومة الوحيدة بالفعل، وفى ذى القعدة من ذلك العام فكر الرسول(ﷺ) فى السفر إلى مكة لأداء العمرة، كما رأى فى منامه أنه دخل مكة وأزال الأصنام من داخل الكعبة، فأطلع صحابته على ما اعتزمه وما رآه فى منامه، وكان أصحابه أيضا قد حرموا الحج لسنوات عديدة وكانوا فى شوق لزيارة الكعبة،فأعدوا العدة للسفر،وأمر النبى(ﷺ) الأعراب عند أطراف المدينة بالانضمام إلى الركب، إلا أن كثيرا منهم اختلقوا الأعذار، ولم تنضم إلى الركب سوى قبيلة بنى أسلم،وصاروا منذ ذلك الحين يعدون ضمن المهاجرين.

ثم ترك النبى عبد الله بن أم مكتوم مكانه فى المدينة وخرج فى ألف وأربعمئة (وفى رواية سبعمئة) من أتباعه ومئة ونيف من الإبل للأضحية ، وفى ذى الحليفة أحرموا ومضوا إلى مكة منها ملبين ، ولم يصطحب النبى (ﷺ) من أمهات المؤمنين فى تلك السفرة سوى أم سلمة ، وعزمت قريش على المقاومة ومنع النبى من دخول مكة ، وأقامت معسكرا لجيوشها بذى طوى ومعها عدد من الفرسان فى المقدمة بقيادة خالد بن الوليد وعكرمة بن أبى جهل ، فجاء بشر بن سفيان الكعبى بالأنباء إلى النبى فى عسفان وقال : " هذه قريش قد ارتدت جلود الفهود وخرجت بنسائها وأطفالها " ، فتأسف النبى (ﷺ) لعناد قريش وصلفها ، ولما كان لا ينوى القتال فقد عرج إلى الطرف الأدنى من مكة وبلغ الحديبية (قرب مكة) ، وبركت ناقته بها ، فقال الرسول (ﷺ) : " حبسها حابس الفيل، والذى نفسى بيده لا تدعونى قريش إلى خطة يعظمون فيها حرمات الله وفيها

صلة الرحم إلا أعطيتهم " ، ثم قال لبديل بن ورقاء الخزاعى الذى كان قد جاء من مكة لرؤية النبى : " لم نأت لقتال ، إنما لزيارة الكعبة ، ولا ننوى هتك حرمة بيت الله ولا قتل أهلنا " ، وقال أيضا :" لقد أنهكت الحرب قريشا ، فإن شاءوا تركناهم مدة على أن يتركونى وسائر العرب ، وإن شاءوا سلكوا السبيل الذى سلكه الناس (أى الإسلام) ، وإن امتنعت عن كلا الأمرين فإنى أقاتلهم بما فى يدى على هذا الأمر " ، فعاد بديل إلى قريش وقص عليهم ما كان من النبى ، فثارت ثائرة سفهاء القوم ، وأما عقلاؤهم وأهل الرأى فيهم فقد أصغوا إلى ما قال الرسول (ص) واستمروا فى إرسال سفرائهم بهدف استمرار التفاوض ومزيد من تقصى الأمور ، وكان السفراء يطلعون قريشا على ما رأوا من عظم جيش المسلمين ، إلا أن عامتهم كانوا لا ينصتون ولا يقبلون نداء السلام ، وفى النهاية انشقت صفوفهم إلى فريقين ، فأرسل النبى (ص) عثمان لما له من مكانة لدى قريش رسولا إليهم ، ولم يلبث أن شاع الخبر بأن عثمان قتل ، فعزم النبى عزما حاسما على الحرب ، فجمع أصحابه وأخذ منهم البيعة التى سميت ببيعة الشجرة لأنها عقدت تحت شجرة سنط ، إلا أن عثمان عاد ومعه سهيل بن عمرو من طرف قريش لعقد الصلح مع النبى ، فتم إبرام معاهدة هدنة لمدة عشر سنوات ، وتضمنت المعاهدة شرطا بأن كل من يذهب دون إذن من وليه من جانب قريش يجب إعادته ، وأن كل من يأتى إلى قريش من المسلمين لا يسترد ، كما تركت الحرية لقبائل العرب فى الانضمام إلى قريش أو المسلمين وأن يصرف النبى النظر عن دخول مكة فى ذلك العام ويرجئه إلى العام التالى .

وعلى أثر عقد الصلح أمر النبى(ﷺ)الناس بإعداد الأضاحى وحلق الرؤوس للاعتمار، لكن الناس كانوا قد خرجوا من المدينة وفى خاطرهم فتح مكة فثاروا على هذه المعاهدة و " كادوا أن يهلكوا" كما يقول أحد المؤرخين، وأبوا الحلق والنحر إلى أن بادر النبى (ﷺ) بذلك ، فلم يدركوا الأهمية الحقيقية لهذا الصلح الذى كان يحق فتحا جليلا إلا حين نزلت الآية : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾(الفتح، آية ١)، وكانت واقعة الحديبية كما وجه إليها المؤرخون اهتمامهم من اكبر فتوح الاسلام، فيقول الزهرى أن الناس ازدادوا تقاربا على أثر هذا الصلح وتلقوا دعوة الإسلام دون حائل يمنعهم عنه،فمالت إليه قلوب أعداد توازى أعداد من دخلوه فى الأعوام السابقة بل وزيادة.

وبعد عودة النبى إلى المدينة عاد إليها مسلم يسمى أبا بصير كان قد فر من سجن

قريش فطالبت به قريش بمقتضى المعاهدة ، فتم إرسال أبى بصير ، إلا أنه فى الطريق تتل رسل قريش وأفل عائدا إلى المدينة ومنها رحل إلى ساحل البحر إلى مكان يقال له عيص ، فانضم إليه عدد آخر من مسلمى مكة وأخذوا يغيرون على قوافل قريش إلى أن ضاقت قريش بهم ذرعا ، فطلبوا من النبى أن يستدعى أبا بصير إليه ، وتم إلغاء شرط استرداد الفارين .

وفى هذا العام تقرر حكم الإظهار فى قضية أوس بن الصامت الذى طلق امرأته خولة طبقا للعرف الجاهلى فاشتكت امرأته ثم نزلت الآية وتقررت الكفارة .

العام السابع بعد الهجرة :

فى أوائل ذلك العام بدأ النبى (ﷺ) فى دعوة ملوك الأمم المجاورة وزعمائها [1] ، ويلغ النبى أن هناك تقليدا متبعا بين الملوك بألا يقبلوا أية رسالة غير مهورة ، فأمر النبى بأن يصنع له خاتم من الفضة نقشت عليه عبارة " محمد رسول الله " على ثلاثة أسطر ، وتم ختم الرسائل به .

حمل دحية الكلبى رسالة امبراطور الروم الشرقية إلى والى البصرة الذى أرسلها بدوره إلى الامبراطور وكان فى ذلك الوقت فى زيارة لبيت المقدس بالشام، ويذكر بعض المؤرخين أن الامبراطور كان يبطن الإسلام إلا أنه لم يجرؤ على إظهاره خوفا من قومه [2] .

وحمل رسالة ملك الفرس عبد الله بن حذافة السهمى ، وكما هو معروف قام ملك فارس خسرو برويز بتمزيق الرسالة وأفحش القول للنبى إلى أن انقطع ملكه ، أما المقوقس حاكم مصر فقد تلقى رسالة النبى بكل احترام ولو أنه لم يسلم، وأرسل إليه الهدايا ومنها جاريتين قبطيتين إحداهما مارية التى اتخذها النبى لنفسه والأخرى شيرين التى وهبها لحسان بن ثابت ، ونقل عمرو بن أمية الضمرى رسالة لنجاشى الحبشة ، ويروى أن ملك

---

(1) يرجع بعض المؤرخين هذه المراسلات إلى العام السادس الهجرى ومن بينهم الطبرى،ويجمع آخرون بين الرأيين فيقولون بأنها كانت فى أواخر العام السادس وان الرد عليها تم فى بدايات العام السابع

(2) الخميس ، ج2 ، ص 38

الحبشة أعلن إسلامه وأوفد ولده مع عدد آخر من قومه إعلانا للولاء إلى المدينة ، إلا أن الوفد لم يبلغ مقصده حيث غرق أفراده فى البحر ، ويرد فى التاريخ ذكرلرسالة ثانية أرسلها الرسول (ﷺ) إلى النجاشى يأمر فيها بإرسال جعفر بن أبى طالب وبقية المسلمين لديه إلى النبى وأن يزوجه أم حبيبة ابنة أبى سفيان التى كانت بالحبشة ومات عنها زوجها ، ولبى النجاشى المطلبين وعاد المهاجرون بعد حين إلى المدينة .

وأرسلت رسالة للأمير الغسانى الحارث بن أبى شمر ، فأرسل الأخير تقريرا بالموضوع إلى امبراطور الروم ، وطلب الإذن له بالخروج لمحاربة النبى ، إلا أن الامبراطور أمره بالتزام الصمت ، فأنعم الحارث على حامل الرسالة وأعاده سالما [1] .

وكانت الرسالة السادسة خطابا إلى هوذة بن على الحنفى أمير اليمامة ، فأكرم هوذة وفادة الرسول لكنه كتب فى رده أنه قد يعلن إسلامه إذا ما أشركه النبى فى إدارة الدولة، فقال النبى (ﷺ) " لو سألنى سيابة من الأرض ما فعلت ، باد وباد ملكه " ، ومات هوذة فى العام التالى .

وفى العام السابع حدثت غزوة خيبر ، وكانت خيبر منطقة يقطنها يهود ، وتضم قلاعا عديدة وحدائق نخيل وقطعان ومالا وفيرا ، وكان الله قد وعد المسلمين هذا الفتح فى الحديبية فى قوله تعالى [وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فجعل لكم هذه] [2] .

خرج النبى (ﷺ) من المدينة فى محرم وفى رواية فى جمادى الأولى ومعه ألف وستمئة رجل منهم مئتا فارس ، ولم يكن مسموحا لمن اقتصرت أهدافهم على الغنائم بالمشاركة فى هذه الحملة ، كانت المسافة بين المدينة وخيبر نيفا وثلاثين فرسخا تقطع مع السرعة فى ثلاثة منازل . وفى وادى رجيع الذى يقع بين خيبر ومنازل غطفان نزل الركب ، إذ لم يتمكن الغطفانيون من تقديم العون لحلفائهم ، فعادوا إلى ديارهم خوفا بعد أن كانوا قد قطعوا مسافة من الطريق باتجاه خيبر .

---

(1) الخميس ، (نقلا عن الواقدى) ، ج2 ، ص 42

(2) سورة الفتح ، آية 20 ، (المترجم) .

وتوالت فتوحات قلاع خيبر واحدة بعد الأخرى ، ولم تستعص سوى قلعة قموص ، ويبدو أن قصة قتال على بن أبى طالب رضى الله عنه ومرحب التى اشتهرت وورد ذكرها لدى كل المؤرخين قد حدثت عند هذه القلعة ، يروى عن بريدة الأسلمى أن النبى (ﷺ) كان يصاب فى بعض الأحيان بصداع شقى يدوم يوما أو يومين ، فكان النبى يلزم داره ، وفاجأه هذا الصداع فى أيام خيبر ، فحمل أبو بكر راية النبى ومضى إلى القتال ، ولكن لم يحدث أى تقدم ، فمضى عمر فى اليوم التالى وعاد بدوره دون تحقيق تقدم ، وبلغ النبى النبأ فقال : " غدا أعطى الراية لرجل يحبه الله ورسوله ويحبهما " ، وفى اليوم التالى سلم الراية لعلى بن أبى طالب وأرسله للحرب ، فخرج لمقاتلة محارب يسمى مرحب يرى ابن هشام أنه كان حميريا ، فقتله على ثم اتخذ لوحا يروى الرواى أن سبعة من المقاتلين عجزوا عن حمله فجعله درعا وتقدم نحو القلعة ، ووقع كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق صاحب القلعة أسيرا ، وتم العثور على قدر من الكنوز تتعلق به فى إحدى خرائب القلعة ، وطالبوه ببقية الدفائن فأنكرها ، فضربه الزبير بن العوام وصادرها ، وفى النهاية تم تسليمه لمحمد بن مسلمة ليقتله ثأرا لدم أخيه محمود بن مسلمة الذى كان قد قتل فى الحرب ، واتخذ النبى (ﷺ) امرأة كنانة وتسمى صفية لنفسه .

قسم النبى (ﷺ) غنائم خيبر الوفيرة بين أهل الحديبية أى من حضروا الحديبية ، وكان الأسرى كثيرين أيضا ، وتقرر حين الاستسلام نفى الأهالى ، إلا أنهم طالبوا فيما بعد باقتسام حدائق النخيل منا صفة استنادا إلى قولهم : " إننا أعلم بأمرها " ، فوافق النبى بشرط أن يخرجهم منها فى أى وقت يشاء ، فكان يأتى مأمور من المسلمين كل سنة وقت الحصاد ويحصل نصف المحصول ، وظل الأمر على هذا الحال حتى زمان عمر حيث تم إخراج اليهود كلية من الجزيرة العربية

فزع يهود فدك من المصير الذى آلت إليه خيبر ، فأرسلوا رسولا وتصالحوا مع النبى على غرار ما تم مع خيبر ، ولما سلمت فدك دون قتال فقد كانت خالصة للنبى صلى الله عليه وسلم ، وفى وقت عروة خيبر تقررت عدة أحكام شرعية منها تحريم لحم الحمر المستأنسة بعد أن كان الناس يأكلونها فى وقت الحرب ، والسماح بأكل لحم الخيل والنهى عن بيع الغنائم قبل تقسيمها

يروى أنه كان فى خيبر امرأة يهودية تسمى زينب ودست السم للنبى فى شاة مشوية ، وكان النبى يشعر به على فراش الموت . لذا ، فإن مسلمى صدر الإسلام يعتبرون النبى (ﷺ) شهيدا .

وفى زمن فتح خيبر أتى جعفر بن أبى طالب ومهاجرون آخرون من الحبشة إلى النبى ، وسر النبى لمجيئهم .

وبعد فتح خيبر بقى النبى (ﷺ) بالمدينة عدة أشهر ، وكان فى هذه الفترة يرسل السرايا تباعا إلى المناطق المجاورة ، وكان بعضها يعود غانما والبعض الآخر يعود خالى الوفاض ، إلا أنها كانت ذات فائدة حيث كان الإسلام يبسط نفوذه على البقاع المحيطة بصورة مطردة .

وفى ذى القعدة عزم النبى على آداء العمرة طبقا للمعاهدة التى أبرمها مع قريش فى العام السابق ، وكان فى ركب النبى ألفان من المسلمين ، وكان المعتمرون لا يحملون سلاحا سوى السيوف بمقتضى المعاهدة ، ولكن من قبيل الاحتياط حمل عدد منهم قدرا من الأسلحة ، أو ربما من قبيل ترهيب العدو ، وقرب مكة تركوا أسلحتهم بمر الظهران ودخلوا مكة ، وكان النبى (ﷺ) يتقدم الركب على ظهر ناقته القصوى ، وكان عبد الله بن رواحة ممسكا بزمامها ونشد :

خلوا بنى الكفار عن سبيله   خلوا فكل الخير فى رسوله

أحلت قريش المسجد الحرام واصطفوا أمام دار الندوة يشاهدون الركب ، وبالقرب من المسجد ترجل النبى عن ناقته وأخرج ذراعه اليمنى من ردائه وقال " رحم الله امرءا أراهم اليوم من نفسه قوة "، ثم بدأ فى الطواف، وكان كلما مر بقريش هرول وأصحابه معه، وبقى النبى بمكة ثلاثة أيام تزوج فيها ميمونة بنت الحارث بن عبد المطلب بوساطة العباس، ثم أرسلت قريش حويطب بن عبد العزى فى جمع من قومه إلى النبى يطالبونه بالرحيل بمقتضى المعاهدة، فقال النبى"ما ضركم لو تركتمونى أتزوج وأطعمكم!"، فامتنعوا، فخرج النبى وترك وراءه أبا رافع غلامه فأحضر ميمونة إلى النبى فى سرف[1]

---

(1) بفتح الأول وكسر الثانى ، موضع على بعد عشرة إلى تسعة أميال من مكة

فى تلك الرحلة اتضح للجميع مدى قوة الإسلام وضعف قريش ، وأدرك الجميع أن الشرك فقد القدرة على المقاومة وسرعان ما تتزلزل أركانه ، ونزل فى هذه الرحلة قوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ (سورة الفتح، آية 27)، وتسمى هذه السفرة "عمرة القضاء" حيث كان قضاء من عمرة العام السابق، وبعد العودة من مكة خرجت سرية فى ذى الحجة بقيادة أخزم بن أبى العوجاء قاصدا بنى سليم، فاستشهد كل أفرادها على يد الكفار، وفى رواية ظل قائدها على قيد الحياة إلى أن عاد إلى المدينة

العام الثامن بعد الهجرة :

بدءا من صفر من ذلك العام بدأت الغزوات ، وكان الجديد أن خالد بن الوليد وعمرو بن العاص جاءا فى بداية ذلك الشهر إلى المدينة مسلمين ، وبإسلامهما فقدت قريش اثنين من كبار رجالاتهم وأفاد الإسلام من انضمامهما إلى جيوشه، وفى شهر صفر أيضا خرج عبد الله الليثى إلى كديد قاصدا بنى الملوح وعاد بالغنائم، وفى ربيع الأول غزى شجاع بن وهب بنى عامر، وخرج كعب بن عمير الغفارى ومعه خمسة عشر رجلا إلى ذات أطلاح على حدود الشام، فقتل القضاعيون بها كل أفراد الحملة عدا كعب الذى عاد إلى المدينة.

وفى شعبان أتى إلى غابة جمع من بنى جشم لقتال النبى ، فأرسل النبى عددا من أتباعه لتقصى الأحوال ، ففاجأوا قائد الجشميين رفاعة بن قليس وقتلوه بسهم ، ففر من معه وعاد المسلمون بالغنائم الوفيرة وخرجت سرية أخرى بقيادة أبى قتادة إلى أضم ، وفى الطريق قتل أبو قتادة رجلا من جند عامر بن الأضبط لسابق عداوة بينهما رغم أن عامر كان يتظاهر بالإسلام ، فنزلت الآية [يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا] [1] ، لكن بعضا من المؤرخين يرون أن هذه الآية نزلت فى واقعة قتل مرداس بن

---

(1) سورة النساء ، آية 94 ، ذكر المؤلف نص الآية كما يلى [يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى الأرض فتبينوا] المترجم

نهيك (أو نهيك بن مرداس) على يد أسامة بن زيد فى سرية غالب بن عبد الله على بنى عمرة أو فى سرية الزبير بن العوام على فدك ، ويذكر الطبرى هاتين السريتين فى أحداث العام السابع .

وتم تجريد سرية بقيادة أبى عبيدة إلى بنى جهينة الذين كانوا يقيمون على ساحل البحر (ربما فى شهر رجب) ، ولم يذكر التاريخ عن هذه السرية سوى أن المسلمين عانوا الشدة والجوع وظلوا يقتاتون على أوراق الشجر بعض الوقت إلى أن عثروا على حوت ضخم ملقى على الشاطىء ، فأكلوا منه وأخذوا من لحمه قدرا إلى المدينة ، ويطلق على هذه السرية اسم " سرية خبط " (1) .

وفى جمادى الأولى تم تجريد سرية مؤتة ، كان النبى (ﷺ) قد أوفد سفيرا يسمى الحارث بن عمير الأزدى إلى ملك البصرة شرحبيل الغسانى، فقتل الملك السفير فى مؤتة ، فجرد النبى جيشا قوامه ثلاثة آلاف رجل وجعل زيد بن حارثة قائدا عليه وقال : " لو قتل زيد فليتول جعفر بن أبى طالب الإمارة ، وإن قتل فعبد الله بن رواحة وبعده فليختر الجيش أميره " ، وفى معان بلغ المسلمين نبأ بأن العدو قد حشد جيشا عظيما من الروم والعرب فى البلقاء ، فمكثوا يومين بمعان للتشاور فى الأمر فيما إذا كان عليهم أن يستأنفوا المسير أم يبلغوا النبى وينتظروا صدور أمر جديد ، فحث عبد الله بن رواحة الجنود قائلا : " مالنا وكثرة العدد ، إن حربنا لقوة هذا الدين ، فإما الفتح أو الشهادة " ، فقال الجند : " والله صدق ابن رواحة " ، وتحرك الجيش ، ونشبت الحرب فى البلقاء ، فقتل زيد وجعفر وعبد الله على التوالى ، فاختار الجند خالد بن الوليد أميرا عليهم ، فدبر خالد أمره وأعاد تنظيم الجيش الذى انهزم وعاد إلى المدينة ، فوجه أهل المدينة اللوم إليهم، أما النبى فقد واساهم وواسى ابن جعفر .

وبعد حرب مؤتة انتشرت الأنباء بأن حشدا من بنى قضاعة قد عزم على الهجوم،

---

(1) بفتح الأول والثانى ، وهى تعنى ورقة الشجر التى تسقط بالعصا ، وهذا هو سبب تسمية السرية لدى كتاب السيرة ، لكن صاحب القاموس يرى أن خبطاً كان اسم الموضع ، ويرى البعض أن هذه السرية كانت فى العام السادس ، الخميس ، ج 2 ، ص 83 .

فأرسل النبى إليهم عمرو بن العاص ومعه ثلاثمئة رحل ، وتوقف عمرو فى الطريق وطلب امدادات من النبى ، فذهب معه أبو عبيدة بن الجراح ومعه مئتين ، فحمل عمرو على قبيلتى بلى وعذرة ، فتفرق جمعهم ، وبهذا استقرت قوة الإسلام على تخوم الشام على الرغم من هزيمة مؤتة ، وقويت شوكة العشائر التى تقطن تلك المنطقة والحليفة للمسلمين ، وخضعت أيضا عدة عشائر أخرى هى عبس ومرة وظبيان ، والأمر الأهم هو خضوع فزارة وشيخها عيينة الذى كان يناصب المسلمين عداء شديدا واستسلام قبيلة سليم التى وقفت فى وجه الإسلام ردحا من الزمن .

وفى شهر رمضان من ذلك العام عزم النبى (ﷺ) على فتح مكة ، وتهيأت الساحة لذلك حيث كانت عشيرة بنى بكر التى ارتبطت بتحالف مع قريش فى معاهدة الحديبية قد أغارت ليلا على عشيرة خراعة التى تحالفت مع النبى وقتلت عددا من أفرادها بسبب ثأر لها ، فأمدت قريش بنى بكر بالسلاح بل ويروى أن عددا من رجال قريش شاركوا فى الغارة متنكرين ، فجاءت خزاعة إلى المدينة تستغيث ، فعزم النبى على الخروج قاصدا مكة ، وأتى أبو سفيان إلى المدينة لإجراء مفاوضات لإصلاح ما فسد من علاقات خوفا مما يمكن أن تجره من عواقب ، إلا أنه عاد بلا نتيجة .

خرج النبى (ﷺ) بجيش عظيم يضم كل المهاجرين وعشائر البدو حديثة الإسلام من سليم ومزينة وغيرها ، ونزل الجيش ليلا بمر الظهران (منزل على الطريق إلى مكة) ، وأمر النبى كل فريق بإشعال النار حتى تتبين قريش ضخامة الجيش ، ونظرا لبطء حركة الجيش (مدة أسبوع) واتخاذ كافة الاحتياطات فقد ظلت قريش لا تدرى شيئا ولو أنهم كانوا يخشون الهجوم بصورة عامة . لذا ، فقد خرج أبو سفيان مع رجلين آخرين من مكة لتقصى الأحوال ، فالتقى بالعباس فى معسكر النبى ، ثم رافقه إلى النبى وتشفع له عنده، فأسلم أبو سفيان وعاد إلى مكة بأمر من النبى لكى يعلن على الأهالى ضرورة أن يلزم كل بيته أو يتخذ ملاذا فى دار أبى سفيان أو بالمسجد الحرام حتى يأمن على نفسه .

وتحرك الجيش بحشوده من مر الظهران ، ولم يلق أية مقاومة فى طريقه ، جماعة واحدة من زعماء قريش العنيدين وقفوا فى طريق خالد بن الوليد الذى تولى قيادة الميمنة على جيوش البدو ، فقتل من قريش اثنان وعشرون رجلا فى مقابل رجلين من جيش خالد

وطارد المسلمون فلولهم إلى أن بلغ النبأ النبى فأمر خالد بالامتناع عن القتال ، وأعلن الأمان العام . لذا ، فقد أطلق على قريش اسم " الطلقاء " ، ولم يأمر إلا بقتل عشرة أو اثنى عشر فردا كانوا يكنون للإسلام عداوة شديدة ، وتمكن بعض منهم من الفرار .

وفى مكة بدأ النبى (ﷺ) بعد آداء الصلاة والطواف فى تحطيم أصنام الكعبة ، ويروى أن الناس كانوا يرفعون عليا على أكتافهم حتى يزيل الأصنام من سقف البيت ، ثم وقف الرسول (ﷺ) على باب البيت وقال : " لا إله إلا الله ، صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمى هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ، يا معشر قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالإباء ، الناس لآدم وآدم خلق من تراب " ، ثم حلس على تل الصفا وتوافد الناس رجالا ونساء وبايعوه على التوحيد وطاعة الله ورسوله .

عندئذ قام النبى (ﷺ) بتجريد سرايا إلى أطراف مكة بهدف تحطيم معابد الأصنام وإدخال القبائل فى الإسلام ، ومن بين هذه الحملات خرج خالد بن الوليد إلى عشيرة بنى جذيمة ، ورغم إدخالهم فى الإسلام وتجريدهم من سلاحهم إلا أن خالد قام بأسرهم جميعا لسابق عداء كان بينه وبينهم فى الجاهلية ، فسلم كلا منهم عهدة بين يدى أحد الجنود لكى يقتله ، ونفذ الجنود البدو الأمر ، أما المهاحرون والأنصار الذين كانوا بجيشه فقد أطلقوا سراح أسراهم ، وبلغ الخبر النبى فغضب ورفع يديه إلى السماء وقال : اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد " ،ثم أمر عليا رضى الله عنه بالمضى إلى هؤلاء القوم ودفع دية القتلى كاملة .

وبعد خمسة عشر يوما من إقامة النبى بمكة حدثت غزوة حنين ، عقدت عدة عشائر تسمى هوازن حلفا مع أهالى الطائف بغرض محاربة النبى ، واحتشد جيشهم فى أوطاس بقيادة مالك بن عوف ، فخرج النبى (ﷺ) إليهم فى جيش تعداده اثنا عشر ألف حندى؛ ألفان منهم من أهل مكة من حديثى الإسلام، وخرج الجيش من مكة فى السادس من شوال من العام الثامن بعد الهحرة، وتولى قيادته عتاب بن أسيد، وحين بلغ الجيش وادى حنين بدأ آل هوازن الذين كانوا قد نصبوا أكمنة فى الوديان المحيطة فى إطلاق السهام، وانهمرت السهام غزيرة إلى درجة أن تشتت جيش الإسلام ولاذ حنوده بالفرار، ولم يصمد

سوى النبى وعلى والعباس وعدد من أهالى المدينة الشجعان المخلصين ، إلى أن عاد الفارون وشنوا الهجوم، وهنا أيضا نثر النبى(ﷺ)حفنة من الرمال فى وجه الأعداء كما فعل فى غزوة بدر واستمد عون الملائكة من السماء ، وما لبثت هوازن حتى هزمت ولاذ جندها بالفرار ، فأرسل النبى(ﷺ) أبا عامر الأشعرى لتعقب فلولهم فى أوطاس ، ولما كانت هوازن قد خرجت بأموالها ونسائها وأطفالها فقد غنم المسلمون غنما وفيرا ، فكان نصيبهم أربعة آلاف من الإبل ومثلها من الأغنام وأربعة آلاف أوقية من الفضة وستة آلاف أسير ، واستشهد من المسلمين فى هذه المعركة أربعة فى حين قتل من الكفار ما يقرب من سبعمئة.

ترك النبى(ﷺ) الغنائم والأسرى فى وادى جعرانة وأرسل طفيل الأوسى لتدمير معبد ذى الكفين للأصنام، وذهب بنفسه على رأس جيش إلى الطائف، فاحتمى أهل الطائف بالقلعة وكانت حصينة وبدأوا فى إطلاق وابل من السهام،ويروى أن طفيل الأوسى أتى للمسلمين بالمنجنيق والدبابة، وهاجموا القلعة بهما،إلا أن المتحصنين بالقلعة صبوا عليهم قطع حديد محمى، فزاد الموقف صعوبة، فنادى منادى النبى بأن كل من يخرج من القلعة فهو حر، فخرج عشرة أفراد ونيف من القلعة،كما أمر النبى باضرام النيران فى الكروم، إلا أنه أصدر أمرا لاحقا بالعفو عن أهل القلعة،وفى النهاية رأى فى نومه مناما فسره أبو بكر على أن الإذن بفتح الطائف لم يصدر بعد، فعادوا إلى جعرانة، وهناك وفد على النبى وفد من هوازن وقدموا له فروض الطاعة وذكروا للنبى انتساب قبيلة سعد للنبى، وبناء على أمر من النبى جاء ممثلو هوازن للصلاة فى أثناء إقامة صلاة الظهر وأعلنوا ما جاءوا من أجله على الصحابة، فقال النبى" كل مالى وما لبنى عبد المطلب فهو منكم"، فأجاب المهاجرون ومن بعدهم الأنصار قائلين" كل ما لنا هو لرسول الله "،وامتنعت عشيرتا فزارة وتميم ، فوعدهما النبى(ﷺ)بأن يمنحهم ستة من الإبل بدلا من كل أسير من أول غنيمة يتم الحصول عليها ،فأطلقوا كل أسراهم وتقرر تقسيم الأموال، وعندما أراد النبى العودة إلى خيمته أحاط به العرب وقالوا"قسم الإبل بيننا الآن"،وتزاحموا حوله حتى سقطت بردته عنه ، فطالبهم بإعادة ردائه وأقسم لهم بأنه لو كان يملك من الابل ما يوازى تعداد نخل تهامة لمنحهم إياه، ثم قسم الغنائم، ومنح عددا من زعماء القبائل ما يربوا على المئة من الابل باسم تأليف القلوب، وكان من بينهم مالك بن عوف شيخ هوازن الذى

كان قد لاذ بالطائف بعد معركة حنين، وأكرم النبى وفادة رسوله وطلب منه الحضور فأعلن إسلامه ، ومنذ ذلك الحين كان يشتد على أهل الطائف ولاء للنبى ، ولم يحصل الأنصار على نصيب فى هذه القسمة ، وعندما اشتكوا قال لهم النبى " أنا غنيمتكم " وأكرمهم .

وعاد النبى (ﷺ) إلى مكة للعمرة ، وبعد آداء عباداته اتجه إلى المدينة ، وترك إمارة مكة لعتاب بن أسيد نظير أجر يومى مقداره درهم واحد ، وولى معاذ بن جبل مهمة تعليم القرآن ، ووصل المدينة فى ذى القعدة ، وفى الأشهر الأخيرة من ذلك العام أوفد النبى سفارتين : فأوفد علاء بن الحضرمى إلى البحرين لدى المنذر بن ساوى ملك البحرين برسالة مفادها : " بلغتنى رسالتك ورسلك ، كل من يتلو صلاتنا ويأكل من ذبيحتنا ويولى وجهه شطر قبلتنا فهو مسلم وإلا فعليه أن يدفع الجزية " ، واستقر الأمر على أن يقوم مجوس البحرين بدفع الجزية على أن يحظر الأكل من طعامهم والزواج منهم ، وأوفد عمرو بن العاص سفيرا إلى عمان لدى ملكيها جيفر وعبد [1] ولدى جلندى ، فأعلنا إسلامهما وقدما صدقة عن أموالهما ، وقام مجوس البلاد بدفع الجزية . وفى ذى الحجة من ذلك العام ولد إبراهيم ابن النبى من مارية القبطية .

العام التاسع بعد الهجرة :

فى بداية العام اتجه العمال إلى البقاع المحيطة لتحصيل الصدقات ، وامتنعت قبيلة بنى تميم ، فتم تجريد سرية اليها بقيادة عيينة بن حصن الذى كان حديث الإسلام ، فأسر عددا منهم ، فأتى إلى النبى شيوخ بنى تميم يلتمسون عفوه ، فرد النبى أسراهم وأنعم بالجوائز على شعرائهم ، ونزلت عنهم الآية ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (سورة الحجرات ، آية 4) .

واتجه عامل آخر هو الوليد بن عقبة إلى بنى المصطلق، وقابله جمع من رجال القبيلة، فخاف الوليد من تجدد العداء الذى كان بينه وبينهم فى الجاهلية، فعاد أدراجه وادعى أنهم خرجوا بقصد الحرب، فأراد النبى(ﷺ)أن يجرد اليهم حملة لتأديبهم، إلا أن وفدا

---

(1) ورد اسم الثانى بصورة مختلفة ، فقد ذكره ابن هشام باسم " عياد " وورد فى الطبرى باسم "عمرو " وفى الخميس (عبد) ، جلندى بضم الأول والثانى .

منهم مثل بين يديه وقالوا إنهم كانوا يقصدون استقباله واكرام وفادته وليس الحرب، فنزلت الآية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴾ (الحجرات، آية 6).

وفى صيف ذلك العام تم تجريد عدة سرايا لتأديب القبائل المتمردة فى المناطق المجاورة، وكانت من بينها سرية خرجت لإخضاع الأحباش الذين أعلنوا تمردهم فى جدة ، وسرية بقيادة على رضى الله عنه إلى قبيلة بنى طى لتحطيم أصنامهم ، وفى هذه السرية تم أسر ابنة حاتم، فأطلقها النبى(ﷺ) ووهبها ناقة، فذهبت إلى أخيها وحثته على دخول الإسلام ، فجاء معلنا إسلامه ، وفى تلك الآونة جاء إلى المدينة كعب بن زهيرات الشاعر المعروف وأعلن إسلامه ونظم قصيدة " بانت سعاد " فى مدح النبى فوهبه (ﷺ) بردة .

وفى صيف ذلك العام أيضا وقعت غزوة تبوك ، أتى إلى المدينة جمع من تجار النبط من الشام وأشاعوا أن الروم قد جمعوا قواتهم فى البلقاء بغرض شن الحرب على المسلمين وأن عرب الشام من لخم وجذام وعاملة انضموا إليهم ، فأمر النبى بحشد الجيوش وعلى خلاف معظم الغزوات أوضح الهدف من البداية حتى يعد المسلمون للأمر عدته ، وأخرج القادرون من الصحابة صدقات لنفقات القوات كل حسب قدرته ، وتم أيضا تعبئة قبائل البدو ، وتحرك جيش هائل ربما لم تشهد الجزيرة مثيله من قبل ، فكان قوامه ثلاثين ألف رجل ، كان الجو شديد الحرارة وكان العام شديد الجفاف ، وكان الخروج من المدينة بثمارها وظلالها أمرا صعبا على الناس ، اضافة إلى الخوف من الروم وقوتهم . لذا ، فقد تعذر عدد من الناس بالأعذار حتى لا يخرجو ومهم عبد الله بن أبى ، ونزلت فى شأنهم الآية

ولى النبى (ﷺ) محمد بن مسلمة الأنصارى إمارة المدينة كما ورد لدى ابن هشام أو سباع بن عرفطة كما يذكر الطبرى ، كما أمر على بن أبى طالب بالبقاء بالمدينة لرعاية الأهل وقال له: "أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى"، ثم تحرك بالجيش من ثنية الوداع التى كان الجيش يعسكر بها ، وبلغوا تبوك بعد تحمل محن العطش والحرارة القاسية ، وهناك اتضح أن ما أشاعه التجار عن حشود الروم لم يكن صحيحا ، وكان الماء والظل فى تبوك وفيرا ، فتوقف بها النبى ، وتوافد عليه شيوخ أيلة والجرباء وأذرح من المناطق المجاورة وقدموا الجزية ، وعقد النبى مع كل منهم معاهدة أمان، وأرسل خالد بن الوليد من هناك إلى دومة الجندل لدى مليكها أكيدر الكندى ، فبلغه خالد

ليلا وأسره ، وعندما وصل النبى (ﷺ) إلى المدينة استدعى الملك الأسير بردائه المر..ع بالذهب واصطلح معه على الجزية .

عاد النبى إلى المدينة فى شهر رمضان ، ورد فى البحار (ج 6) أن عددا من المنافقين يتراوح بين اثنى عشر وخمسة عشر فردا كانوا قد نصبوا للنبى كمينا فى مكان على الطريق ، فأطلع جبريل النبى على أمرهم ، فأرسل النبى (ص) حذيفة لإحباط عملهم ، وفى المدينة كان أول ما أمر به النبى تدمير مسجد ضرار فى قباء ، ويذكر المؤرخون عن هذا المسجد أن اثنى عشر من المنافقين كانوا قد أقاموه وعندما عزم النبى على الخروج إلى تبوك جاءوا إلى النبى وقالوا " إنا بنينا هذا المسجد للمرضى ومن بهم حاجة ولليالى المطيرة الباردة " ، وطلبوا منه أن يقيم الصلاة به ، إلا أن النبى أرجأ ذلك إلى حين عودته ، وبعد أن عاد أصدر أمره بتخريبه ، وقد ورد بالقرآن فيما يتعلق بهذا المسجد قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (التوبة ، آية 107) .

وفى المدينة توافد المتخلفون عن صحبة النبى فى الغزوة يلتمسون العفو والعذر ، فعفا عنهم ، وفيما يتعلق بالثلاثة الذين أقروا بتقصيرهم أمر الناس ألا يكلمونهم إلى أن نزلت الآية ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾ (التوبة، آية 117)، وبعد عدة أيام من عودة النبى جاءه وفد من ثقيف معلنا إسلامه، وكان مجىء هذا الوفد مبعث بهجة وموضع اهتمام كبير بالنسبة للمسلمين نظرا لمكانة ثقيف ومدينة الطائف الهامة، فأقيمت للوفد خيمة فى ركن من المسجد وأتاهم الطعام من بيت النبى، وطال أمد المفاوضات نظرا لمطالبة الوفد للنبى بالتجاوز عن الصلاة بالنسبة لهم وبعدم تحطيم اللات، إلا أن النبى لم يستجب لأى من المطلبين، وفى النهاية تقرر أن يتم تحطيم اللات على يد غير الثقفيين أنفسهم، ثم تخير النبى شابا من أفراد الوفد كان قد تعلم قدرا من أحكام الدين فى أيام إقامته المعدودة، وكان يميل إلى إقرار الشورى بين المسلمين، فعينه أميرا على الطائف وأمر أبا سفيان والمغيرة بن شعبة بتحطيم الصنم، فذهبوا بصحبة الوفد إلى الطائف، وبهذا استسلمت الطائف التى ظلت أمدا على عنادها وصلفها

وبعد شهرين فتح الله على المسلمين فتحا جديدا وكان هذا بموت عبد الله بن أبى ، فتخلص الإسلام من شر منافق كبير بالمدينة .

بعد غزوة تبوك إخضاع الطائف امتد نفوذ الإسلام ليشمل كل أرجاء الجزيرة العربية ، ومنذ ذلك الحين بدأت وفود القبائل وأمراء العرب فى التوافد على المدينة ويشرفون بدخول الإسلام ، وكان الوفود ينزلون عادة ضيوفا على ديار الصحابة ويتوافدون على المسجد فى مواقيت الصلاة ويعرضون مطالبهم فى حضور جماعة المسلمين ، وبعد قبول الدين كانوا يعودون إلى بلادهم بعد أن يقدم لهم النبى (ﷺ) كتابا ومالا لنفقات الطريق ، وكان النبى فى الغالب يوفد معهم من يتولى جمع الصدقات وآخر لتعليم شئون الدين والقرآن ، ويطلق المؤرخون على العام التاسع بعد الهجرة اسم " عام الوفود " .

وفى شهر ذى الحجة من ذلك العام أوفد النبى (ﷺ) أبا بكر أميرا لقافلة الحج من المدينة وكانت تضم ثلاثة من الحجيج ثم أوفد على بن أبى طالب من بعده ليتلو على الناس سورة البراءة فى موسم الحج ، فتلى على الآيات الأربعين الأولى من هذه السورة على الملأ فى منى ، وفحواها أن الله ورسوله براء من الذين أشركوا وأن كل عهد باطل سوى العهود الموقوتة التى تراعى مددها ، ومنح المشركون مهلة مدتها أربعة أشهر لكى يعودوا إلى ديارهم وبعدها يقتل كل مشرك يرى ما لم يدخل الإسلام ، ولم يصرح لأى مشرك بأداء الحج من بعد ، كما صدر الأمر بحظر الطواف عريا ، وعندما تليت الآيات قال بعض المشركين لعلى " نحن نتبرأ من عهدك وعهد ابن عمك " ، وفى موسم الحج فى العام التالى تم تنفيذ حكم البراءة بدقة فتطهرت مكة من المشركين .

العام العاشر بعد الهجرة :

قضى النبى (ﷺ) هذا العام كله بالمدينة منشغلا بالوفود وإيفاد عمال الصدقة ومعلمى الدين وتعاليمه إلى المناطق المجاورة ، وكانت معظم الأمور تتصل باليمن والجنوب، ففى أواخر العام السابق أوفد الأمراء الحمريون باليمن وأمير البحرين وغالبية عشيرة بنى بكر وقبيلة بنى حنيفة النصرانية وفودا تعلن دخولهم الإسلام ، وكان من بينهم وفود لقبيلة خولان وبجيلة وأزد وجراش ، وتم على يد مسلمى بجيلة تحطيم صنم ذى الخلاص الخاص بتلك القبيلة ، وكان من أهم أصنام الجزيرة العربية ، وكان معبده فى الجاهلية يطلق عليه " كعبة اليمن " .

ومن حضر موت أتى أميران كندبان أحدهما يسمى وائل وكان ملكا على المناطق

الساحلية والآخر يسمى أشعث وكان ملكا على البقاع الداخلية ، أتيا بنفسيهما إلى المدينة وأعلنا قبولهما لدين الإسلام ، وتأكيدا على تمسكه بالإسلام تزوج أشعث أم فروة ابنة أبى بكر ، ومنذ ذلك الوقتكان للاسلام شأن مع هذا الرجل وعشيرته ، وكان دخول عرب قحطان فى الإسلام بصورة عامة نقطة تعود إليها كثرة من الأحداث التى تلت .

ومن وفود ذلك العام وفد نصارى نجران ، فأرسلت قبيلة بنى الحارث التى تقطن نجران وتدين بالنصرانية عددا من رجالها إلى المدينة للقاء النبى والتباحث معه ، فدعاهم النبى (ص) للإسلام فلم يقبلوا ، فاقترح عليهم المباهلة [1] فامتنعوا ، ثم عقدوا معاهدة مع النبى على أن يدفعوا الجزية وينعموا بالأمان ، وظلت هذه المعاهدة التى عقدت طبقا لأمر سورة التوبة سارية إلى عهد عمر رضى الله عنه حيث أخرجهم من الجزيرة العربية .

وكانت ثمة طائفة أخرى من بنى الحارث على غير النصرانية أوفد النبى إليهم خالدا ، فقبلوا الإسلام وأرسلوا إلى المدينة وفدا وتم إيفاد عامل عليهم ، وكانت ثمة طوائف كقبيلة نخعى وبعض العشائر الأخرى لا تزال غير خاضعة ، فأرسل النبى (ص) عليا ومعه ثلاثمئة رجل ، فخرجت طوائف لقتاله وانهزمت ، ونهى على رضى الله عنه الجند عن تعقبهم ، وعاد إلى دعوتهم للإسلام فقبلوا ، وعاد إلى النبى بالغنائم (وكان النبى آنذاك بمكة فى حجة الوداع) ، وفى مطلع العام التالى (العام الحادى عشر) أتى إلى المدينة وفد من هذه العشائر .

وفى المنطقة الشمالية أيضا كان الإسلام فى طريقه لفرض سيطرته ، فأرسل فروة بن عمر الجذامى الذى كان يقيم بمعان حيث كان يتولى الحكم فى تلك الناحية من جانب دولة الروم البيزنطية رسولا إلى النبى وأعلن إسلامه ، ويروى أن هرقل ملك الروم غضب عليه وحكم عليه بالسجن فمات فى سجنه .

وفى ذلك العام دخل فرس اليمن(الأبناء)الإسلام، فأتى منهم شخص يسمى فيروز إلى المدينة وعرض على النبى إسلامه وإسلام قومه، وفى خلال هذه الأحداث حجع النبى(ﷺ)

---

(1) " باهل " بعضهم بعضا احتمعوا فتداعوا ، فاستنزلوا لعنة الله على الظالم منهم ، وفى حديث ابن عباس . " من شاء باهلته أن الحق معى " (المعجم الوسيط المترجم).

فى ولده الرضيع ابراهيم فى ربيع الأول ، وحدوث كسوف شمسى يوم وفاته ، فشاع بين الناس أن ذاك بسبب وفاة إبراهيم ، فقال الرسول (ﷺ) : " أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد " (1) .

وفى أواخر ذى القعدة خرج النبى إلى مكة بقصد آداء الحج وفى ركابه جمع كبير من الناس ، ولم يكن النبى قد أدى الحج منذ أوان الهجرة حتى ذلك الوقت ، وكانت أسفاره إلى مكة كلها فى صورة عمرة ، فكانت هذه أول حجة له بعد الهجرة وآخرها حيث انتقل إلى جوار ربه بعد ذلك بقليل ، لذا تسمى هذه الحجة " حجة الوداع " ، ولعل إحجام الرسول عن تكرار الحج يرجع إلى كراهته لرؤية المشركين فى بيت الله ، وعندما انزلت عليه البراءة بالقضاء على الشرك زال المانع .

أحرم النبى فى ذى الحليفة، ثم سار بالذبائح و الحجيج، ورافقه فى هذه السفرة كل آل بيت النبى، ودخلوا مكة فى الرابع من ذى الحجة، وطاف راكبا راحلته حتى يكون مشرفا على الناس وكان يستلم الحجر بعصا فى يده، وبعد الطواف أمر من لم يحضروا ذبيحة معهم بأن يعتمروا، وفى تلك الأوبة كان على رضى الله عنه قد عاد من اليمن ومعه عدد من الذبائح لحجة النبى ، ولما كان قد عزم على آداء الحج فقد أشركه النبى فى ذبيحته ، وفى غيبة على قام الجنود الذين كانوا معه فى اليمن بارتداء بعض الأردية التى غنموها هناك ، وعندما رآهم على أمرهم بخلعها ، فاشتكى الجنود ، فقال الرسول فى خطبة له " يا أيها الناس لا تشكوا عليا ، فوالله إنه لأخشن فى ذات الله من أن يشكى " (2) .

وفى يوم التروية ذهب النبى من مكة إلى منى حيث قام ، بى الجمرات ونحر الذبائح ، ثم طلب حلاقا وحلق شعر رأسه وقسم الشعر على أصحابه ، ثم امتطى ناقته وتلى خطبة اشتملت على بيان لأحكام الدين ، وفى نهايتها قال : " اللهم هل بلغت ؟ " ، فقال الناس " نعم " ، فقال النبى " اللهم فاشهد " ، وعاد إلى مكة فى اليوم الثالث فطاف ومكث ثلاثة أيام ثم تحرك مع قافلة الحجيج صوب المدينة

ورد فى الأخبار أن النبى(ﷺ)جمع الناس فى منزل غدير خم بمقتضى وحى أنزل إليه

(1) الخميس ، ج 2 ، ص 163

(2) لم ترد عبارة (من أن يشكى) فى الطبرى ، وتم إكمالها من ابن هشام

وصعد منبرا ومعه على ، وبعد خطبة اشتملت على مواعظ وأخبار عن قرب وفاته قال : " إنى مخلف فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدى ، كتاب الله وعترتى فى أهل بيتى لن يفترقا حتى يردا على الحوض".ثم أمسك بذراع على ورفعها وقال بصوت جهورى:" من كنت مولاه فهذا على مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله " ، ثم هبط من منبره ، فنزلت الآية : ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا ﴾(المائدة، آية 3)، وحرى بنا أن نذكر أن حديث" من كنت مولاه" قد ورد كذلك لدى أهل السنة، ويكمن الخلاف بين الشيعة والسنة فيه حول تفسير لفظ "مولى" .

العام الحادى عشر بعد الهجرة :

مرض النبى (ﷺ) فى طريق عودته من حجة الوداع على أثر تعبه من السفر ، وفى تلك الآونة استفحل أمر الأسود العنسى فى اليمن ، وكان الأسود هذا قد أعلن عصيانه فى أواخر العام العاشر وأوائل ذلك العام فى صنعاء اليمن ، فادعى النبوة وأقلق عمال الإسلام ومن بينهم شهر بن باذان الفارسى الذى كان عاملا على صنعاء من قبل النبى، فقتله الأسود وأخذ امرأته لذا، فقد حلت الكراهية بينه وبين فرس اليمن (الأبناء)، فكتب النبى (ﷺ) إلى فرس اليمن وسائر المسلمين بها وأمرهم بقتل الأسود سواء بالقتال أو غيلة ، فاحتشدوا وانقضوا على الأسود ليلا بمساعدة من امرأته فقتلوه ، إلا أن خبر قتله جاء بعد رحيل النبى إلى المدينة .

وتعافى النبى (ﷺ) من المرض الذى ألم به مؤقتا ، ولكن فى ذلك الوقت ظهر كذابان آخران شقا عصا الطاعة ، أحدهما مسيلمة فى قبيلة بنى حنيفة باليمامة والآخر طليحة فى قبيلة بنى أسد بنجد ، واتبع الرسول فى شأنهما " سبيل الرسل " فى محاربتهما على حد قول المؤرخين ، فأثار عليهما المسلمين المجاورين لهما ، الا أن أمرهما لم ينته الا فى عهد خلافة أبى بكر .

وفى أواخر شهر صفر من ذلك العام أمر النبى بتجهيز سرية لحرب الروم ، وولى عليها أسامة بن زيد وقال له : " سر إلى موضع مقتل أبيك فأوطئهم الخيل فقد وليتك هذا الجيش فاغز صباحا وحرق عليهم فإن أظفرك الله فأقلل اللبث فيهم وخذ معك الأدلاء

وقدم العيون والطلائع أمامك " ، وأمر كبار المهاجرين والنصارى بالخروج مع الجيش .

وفى اليوم التالى ، يوم الأربعاء ، مرض النبى (ﷺ) مرة أخرى وألمت به الحمى والصداع ، ولكن فى غداة ذلك اليوم خرج من داره وعقد الراية لأسامة بيده وأصدر الأمر بالتحرك ، فخرج أسامة بجيشه وعسكر فى الجرف (على بعد فرسخ من المدينة) ، فبدأ الناس يحجمون عن الانضمام إلى جيش أسامة معتذرين بمرض النبى ، بينما دار على ألسنة البعض أن النبى (ﷺ) ولى شابا فى العشرين من عمره على المهاجرين المجربين، فبلغ هذا اللفظ مسامع النبى فغضب . فخرج إلى المسجد رغم توعكه رابطا منديلا على رأسه واعتلى المنبر ، وبدأ كلامه بقوله أنه رأى فى الليلة السابقة فى منامه رباطين من ذهب عقدا على ساعديه وانه استاء من ذلك وضاق ونفخ فيهما فطارا فى الهواء وأنه أول منامه بأن هذين القيدين هما الكذابان صاحب اليمامة وصاحب اليمن ، ثم قال أنه قد بلغه ما يقال فى صدد امارة أسامة وأن كلاما قد قيل فى امارة أبيه من قبله ، وأكد على كفاءته وجدارته بالقيادة وكذلك ابنه،ثم طلب من الناس أن يفسحوا الطريق لجيش أسامة .

يروى أن النبى ذهب فى الليلة السابقة على مرضه إلى البقيع بصحبة غلامه أبى مويهبة [1] ، وقال " أمرت أن استغفر لأهل البقيع " ، ثم وقف وسط المقابر وقال : "السلام عليكم أهل المقابر ، ليهن لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه ، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها ، والأخيرة شر من الأولى " ، ثم قال لأبى مويهبة : "جىء إلى بمفتاح كنوز الدنيا والخلود فيها وخيرت بين الدنيا وبين الجنة ولقاء ربى ، فاخترت الجنة " ، ثم استغفر لأهل القبور وعاد إلى داره حيث ألم به المرض .

كان النبى (ﷺ) يبقى بديار أمهات المؤمنين بالتناوب كعادته فى الأيام الأولى من مرضه ، ثم أقام بدار عائشة فيما بعد بموافقة كل نسائه وظل به إلى أن انتقل إلى جوار ربه، وذات يوم وفى شدة مرضه طلب أن يحضر إليه سبعة أوان من الماء من آبار مختلفة وأن تصب على جسده إلى أن اكتفى ، ثم خرج إلى المسجد وارتقى المنبر ، وبدأ خطبته بالاستغفار لأصحاب أحد ثم أوصى بالأنصار خيرا ،ثم وجه حديثه إلى المهاجرين وقال: "لقد زدتم عددا لكن الأنصار لا يزاد عددهم ، فالأنصار ملاذى ، فأحسنوا إلى من أحسن

(1) يقول مفيد فى الإرشاد أنه ذهب مع جمع من الناس وكان يستند إلى يد على رضى الله عنه

منهم واعفوا عمن أساء " ، ثم قال : " خير عبد من عباد الله بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة ، كل من له حق لدى فليأخذه أو يحله ، ولو كنت قد ضربت بعصاى على ظهر أحد أو قسوت على أحد فليقتص منى ، فما أنا بمبغض وماينبغى لى " ، ثم هبط من فوق المنبر وأدى صلاة الظهر وعاد وجلس فوق المنبر وكرر ما قال ، حينئذ نهض البعض وعرضوا مطالبهم بينما انشغل بالدعاء بعض آخر ، ثم نزل النبى (ﷺ) من فوق المنبر واتكأ على كتف على رضى الله عنه والفضل بن العباس وعاد إلى داره متثاقلا يجر قدميه على الأرض من شدة مرضه .

وزادت وطأة المرض على النبى (ﷺ) وألمت به حمى شديدة لدرجة أنه يروى أن أحدا ما كان ليستطيع أن يضع يده على يده من شدة الحرارة ، وما عاد يخرج للصلاة ، ويروى أهل السيرة أنه أمر أبا بكر بالصلاة بالناس فى حين يرى الشيعة أنه لم يحدد شخصا معينا لذلك وأنه قال : " فليصل أحدكم بالناس فأنا مشغول بما بى " ، وأن عائشة هى التى اختارت أبا بكر للصلاة بهم .

وورد فى أخبار العامة والخاصة أن النبى فى شدة مرضه قال : " ائتونى بدواة حتى اكتب لكم فلا تضلوا بعدى " ، فعلت الأصوات من حوله فتألم النبى (ﷺ) وأمرهم بالخروج ، وفى يوم الاثنين حيث كان المسلمون يؤدون صلاة الصبح فى المسجد مع أبى بكر دخل النبى (ﷺ) المسجد ، وكاد الناس من فرحتهم لرؤياه (ﷺ) أن يخرجوا عن صلاتهم ، فأتى النبى إلى جوار المحراب وجلس - كما جاء فى السيرة - على الأرض بجوار أبى بكر وبدأ يصلى ، ويروى الشيعة أن أبا بكر تراجع عن المحراب وترك المحراب للنبى ليصلى بالناس ، وبعد انتهاء الصلاة اتجه إلى الناس وقال : " يا أيها الناس سعرت النار وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم ، وأنى والله لا تمسكون على شيئا ، انى لم أحل لكم الا ما أحل لكم القرآن ولم أحرم عليكم الا ما حرم عليكم القرآن " ، ثم عاد إلى داره ، وعند صلاة الظهر من نفس ذلك اليوم رحل إلى الرفيق الأعلى ، وفى رواية لعائشة أن آخر قول صدر عن النبى كان : " لا يترك بجزيرة العرب دينان " .

وتروى أخبار الشيعة أن النبى (ﷺ) حين رحيله نادى عليا وأقر بأنه وصيه فى

حضور العباس وآخرين ، وأكد مرة أخرى على خلافته [1] .

لا خلاف على أن النبى (ﷺ) توفى فى يوم اثنين . لكن الخلاف حول الشهر واليوم الذى توفى فيه ، فيرى عامة المؤرخين أنه كان فى الثانى عشر من ربيع الأول فى حين يعتبره محدثو الشيعة فى الثامن والعشرين من صفر ، وهناك من يرى أنه توفى فى الثانى أو فى الأول من ربيع الأول ، كما أن ثمة آراء تتسم بالضعف والغرابة .

قام كل من على والعباس وعدد آخر من المقربين بغسل بدن النبى (ﷺ) ثم أسجوه على فراشه فى نفس داره ، ونشأ خلاف حول مكان دفنه وما إذا كان ليدفن بالمسجد أم فى مقابر الصحابة ، إلى أن روى أبو بكر قائلا : " ما قبض نبى إلا ويدفن حيث قبض"، وصلى على وأقرباؤه على النبى ثم أخذ الناس يتوافدون جماعات ويصلون عليه ويمضون ، ونشأ خلاف آخر أدى إلى تأخر الدفن ، فكان عمر يردد قائلا " أن النبى لم يمت وإنما غيب كما ذهب موسى إلى الطور " ، وأقسم أنه سيعود ويقطع أيدى من قالوا بموته وأرحلهم ، وبينما كان عمر يردد قوله هذا فى المسحد جاء أبو بكر ودخل المسجد وأسكت عمر بصعوبة واتجه الى الناس وتلى آية مں القرآن نصها : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ﴾ (آل عمران ، آية 144)، واتبعها بآية ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ (الزمر ، آية 30) ، ثم قال : " أيها الناس ، من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت، اذهبوا وواروا جسد النبى"، وأتى العباس أيضا وأكد على موت النبى، ثم أودع جثمان الرسول الكريم الثرى فى ليلة الأربعاء فى دار النبى نفسه وفى مكان فراشه .

ورد فى أخبار الشمائل أن النبى (ﷺ) كان متوسط القامة عريض المنكبين ، كانت بشرته بيضاء مشوبة بحمرة ، وفى بعض الروايات كان قمحى البشرة ، وكانت رأسه كبيرة وشعره يبلغ شحمة الأذن ، وفى رواية يسدل على كتفه ، وكان الشعر يغطى كتفه وساعديه مع وجود خط من الشعر يمتد حتى وسط بطنه ، وكان عالى الجبين قوى اليدين

---

(1) ونؤكدها هنا على ما ذكره المؤلف من أن هذا الخبر قد اقتصر على كتب أخبار الشيعة . (المترجم)

والرجلين ، كان حين يمشى " كأنه يقتلع من صخرة أو كأنه ماء ينساب من جبل" [1] ،

وكانت نظرته دوما الى الأرض وقلما كان يرفع رأسه ، وكان قليل الكلام ، وكان عندما يتجه بنظره إلى شيء يتجه إليه بكل بدنه ، وفى اشارته كان يشير بيده كلها ، وفى دهشته كان يقلب كفيه، وفى حديثه كان يضرب ابهام يده اليسرى فى كف يمناه ، وحين الغضب كان يتحول بوجهه ، وحين الفرح كان يغمض عينيه ، وكان ضحكه ابتساما

كانت ملابسه غالبا بردتين من القطيفة إحداهما حول خصره والأخرى على كتفيه ، وكان يرتدى القميص ، وكان يحبه ويفضله على كل الملابس طبقا لرواية الترمذى ، وكان أحيانا يضع قلنسوة على رأسه وأحيانا أخرى عمامة ، وفى بعض الأحيان كان يلبس القلنسوة ومن فوقها العمامة ، وكان لديه ثلاث قلانس ، إحداها بيضاء اللون وأخرى سوداء اللون والثالثة تغطى الأذنين كان يضعها على رأسه فى الأسفار والحروب ، كما كان يرتدى فى أسفاره جبة ذات أكمام .

كان الرسول عليه صلوات الله وسلامه يولى عناية كبيرة للاغتسال ونظافة البدن والملبس وكان كلما هم بالخروج يتعطر ويمشط شعر رأسه ، وكان عندما يتوضأ يمسح بمنديل على وجهه ، وكان يخصص رداء خاصا ليوم الجمعة ، وكان يستخدم المسواك لنظافة أسنانه قبل النوم وبعده وفى أيامه الأخيرة فى الدنيا ظهرت عدة شعرات بيض على عارضيه ومفرق رأسه ، وثمة خلاف حول ما إذا كان النبى قد استخدم الخضاب ، وكان النبى حسن العشرة مع أصحابه ، وكان قنوعا ومتسطا فى غذائه ، ويروى انه لم يمتدح أو يذم طعاما أبدا ، ويروى عن الامام الصادق قوله . " كان رسول الله يأكل أكل العبد ويجلس جلوس العبد ويعلم انه عبد " (2)

* * *

---

(1) البحار ، ج6 ، ص 176 وغيره من الكتب .

(2) البحار ، ج 6 ، ص 202 .

الفصل الرابع

الخلفاء الراشدين



خلافة أبى بكر

عندما كان على منشغلا بغسل النبى كان أبو بكر يخطب فى المسجد عن وفاة النبى ، فبلغ عمر أن الأنصار فى دار سقيفة بنى ساعدة قد اجتمعوا لتعيين أمير للمسلمين ، فأخبر عمر أبا بكر بالأمر فأسرعا إلى السقيفة ، وفى الطريق قابلا أبا عبيدة بن الجراح واصطحباه معهما ، كانت الأنصار من أوس وخزرج مجتمعين بالمكان وكان سعد بن عبادة شيخ الخزرج جالسا رغم مرضه وبجواره متحدث بلسانه يتكلم ويعدد أفضال الأنصاروكيف آووا النبى وأسبغوا عليه حمايتهم بعد أن خذله أهله بمكة ، وعلى هذا فإن الأنصار يكونون أحق بالخلافة من المهاجرين ، وهنا نهض أبو بكر وبدأ حديثه بالثناء على فضل المهاجرين والأنصار على السواء مع التركيز على المهاجرين فى الدرجة الأولى حيث أنهم أهل النبى وأول من آمنوا برسالته وأنهم ثبتوا على عبادة الله الواحد ونصرة نبيه رغم معارضة الناس وإيذائهم لهم ، أما الأنصار - والحديث لا يزال لأبى بكر - فرغم أن خدماتهم للأسلام لا مجال لنكرانها فيأتون فى الدرجة الثانية ، لذا فالمهاجرون أحق بالخلافة وأن العرب لن يجتمعوا تحت راية لغير قريش ، فاقترح بعض الأنصار أن يتم تنصيب أميرين أحدهما من المهاجرين والآخر من الأنصار ، وكان هذا الاقتراح طبقا لقول سعد بن عبادة أول صعف يصيبَ الأنصار ، فرفضه أبو بكر وقال « لنا الامارة ولكم الوزارة ولن نقر أمرا دون مشورتكم ورأيكم » [1] ، وبعد أبى بكر حدث كل من عمر وأبى عبيدة ،ثم عم الضجيج ، وفى النهاية بعث الخلاف القديم بين الأوس والخزرج ، فالأوس وهم الأقلية رفضوا امارة الخزرج ووافقوا على أن تكون الامارة فى المهاجرين ، ومن ناحية أخرى تحدث بشير بن سعد الخزرجى الذى كان يكن حقدا على قريبه سعد الخزرجى وأوضح صحة رأى أبى بكر ، حينئذ اقترح أبو بكر كلا من عمر وأبى عبيدة أميرا على الناس ، بينما أثنى كلاهما على أبى بكر واعتبراه الأفضل لهذه المهمة ، وبادرا مع بشير بن سعد إلى أبى بكر وبايعوه ، فماج المجلس وازدحم القوم على أبى بكر

(1)معروف أن أبا بكر استشهد فى خطبته بحديث عن النبى أنه قال «الأئمة من قريش» واستشهد بالحاضرين فشهدوا، إلا أن الطبرى وابن هشام اللذين أوردا مقولة أبى بكر (الطبرى فى المفصل وابن هشام فى المختصر) لم يذكرا هذا الحديث، فما ورد لدى ابن هشام هو قول أبى بكر:«ولن تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش،هم أوسط العرب نسبا ودارا».أنظر: تاريخ الخلفاء، ص 6 .

يبايعونه إلى درجة أنهم كادوا يطأون سعد بن عبادة المريض تحت أقدامهم ، فصاح أحدهم محذرا الناس من أن يطأوه ، فقال عمر « اقتلوه قتله الله »[1] ، فأمسك ابن سعد لحية عمر وكاد يشتبك معه لولا أن هدأ أبو بكر ثورة عمر ، وفى تلك الآونة جاءت قبيلة بنى أسلم حلفاء المهاجرين من خارج المدينة لمبايعة أبى بكر ، وازدحمت الطرقات بالناس ولم يكن ثمة مجال للشك فى استقرار الأمور ، ويروى عن عمر انه قال : « كانت بيعة أبى بكر فلتة وقى الله الناس شرها » ، وكان يقول انه لم يطمئن إلى نتيجة الأمر إلا حين أتت قبيلة بنى أسلم .

وفى غداة ذلك اليوم جلس أبو بكر بالمسجد لتلقى المبايعة العامة ، وافتتح عمر المجلس بكلمة موجزة أشار فى بدايتها إلى مقولته التى قالها فى اليوم السابق عن أن النبى لم يمت وبرر خطأه فى ذلك ، ثم أثنى على أبى بكر وعدد مناقبه وطالب الناس ببيعته ، فبايعه الناس ، حينئذ نهض أبو بكر ليتحدث إليهم ، فبدأ خطبته بحديثه عن عجزه تواضعا فقال : « وليت عليكم ولست بخيركم ، فلاتنتظروا منى ما كان من النبى ، فقد كان معصوماً ، أما أنا فلى شيطانى الذى يوسوس لى أحيانا ، ولكن عليكم أن تعينونى على أمرى وإن رأيتم منى أعوجاجا فقوموه » ، ثم بشر الناس بعدله وأوصاهم بالطاعة والجهاد ، وفى النهاية قال : « قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله » . [2]

امتنع عدد من الناس عن البيعة ومن بينهم سعد بن عبادة ، وكان عمر يرى ضرورة انتزاع البيعة منه بالقوة ، إلا أن أبا بكر بنصيحة من بشير بن سعد خشى ثورة الخزرج فلم يقر به ، ومن جانبه أيضا امتنع سعد عن الصلاة مع أبى بكر ، وفى موسم الحج كان ينعزل عن جماعة أبى بكر ، وبعد وفاة أبى بكر ووصول الخلافة إلى عمر هاجر سعد بن عبادة من المدينة إلى الشام واستقر فى حوران ، وفى منتصف ليلة وجد ميتا .

ولم يأت على وبنو هاشم وعدد من الصحابة للبيعة ، فأرسل أبو بكر عمر ومعه عدد من الناس إلى دار على لكى يأتوا ببنى هاشم الذين كانوا مجتمعين عنده ، فهجم الزبير

---

(1) وردت هذه المقولة بالفعل فى تاريخ الطبرى (ج 3 ، ص 225) .

(2) متن الخطبة فى الطبرى ، ج 3 ، ص 211

ابن العوام بسيفه عليهم ، فآثروا العودة حتى لا تكون فتنة كبرى ، لكنهم بايعوا أبا بكر بعد وعد العباس وطلحة والزبير ووعيدهم ، وطبقا لرواية الزهرى التى نقلها الطبرى والبخارى ومسلم فإن عليا لم يقدم بيعته مدة ستة أشهر أى طوال المدة التى بقيت فى عمر فاطمة ، وبعد وفاتها وتحول الناس عن على اضطر إلى البيعة [1]

قام أبو بكر بمصادرة فدك وغيرها من الأراضى التى كانت ملكا للنبى فى حياته ، وعندما طالبت فاطمة بإرثها روى لها حديثا عن النبى مفاده « نحن معشر الأنبياء لا نورث ، وما يبقى منا صدقة »، أى يدخل ضمن المال العام [2] ، لذا فقد استاءت فاطمة من أبى بكر ولم تتحدث إليه طوال حياتها ، وعندما توفيت دفنها على ليلا ولم يخبر أبا بكر . [3]

* * *

بعد وفاة النبى اضطربت الأحوال فى الجزيرة العربية حيث امتنع عدد من القبائل عن دفع الزكاة ، إضافة إلى القبائل الأخرى التى التفت حول الثلاثة أدعياء النبوة ، وبهذا فقد كانت أوضاع خلافة أبى بكر تتسم بالخطورة منذ بدايتها ، ولكن لحسن الطالع فقد ظلت أغلبية القبائل على إسلامها أو على الأقل فى حالة انتظار ، وبقيت المدينتان الرئيسيتان مكة والطائف على ولائهما على يد زعمائهما ، وظهر فى مكة حديث عن الارتداد لكن سهيل بن عمرو هدأ ثورة الناس بالوعيد ، وفى تلك الآونة كان الناس فيما عدا المسلمين الذين ثبتوا على إيمانهم ينقسمون إلى ثلاث مجموعات : مجموعة ارتدت تماما عن الإسلام ومجموعة أخرى اقتصرت على الامتناع عن أداء الزكاة ولكنهم قبلوا الصلاة [4] والمجموعة الثالثة الأغلبية التى بقيت فى حالة ترقب .

---

(1) الطبرى، ح 3 ، ص 202 ، الصواعق المحرقة ص ، حتى لو صحت الرواية فلم يكن تأخر على قائما على رفض منه لمبايعة عمر ،(المترجم) .

(2) ينكر متكلمو أهل السنة هذا الخبر رغم أنه ورد لدى الطبرى ، راجع الشافى ، طبعة طهران ، ص 288

(3) كل غرض المؤلف من فكرة توريث فاطمة التأكيد على مبدأ الوراثة فى الخلافة لدى الشيعة (المترجم)

(4) يطلق المؤرخون المسلمون اسم « مرتد » على الجماعتين على السواء ، فورد بالطبرى : «جاءته وفود العرب مرتدين يقرون بالصلوة ويمنعون الزكاة » (الطبرى ، ح 3 ، ص 220،) .

كان أول شئ قام به أبو بكر هو تجهيز جيش أسامة رغم أن كلا من مستشاريه عمرو وأبى عبيدة اللذين كانا شركاء فى الحكم لم يكن لهما ميل إلى تجريد الجيش فى تلك المرحلة الدقيقة ، أما أبو بكر فقد رأى ضرورة اتخاذ تلك الخطوة لاظهار اهتمام حكومته بتنفيذ أوامر النبى ، فأرسل أسامة إلى مؤتة فى موكب مهيب ، واستأذنه فى أن يبقى على عمر بالمدينة ، واستولى أسامة على قصبة أبنى فى البلقاء وبعد إتمام المهام التى أسندت إليه عاد إلى المدينة ، واستغرقت تلك الحملة أربعين يوما .

وفى هذه الأثناء توالت الرسائل من عمال المناطق المحيطة مشتملة على أخبار مسيلمة وطليحة وتشتت عمال الإسلام واضطراب الأمور ، وأخذ أبو بكر يرد على كل رسالة ورسول يحثهم على الصمود والمقاومة وانتظار عودة جيش أسامة ، وتوافد النواب من قبل القبائل الثائرة معلنين قبولهم للصلاة ولكن مع الامتناع عن آداء الزكاة ، ورأى وجوه الصحابة وجوب المداراة مع هذه القبائل استنادا إلى قبولهم للقبلة وإلى عدم حواز مقاتلة أهل القبلة خاصة فى تلك المرحلة الدقيقة ، لكن أبا بكر كان يقول . « لو منعونى عقالا لجاهدتهم عليه » .

على مقربة من المدينة أقدم خارحة بن حصن الفزارى على مهاحمة عامل الصدقات والاستيلاء على ما معه من أموال وردها إلى الفزاريين وساعدته على ذلك قبيلة غطفان ، فخرج أبو بكر فى جيش من أهل المدينة ، ولقيت مقدمة الجيش الهزيمة على يد القبائل المغيرة ولكن عندما بلغتهم أنباء عن قرب وصول الامدادات لاذوا بالفرار ، وقعت هذه الغزوة فى منطقة ذى القصة ، وأدت إلى رفع معنويات المسلمين إلى حد ما .

وعاد أسامة بجيشه من رحلة مؤتة ، كما عاد أيضا عدد من عمال الصدقة من المناطق المجاورة يحملون أموالا ضخمة ، فقوى موقف أبى بكر بالرجال والمال فمكر حديا فى مقاتلة المرتدين ، وذات يوم حرد أحد عشر حيشا إلى أطراف الجزيرة العربية ، وكانت أوامره أن يقوم المسلمون بتعبئة القبائل التى يحدونها فى طريقهم ، كما أرسل صكوكا بالعفو إلى طوائف العرب مع رسل من طرفه وقبل تحريك الجيوش ، استهل هذه الصكوك بحديثه عن الإسلام والثناء عليه وعلى الرسول ﷺ ومسألة موت النبى مستشهدا بآيات من القرآن ، ثم ذكر أنه أمر هذه الجيوش بقتل كل من ارتد عن دينه بالسيف وحرقه بالنار

وأسر نسائه وعياله إلا من تاب وأعلن قبوله لدين الإسلام بعلامة بينة وهى الآذان ، وبعد الآذان آداء الزكاة وأنه أعطى لكل من قادة الجيوش أمرا كتابيا بمعاملة المرتدين على النحو المذكور ويتضمن نقاطا عن آداب الغزو وضرورة الحيطة والحذر من التسرع ووجوب الرفق والمداراة مع الجنود [1] ، وتحركت الجيوش بناء على هذه الأوامر إلى أطراف الجزيرة المختلفة ، وكان جيش خالد بن الوليد مكلفا بقمع طليحة الكذاب .

كان طليحة هذا قد أعلن عصيانه فى قبيلة بنى أسد بن خزيمة فى نجد ، وانضمت إليه قبائل أخرى من حلفاء بنى أسد ومنها قبيلة طى ، إلا أن عدى بن حاتم زعيم قبيلة طى ظل على إسلامه وأمد أبا بكر وخالد فى هذه الحملة بمساعدات قيمة للغاية وقام بتعبئة أفراد قبيلته ممن لم ينضموا إلى طليحة وأمد جيش خالد بألف فارس منهم ، لذا فإن مؤرخى الإسلام يقولون أن « عدى كان أفضل من ولد على أرض طى ».[2]

كان طليحة قد حشد قواته فى مكان يقال له بزاخة ، فأرسل خالد اثنين من الأنصار إلى طليحة فخرج طليحة وأخوه وقتلوهما ، فوقع الخوف فى قلوب المسلمين ، فذهب خالد ورفاقه إلى قبيلة طى يستمد العون ثم اتجه إلى طليحة ، وانهزم الجيش فى القتال ولاذ الجند بالفرار لولا أن ثبت خالد والأنصار الذين كانوا معه ، فأعاد الفارين من الجند ، وجاء عيينة بن حصن الفزارى وقبيلته لدعم طليحة وطلب منه أن يسند إليه مهمة وأن يجيئه بوحى ، فأجابه طليحة بأن الملك قال له : « إن لك رحى كرحاه وحديثا لا تنساه »، فلاذ عيينة وقومه بالفرار مما أدى إلى هزيمة طليحة ففر النبى الكذاب وزوجه إلى الشام .

وفى نجد أعلن رجل من بنى سليم يسمى اياس بن عبد الله ويلقب بفجاءة عصيانه ، كان هذا الرجل قد جاء إلى أبى بكر قبل فترة وحصل منه على العتاد والمؤن بدعوى الجهاد ضد المرتدين ، ثم اتجه إلى قطع الطرق بهذه الأسلحة واعمال الغارات على المسلمين والمرتدين على السواء ، فأرسل أبو بكر طريفة بن حاجز لردعه فأسره وأتى به إلى المدينة ، فأمر الخليفة بحرقه حيا فى البقيع .

---

(1) ورد المتن فى الطبرى ، ج 3 ، ص 226 و 227 .

(2) الطبرى ، ج 3 ، ص 288

وكانت فى بنى تغلب التى تسكن فى حى يسمى جزيرة ابن عمر (شمال موسل) امرأة تسمى سجاح بنت الحارث بن سويد أدعت النبوة وتحدثت بكلام مسجع على طريقة كاهنات العرب ، وكانت هذه المرأة أصلا من بنى يربوع (بطن من بطون بنى تميم) وكانت تنتمى إلى بنى تغلب من ناحية الأم ، وكانت بنو تميم وهى من القبائل العربية الكبرى والهامة تمر بمرحلة من الاضطراب فى تلك الأثناء ، فقد ارتدت طائفة منها وترددت طائفة أخرى ، وانضمت إلى سجاح جماعة من هذه القبائل ومنها بنو يربوع بزعامة مالك بن نويرة ، وأحجمت جماعات أخرى عن الانضمام إليها ، وقاتلت سجاح المخالفين لها إلا أنها لم تخرج بنتيجة ، فخرجت عازمة على الاستيلاء على اليمامة وقبائل بنى حنيفة رغم أن اليمامة كان بها مدع آخر يسمى مسيلمة سيأتى ذكره فيما بعد ، فاضطربت الأمور وتداخلت القوى ، أما مسيلمة فلم يأمن على ظهره بالاضافة إلى تهديد جيش أبى بكر والقبائل المجاورة له ، فلم يقاتل سجاح ، بل استرضاها بقدر من الغلة ووعد بقدر آخر ، وعادت سجاح إلى دارها فى بنى تغلب بعد أن ظلت ثلاثة أيام فى اليمامة ، ومن المعروف أن سجاح ومسيلمة تزوجا فى هذه الأيام الثلاثة ، ولم تحقق سحاح تقدما كبيرا فى دعواها ، وقبلت الإسلام فيما بعد وظلت حية حتى زمن معاوية ، وتوفيت فى دارها فى الجزيرة وفى رواية أخرى فى الكوفة .

كان مسيلمة أو كذاب اليمامة ينتمى إلى قبيلة بنى حنيفة التى كانت فرعا من قبائل بكر بن وائل ، وكانوا يسكنون اليمامة ، كان بنو حنيفة يدينون بالمسيحية ويعملون بالزراعة فى معظمهم ، وكان مسيلمة يستمد جزءا من أفكاره من المسيحية ، وكان يطلق على الله اسم « الرحمان » وهو اسم معروف منذ القدم فى جنوب الجزيرة العربية ، وكان هو أيضا يطلق حديثا مسجعا على عادة الكهان ويسميه وحيا ، وكانت باليمامة قلاع قديمة من آثار الأمم الغابرة ومن بينها قلعة حجر التى اتخذ منها مركزا له .

بعد أن فرغ خالد من أمر طليحة اتجه إلى بنى تميم ومسيلمة ، إلا أن الأنصار فى جيشه رأوا ضرورة التريث وامتنعوا عن المضى معه استنادا إلى أن الأمر لم يصدر بعد من الخليفة فى هذا الشأن ، فمضى خالد مع المهاجرين ومن تبقى من الجيش فى طريقهم استنادا إلى عدم الحاجة إلى صدور أمر حين يتصل الأمر بعمل الخير، ففكر الأنصار فى أنه لو لحقت الهزيمة بخالد فإن اللوم سيقع عليهم لتخلفهم عنه وإذا ما تحقق له النصر

سيحرمون من الغنيمة ، فتحركوا فى أثره ولحقوا به فى الطريق .

وبلغ خالد البطاح التى كانت مركزا لبنى يربوع ، وكان الناس قد تفرقوا ، فأرسل خالد السرايا إلى المناطق المحيطة والطوائف التى تقطنها ،وكان الأمر قد صدر بقتل كل من لا يقيم الصلاة ويمتنع عن أداء الزكاة ، فتمكنت احدى هذه السرايا من أسر مالك بن نويرة وحشد من رجال بنى يربوع وجاءوا بهم إلى خالد ، كان مالك هذا شيخ بنى يربوع وكان عامل صدقة بين قومه فى عهد النبى ،وشهد عدد من رجال السرية بأن هؤلاء الأسرى أقاموا الآذان وأدوا الصلاة أى أنهم كانوا مسلمين،فحبس خالد الأسرى،وفى المساء أشار بقتلهم وأخذ امرأة مالك لنفسه فى تلك الليلة ، فحدث الاضطراب ، فقد اعترض أبو قتادة الذى كان من قدامى الصحابة وكان من الشهود على إسلام مالك بن نويرة على خالد ، فقال خالد :« هذه إرادةالله » وأغلظ القول لأبى قتادة ،فمضى أبو قتادة إلى المدينة وقابل أبا بكر وشكى إليه ، فاحتد عليه أبو بكر وأمره بالعودة إلى خالد على الفور ، فعاد، أما عمر فقد ثارت ثائرته على فعلة خالد ، فمارس ضغوطه على أبى بكر وطالبه بأن يعاقبه ، إلا أن أبا بكر لم يرفع حمايته عن خالد وقال لعمر : « ليس لى أن أثلم السيف الذى أشهره الله فى وجوه الكفار »،ثم قال فى شأن الذنب الذى ارتكبه خالد «أول فأخطأ»،ويروى الطبرى أن أبا بكر لم يكن ينفذ عقوبات فى عماله وموظفيه [1] ، وجاء أخو مالك متمم بن نويرة إلى المدينة مطالبا بالقصاص ، فأمر أبو بكر بمنحه دية مالك وإطلاق سراح أسراه ،واستدعى خالدا ووجه إليه اللوم،ثم أعاده إلى القيادة على غير إرادة عمر،ويعد موضوع خالد ومالك من النقاط التى بحثها المتكلمون باستفاضة [2].

بعد أن فرغ خالد من أمر البطاح اتجه إلى اليمامة لمحاربة مسيلمة بأمر من الخليفة ، وكان ذلك فى العام الثانى عشر بعد الهجرة والعام الثانى من خلافة أبى بكر ، وكان مسيلمة قويا نظرا لكثرة أعداد أنصاره من بنى حنيفة ، كما انضم إليه لاحقا جمع من بنى تميم ، لذا فقد لحقت الهزيمة بالجيش الذى كان أبو بكر قد أرسله بقيادة عكرمة بن أبى جهل قبل خالد ، وقام خالد فى البداية بتحييد بنى تميم عن مسيلمة ، وفى ربيع الأول

(1) الطبرى ، ج 3 ، ص 242 .

(2) انظر الشافعى وتلخيص الشافى ، طبعة طهران ، ص 423 .

هاجم خالد منطقة عقرباء التى كانت مقر مسيلمة وجيشه ، نشب قتال دام لم ير المسلمون مثيله حتى ذلك الوقت ،وتمكن بنو حنيفة فى البداية من شق صفوف المسلمين ووصلوا إلى قرب خيمة خالد وأطلقوا سراح أسراهم الذين كانوا فى يد المسلمين ، فولى جنود خالد الأدبار،إلا أن صمود خالد وثباته وشجاعة عدد من قادة جيشه أدى إلى إعادة تنظيم صفوف الجيش وتثبيته ، وعلى أثر ذلك ضعفت صفوف بنى حنيفة ، واحتشدوا فى مكان محوط ، فصعد براء بن مالك على أكتاف الناس إلى أعلى الجدار وشق طريقه نحو الباب بسيفه المشهر وفتحه ، فاندفع المسلمون إلى الداخل وأعملواسيوفهم فى قوات العدو،ولقى مسيلمة مصرعه على أثر طعنة حربة ،كان ذلك المكان قد أطلق عليه مسيلمة اسم « حديقة الرحمن»،فسماه المسلمون حديقة الموت،وانتهى الأمر باقرار الصلح على أن يقدم بنو حنيفة مقدارا من الذهب والفضة وكل ما لديهم من دروع ونصف ما لديهم من أسرى وشطرا من الأراضى المزروعة للمسلمين،وتزوج خالد ابنة مجاعة وهو أحد زعماء بنى حنيفة،وعندما بلغت أبا بكر أنباء المصالحة قام بالتصديق عليها إلاأنه وجه اللوم إلى خالد على زيجته هذه مما اعتبره خالد من مساعى عمر فقال:«هذا عمل الأعيسر »[1]، ويروى أن السبب فى موافقة خالد على إقرار الصلح هو أن نساء بنى حنيفة بعد هزيمة الرجال ارتدين لباس الحرب وتجهزن للمقاومة،وربما كان السبب خشية المسلمين من تحصن بنى حنيفة فى الحصون وإطالة أمد الحرب فرأوا المصلحة فى إقرار الصلح .

أدى فتح اليمامة إلى فتح الطريق إلى غزو البحرين ، ويروى المؤرخون أن حاكم البحرين المنذر بن ساوى العبد الذى اعتنق الإسلام فى زمن النبى توفى فى الشهر الذى توفي فيه النبى فارتد قومه وتحصن من بقى منهم على إسلامه فى قلعة تسمى جواثا وضاقت بهم الأحوال ، فجرد أبو بكر جيشا إلى البحرين بقيادة علاء بن الحضرمى ، فتشجع المحاصرون وخرجوا من القلعة وانضموا إلى جيش علاء ، وامتدت الحرب بين المرتدين والمسلمين ، ولم يرد لدى المؤرخين شئ عن موقف دولة الفرس التى كانت تسيطر آنذاك على البحرين أو عما إذا كانت قد تدخلت فى هذا الصراع .

---

(1) الطبرى ، ج 3 ، ص 253 .

وفى عمان امتنعت قبيلة أزد عن أداء الزكاة المقررة ، واحتشدوا فى دبا تحت قيادة شيخهم لقيط بن مالك ذى التاج الذى كان فى الجاهلية ينعم بأبهة الملوك ويروى أنه ادعى النبوة أيضا ، واقتربت جيوش أبى بكر بقيادة عكرمة بن أبى جهل ، وبعد قتال مرير انهزم المرتدون وآلت القلعة إلى المسلمين ومعها غنم وفير من مال وأسرى أرسل خمسه إلى أبى بكر ، بعد ذلك سار عكرمة بجيشه إلى مهرة ، وكان أهلها لا يزالون على غير دين الإسلام ،وكان لهم فى ذلك الوقت زعيمان متصارعان جمع كل منهما حوله فريقا منهم ، فاستفاد عكرمة من هذا الوضع ، فقد اغتنم زعيم الأقلية الأضعف فرصة دعوة عكرمة وانضم إليه واعتنق الإسلام وهكذا تم فتح مهرة بسهولة تامة .

وفى اليمن وبعد مصرع الأسود العنسى الذى مر ذكره فى أحداث العام الحادى عشر الهجرى فكر قيس بن عبد يغوث فى طرد « الأبناء » (ذوى الأصول الفارسية) من اليمن واقامة حكم حميرى ، لذا فقد أراد حشد زعماء اليمن الحميريين حوله ، إلا أنهم امتنعوا ، فجمع قيس أنصار الأسود وشكل منهم فريقا وراحوا يقطعون الطرق ، واغتالوا دادويه أحد زعماء الأبناء ممن اعتنقوا الإسلام ، ففر فيروز وكشتسب اللذان كانا قد قدما خدمة كبير ة للإسلام بقتلهما للأسود ، واستولى قيس على صنعاء ، ولكن لم يلبث فيروز حتى عاد بعدد كبير من قبيلة عك ، ففر قيس إلى نجران ، وأرسل أبو بكر قائدا يسمى مهاجر بن أبى أمية إلى اليمن ،وتم القاء القبض على قيس فى يسر وأرسل إلى المدينة ، لكن أبا بكر أطلق سراحه استنادا إلى عدم ثبوت تهمة قتل دادويه عليه أو إلى عدم معرفة أن دادويه كان مسلما .

وفى حضرموت كانت الأوضاع هادئة وكان أهلها باقين على الإسلام ، ولكن ثار بنو كندة فيما بعد بسبب جمل حصله عامل الصدقات زياد بن لبيد على سبيل الخطأ ولم يرده بعد أن وسمه ، وأتى عكرمة ومهاجر بن أبى أمية لدعم زياد وأوقعوا الهزيمة بالثائرين فى محجر الزرقان ، ولاذ الفارون بقلعة نجير ، فتصالح شيخ كندة الأشعث بن قيس مع المسلمين على سلامته وسلامة أسرته ، وفتح باب القلعة فى وجه القوات المحاصرة فأعملوا سيوفهم فى المحاصرين وغنموا أموالهم .

كانت العرب فى أثناء هذه الفتوح على اتصال بدولة الفرس ، كانت ثمة قبيلة ضخمة

تسمى ببكر بن وائل تقطن على ضفاف الفرات منذ أمد طويل قبل الإسلام وكانت تغير على المناطق العامرة التى كانت تحت سيطرة الفرس كلما وجدت إلى ذلك سبيلا ، وكانوا حين يتعرضون للمطاردة يتوغلون إلى داخل الجزيرة العربية ، وفى تلك الآونة وقعت دولة الفرس فريسة للضعف بسبب الاضطرابات الداخلية ، وعلى أثر ذلك كثرت الغارات من جانب اثنين من زعماء هذه القبيلة أحدهما المثنى بن حارثة الشيبانى فى منطقة الحيرة والآخر سويد بن قطبة العجلى فى ابلة ، فتشاور المثنى مع أبى بكر لعله يستفيد فى عملياته من قوى الإسلام ، وأوضح له مدى ضعف الدولة الفارسية ومواتاة الفرصة لغزو تلك البلاد ، وطلب جيشا طامعا فى أن يعطيه أبو بكر امارته ، لكن أبا بكر أمر خالد ابن الوليد بالتوجه إلى العراق ومحاربة الفرس بعد أن فرغ من أمر أهل الردة ، وجعل المثنى تحت أمرته ، واستولى خالد على الحيرة فى غضون شهر وتصالح مع أهل الحيرة على آداء خراج سنوى ، وأرسل من هذا الخراج مائة ألف درهم إلى المدينة ثم ولى أبو بكر خالد القيادة العامة لجيوش الشام ، فترك خالد الحيرة للمثنى واتجه إلى الشام وفتح عدة مدن على ضفاف الفرات ومن بينها مدن الأنبار وعين التمر ودومة الجندل ، ثم اتخذ طريقا شديد الوعورة والوحشة فى البادية فى سبيل سرعة الوصول إلى جيوش الشام ، فمر بجانب دمشق وأغار على القرى المحيطة وانضم إلى جيوش الإسلام فى واقوصة باليرموك.

وفى أواخر العام الثانى عشر بعد الهجرة عندما خف أمر الحروب الداخلية إلى حد ما عزم أبو بكر على تجريد حملة إلى الشام ، وكان زعماء المدينة يأملون فى اتخاذ تلك الخطوة ، إضافة إلى أن ذلك كان يمثل تهيئة عمل للعاطلين وباعثا للعرب على الكف عن ثوراتهم الداخلية ، لذا فبمجرد إعلان الجهاد انهال على المدينة سيل من المتطوعين من أرجاء الجزيرة العربية ، وأخذ أبو بكر فى تنظيم صفوف الجيوش وتجريدها كل تحت قيادة أمير من رجال قريش (ورجل قحطانى واحد) ، وأولى القيادة العامة أولا لخالد بن سعيد بن العاص ، إلا أن عمر اعترض عل توليته هذا المنصب استنادا إلى أن خالد بن سعيد كان ممن تخلفوا عن بيعة أبى بكر ، فقام أبو بكر بتنصيب أبى عبيدة بن الجراح فى المقام الأول ويزيد بن أبى سفيان الأموى فى المقام الثانى من امارة الجيش ، وأرسل خالد بن سعيد إلى التيماء مع فرقة من الجيش كاحتياطى للقوات، وخرجت الجيوش كل فى أثر

الآخر من طرق مختلفة وبأهداف واتجاهات متباينة .

خرجت قوات الروم لصد العرب فى مكان يسمى عربة [1] وانهزمت ، وانهارت قواته فى حرب أخرى فى دائنة ، فسارع امبراطور الروم هرقل الذى كان فى ذلك الوقت فى حمص إلى تعبئة جيش وجرده لصد العرب ، ووقعت المواجهة بين الطرفين فى اليرموك (مكان فى حوران ، بلاد الغساسنة) ، ونزلت قوات الروم فى جانب من واد يسمى وادى قوصة وحفروا خندقا ، وكانت جيوش العرب تهاجم وتقاتل فى مجموعات منفصلة ، واستمر هذا الوضع مدة ثلاثة أشهر من صفر إلى ربيع الثانى من العام الثالث عشر ، إلى أن أتى خالد بن الوليد من العراق لقيادة الجيش العامة ، فوجد الجيوش ، وعلى الجانب الآخر أيضا وصلت الامدادات إلى الروم وذات يوم التقى الجمعان واستمر القتال بينهما إلى جزء من الليل ، وفى النهاية لحقت الهزيمة بالروم ، وفى أثناء القتال وصل رسول من المدينة ومعه رسالة من عمر تنبئ بموت أبى بكر وتولى عمر للخلافة وعزل خالد عن إمارة الجيش وتنصيب أبى عبيدة بدلا منه ، وظل خالد يعمل بجيش الشام فترة من الزمن ولكن تحت قيادة أبى عبيدة .

توفى أبو بكر فى الحادى والعشرين من جمادى الأخرى من العام الثالث عشر بعد الهجرة عن ثلاثة وستين عاما وبعد خمسة عشر يوما من المرض والحمى ، وتم دفنه إلـــى جوار النبى ﷺ، كان أبو بكر طويل القامة قمحى اللون نحيفا، وكان محدب الجبهة، وكانت عظام وجهه بارزة وعيونه غائرة عميقة ، وكانت له لحية خفيفة مخضبة بالحناء ، وكان أبو بكر يبدو فى ظاهره رجلا رقيق القلب إلا أنه كان ذا عزيمة ماضية ويتسم بقوة الابتكار الخلاق ، وقضى مدة خلافته كما كان قبلها على نفس تبسطه وكرهه للأبهة ، ويروى أنه فى الشهور الستة الأولى من خلافته ظل يعمل بالتجارة كسابق عهده ، فكان يخرج ليلا إلى السنح ويأتى إلى المدينة نهارا ، وبعد ستة أشهر زادت مشغوليته فأقام بالمدينة ، كان أبو بكر يسمى « خليفة رسول الله » ، وكان يتقاضى ستة آلاف درهم كراتب سنوى ، وأصبح لقب « أمير المؤمنين » متداولا منذ عهد عمر ، ويطلق المؤرخون اصطلاح « الخلفاء الراشدين» على أبى بكر والخلفاء الثلاثة اللاحقين له .

---

(1) عربة بفتح الأول وسكون الثانى (مشكوك فيه ، ياقوت) مكان بفلسطين

خلافة عمر :

قرر أبو بكر فى مرضه أن يخلفه عمر وتبادل الرأى سرا مع كل من عبد الرحمن بن عوف وعثمان ، فأعربا له عن موافقتهما ، فدون وصية بهذا الشأن للمسلمين بخط عثمان وأمر الناس بأن يجتمعوا وسلم وصيته لغلامه ليقرأها عليهم وذهب عمر برفقة الغلام إلى المسجد ، فجمع الناس وقال « اسمعوا كلام خليفة رسول الله ، فهو لم يأل جهدا فى سبيل خيركم » ، فسكتوا وقرئت الوصية وسمع الناس وأطاعوا ، وفى ذلك الوقت أطل أبو بكر من داره وقال : « أرضيتم بمن اخترته خليفة عليكم ؟ إنى لم أختره من أهلى ، خليفتكم عمر » ،فأعلن الناس رضاهم ، وبهذا أوفى أبو بكر لعمر ما عاناه من أجله فى السقيفة ، [1] ولم يكن ثمة مجال للاعتراض نظرا للقوة التى كانت الخلافة قد اكتسبتها فى ذلك الوقت ، وكان إجماع « أهل الحل والعقد » - على حد قول متكلمى السنة - كافيا .

وعندما توفى أبو بكر تلقى عمر البيعة من الناس ،ثم ارتقى المنبر وكان أول ما قاله : « مثل العرب كمثل جمل عليه لجام ، يطيع قائده من ألم اللجام ، فينقاد له أنى ذهب ، أقسم برب الكعبة إنى لقائده » ، وكان عمر فى تحديده هذا صادقا وعمل به كما يتضح فى كتب التاريخ .

كانت الأوضاع فى فارس فى ذلك الوقت تتسم بالاضطراب الشديد ، وزاد من حدة الفوضى صراعات البلاط وتمرد الأمراء والخوانين المحليين ، وكان يزدجرد الثالث ابن شهريار قد اعتلى عرش طيسفون على أثر حروب داخلية عديدة ،وكان العرب يتمركزون فى الحيرة وكانت غاراتهم تمتد لتشمل المناطق القريبة من دجلة ، فاستدعى يزدجرد رستم ابن فرخ هرمز الذى كان واليا وقائدا عسكريا لإقليم خراسان وكلفه بقتال العرب ، وذهب المثنى بن حارثة إلى عمر بالمدينة وطلب منه الإمدادات ، وكان مسلمو المدينة يخشون

---

(١) يحاول المؤلف أن يصبغ المسألة بصبغة شخصية أو تصويرها كمجاملة من أبي بكر لعمر،إلا أن هذا أمر مفهوم نظرا لتشيع المؤلف ، ودليل ذلك ما أورده الطبرى (ج 3 ، ص 430) عن أبى بكر فى قوله (وددت لو أنى يوم سقيفة بنى ساعدة كنت قذفت الأمر فى عنق أحد الرجلين - يريد عمر وأبا عبيدة - فكان أحدهما أميرا وكنت وزيرا) ، المترجم .

الحرب ضد فارس ويتحاشونها ، لكن عمر حث الناس وشجعهم وسير جيشا بقيادة أبى عبيدة الثقفى الذى أنزل الهزيمة بقائدى رستم واحدا فى أثر الآخر ، وعبرت قوات المسلمين نهر الفرات فوق جسر صنع من قوارب لقتال القوات الفارسية واشتبكوا مع العدو على الضفة الأخرى من النهر ، وفى أثناء القتال أمسك أحد الفيلة الفارسية بأبى عبيدة ووطأه تحت قدميه ، فلاذ الجنود بالفرار بعد أن فقدوا قائدهم ، فقام أحد الجنود المسلمين بقطع الجسر أمامهم لكى يحثهم على الثبات ، ولكن كان الخوف أن يغرق الفارون فى مياه النهر ، وصمد المثنى وقبيلته بشجاعة فى مواجهة هجمات العدو إلى أن أعيد بناء الجسر فعاد المسلمون إلى مقرهم .

تأثر عمر تأثرا شديدا لهذه الهزيمة التى لحقت بقواته وقام بتجريد جيش جديد وأسند قيادته هذه المرة إلى المثنى ، وتمركز المثنى على ضفة النهر بالبويب فى انتظار هجوم العدو، فعبرت جيوش الفرس النهر بقيادة أحد النبلاء يسمى مهران وهاجم القوات العربية إلا أن تعداد القوات العربية كان كبيرا حيث جاء رجال بنى نمير من أطراف الشام لدعمها، فانهزم الفرس وأبيدت قواتهم نتيجة لقيام العرب بقطع الجسر ، وعندما لم يجد المسلمون مقاومة فى مواجهتهم استولوا على العراق كلها وحتى دجلة واتخذوا قلعة البصرة مركزا لقيادتهم .

انشغل رستم بتكوين جيش فى المدائن (طيسفون) ، فأنبأ المثنى عمر ، فجهز الخليفة جيشا بقيادة سعد بن أبى وقاص [1]، وشاركت فى هذا الجيش طوائف من الجزيرة العربية كلها تقريبا ،وتوافد المتطوعون من كافة الأرجاء ، وحـ ـ استقرت الأوضاع سبيانى الشام بعد فتح اليرموك تم إرسال قوات من الشام إلى العراق لقتال الفرس ، وجاء رستم إلى الحيرة فأخلى العرب مكانهم وتقهقروا ، وتمركز رستم بدير الأعور قرب مدينة الحيرة ، وجاء سعد من الناحية الأخرى وتمركز بقواته فى المكان الذى يطلق عليه اسم القادسية ، وفى تلك الأثناء توفى المثنى بن حارثة على أثر جروحه التى أصيب بها فى حروبه ولم تعالج ، وكانت وصيته لسعد أن يترك الفرس يهاجموا أولا وألا يبادر بالهجوم .

---

(1) كان سعد من رجال قريش ومن المقدمين فى الإسلام وكان من بين العشرة المبشرين بالجنة ، انظر أسد الغابة ، مادة « سعد »

ظلت قوات الفريقين فى المواجهة دون قتال مدة أربعة أشهر ، ويروى أن مفاوضات حرت فى تلك المدة ،وفى النهاية بادر رستم بالقتال واشتبك الجيشان ، كان سعد مريضا ولا يشارك فى القتال على خلاف عادة البدو وميلهم ، فكان يرقب العمليات القتالية من فوق قلعة القديس ، واستمر القتال لمدة ثلاثة أو أربعة أيام ، وفى اليوم الثانى أو الثالث وصلت الامدادات من الشام ، وحمى القتال على أثر ذلك لدرجة استمراره حتى الليل ، وفى اليوم التالى لقى رستم مصرعه ولحقت الهزيمة بقواته ، وبهذه الهزيمة انكسرت فارس كلها فى الحقيقة ،وكانت هذه المعركة أكبر معركة نشبت بين العرب والفرس وسقطت فى أعقابها بلاد فارس بأسرها فى يد العرب .

عبرت قوات المسلمين الفرات واتجهت صوب طيسفون ، وأبدى الفرس مقاومة فى نقطتين ولكن دون نتيحة ، ودخلت القوات الفاتحة طيسفون ، تتكون طيسفون التى يطلق العرب عليها اسم المدائن من سبع مدن على ضفتى نهر دحلة ، فظل الجانب الغربى بما به من استحكامات يقاوم لفترة ، ودات يوم خرج يزدجرد ببلاطه من المدائن وفر إلى حلوان ، فعبرت قوات المسلمين نهر دحلة سباحة وراء عاصم ، وسقطت المدائن وقصر الملك وما به من ثروات حمعت فى مدة أربعمائة سنة فى يد العرب ، ومن المعروف أنهم أخذوا من القصر بساطا منسوحا بخيوط الذهب ومصورا وحملوه إلى المدينة، ولم يكن بالمدينة مكان متسع يصلح لفرشه ، لذا دقد تم تقطيعه إلىَ قطع أصغر ووزع على شيوخ القبائل ، وبيعت قطعة منه فيما بعد بعشرين ألف درهم .

قام يزدجرد بتعبئة جيش فى حلوان ، وأرسله إلى طيسفون بقيادة مهران الرازى ، ووحه سعد جيشا لملاقاته بقيادة ابن أخيه هاشم ، والتقى الجيشان فى جلولاء (مكان بالقرب من خانقين) ، ونشبت حرب دامية قتل فيها كما يروى ما يقرب من مائة ألف من الفرس ، وغنم العرب الكثير وأسروا أعدادا كبيرة منهم (16 هـ) ، وفى أعقاب هذه المعركة التى كانت ثانية المعارك الكبرى بين العرب والفرس وثانية الهزائم الكبرى التى لحقت بالفرس لم يطق يزدحرد البقاء فى حلوان أيضا ،فاتجه إلى الرى عبر جبال كرمانشاه ، واستولى العرب على حلوان ، وكان عمر يرقب هذه العزوات بدقة عن بعد وكان يدقق النظر فى أدق التفصيلات ، ممنع قادته من التغلغل فى حبال فارس ، فقد كان خوفه من الحبال يضارع خوفه من البحار ، وأمر قطاعا من الجيش بالتمركز على الحدود وتوحيه بقية

الجيش لفتح ما تبقى من سواد بين النهرين ، وهكذا امتدت سيطرة جيوش المسلمين من تكريت إلى خوزستان .ورغم أن خوزستان واد مستو امتدت مقاومته مدة عام ، وفى النهاية سقطت بسقوط شوشتر ، وتم أسر هرمزان الى خوزستان ، وعقد أبو موسى الأشعرى صلحا معه مشروطا بموافقة الخليفة وتصديقه ، فتم نقل هرمزان إلى المدينة ، ويروى أن عمر أراد أن يقتله ، فطلب ماء وحصل على وعد من عمر ألا يقتله حتى ينتهى من شرب الماء ، فألقى وعاء من يده غفلة فانكسر ، فالتزم عمر بوعده فعفى عنه شريطة أن يعتنق الإسلام فأسلم ، ومنحه عمر دارا بالمدينة وقرر له راتبا ، وظل على هذا الحال إلى أن قتله عبيد الله بن عمر على أثر مقتل والده كما سيرد الذكر تفصيلا [1] .

وبعد موقعة شوشتر صدر الأمر إلى أحد الجيوش المتمركزة بالكوفة التى كانت مركز الجيوش العربية بدخول إيران ،فاحتل الجيش معابر زاجروس بسهولة وتقدم إلى كرمانشاه، والتقى الجيش فى نهاوند بجيش فارس بقيادة قائد متقدم فى السن يسمى فيروزان ، وامتد القتال طوال النهار ، وقتل القائد العربى نعمان بن مقرن وخلفه فى القيادة حذيفة بن اليمان الذى كان قد تقرر من جانب الخليفة أن يحل محل نعمان مسبقا ، وفى هذه الأثناء وصلت الامدادات إلى القوات العربية ويروى أن هذه القوات استخدمت خدع الحرب فى تقدمها ، على أى الأحوال تم فتح بلاد فارس على يد العرب عام 21 هـ .

فتح انتصار نهاوند الطريق أمام المسلمين لمد سيطرتهم على آسيا الوسطى،وكانت آخر حملة منظمة تشنها الدولة الساسانية فى مواجهة الغزاة ، ومنذ ذلك الحين انهارت فارس كدولة ، صحيح أن المدن الحصينة أبدت المقاومة حينا إلا أن الرى وقزوين وزنجان وآذربيجان سقطت جميعا فى يد العرب فى عام 22 هـ ، وفى العام التالى تم فتح همدان وكاشان واصفهان واصطخر ، وبعد فتح اصطخر التى كانت مأوى يزدجرد فر منها إلى سيستان ، وفى النهاية حط رحاله فى مرو ، فتقدمت جيوش العرب وراءه وفتحت كرمان وسيستان ووصلت إلى مكران ، واتجهت إلى خراسان كما سيرد الذكر فى خلافة عثمان .

- (1) الخبر الذى ورد لدى الطبرى هو أن عمر تشاور مع هرمزان بشأن الحرب مع فارس (الطبرى ، ج 4 ، ص 248 ، وقد يكون اهتمام عمر بهرمزان مرجعه الاستفادة من المعلومات المتوافرة لديه .

بعد هزيمة جيش الروم فى اليرموك كما سبق أن ذكرنا اتخذ من مدينة دمشق ملاذا وحصنا كما ذهب الامبراطور هرقل من حمص إلى أنطاكية بهدف تعبئة جيش جديد ، فاتجه أبو عبيدة إلى دمشق لفتحها بأمر من عمر ، وفى الطريق حدثت بعض المناوشات القصيرة مع الروم من بينها مواجهات وقعت فى مرج الصفر حيث قامت فرقة من الروم بمهاجمة فرقة من جيش المسلمين كانت تضرب خيامها فى ذلك المكان بقيادة خالد بن سعيد ولم يبق فى ميدان القتال منهم سوى خالد .

فى محرم من العام الرابع عشر بعد الهجرة قام العرب بمحاصرة دمشق ، وفى رجب حين قامت القوات العربية باحداث فجوة فى جدران القلعةأعلن الأهالى استسلامهم ، ويعتقد بعض المؤرخين بوجود علاقة بين الشقاق المذهبى بين زعماء دمشق الدينيين والامبراطور وبين هذا الاستسلام [1] ، على أية حال تحول فتح دمشق بهذه الصورة إلى مسألة خلافية فقهية فيما إذا كانت قد فتحت عنوة أم لا .

بعد فتح دمشق اتجه المسلمون [2] إلى فتح بقية مدن فلسطين والشام ، فترك أبو عبيدة يزيد بن أبى سفيان لحماية دمشق ومضى إلى حمص ، وأرسل خالد بن الوليد إلى قنسرين وعمرو بن العاص مع شرحبيل بن حسنة إلى بيسان وأطراف الأردن ، وتوالى فتح المدن تترى سواء بالحرب أو بالتصالح ، أما هرقل فلم يعد آمنا فى الشام فرحل إلى عاصمة بلاده القسطنطينية ، وفى أجادين بالقرب من بيت المقدس نشب قتال مرير بين القوات المسلمة بقيادة عمرو بن العاص وبين قوات الروم بقيادة أرطبون [3] (فى عام 12 هـ) ، وانتهى بانتصار المسلمين ، واتجه المسلمون بعد ذلك إلى محاصرة بيت المقدس ، وفى ذلك الوقت جاء الخليفة من المدينة إلى فلسطين ، وبمقتضى الأمر الذى كان قد

---

(1) هوار ، تاريخ العرب ، ج 1 ، ص 234 .

(2) يلاحظ أن الكاتب يستخدم لفظى « عرب » و « مسلمين » تبادليا مع ملاحظة استخدامه للفظ « عرب » فقط فى حديثه عن فتح فارس ، ويرى من حاسا أن القوات المسلمة دخلت إيران بصفتها الدينية لا العرقية ، المترجم

(3) يرى البعض أن موقعة أجادين سبقت اليرموك ، فى حين يرى البعض أن اليرموك وقعت عام 15 هـ ، وهناك خلاف كبير بين الرواة حول فتوحات الشام وتواريخها مما يوقع المؤرخين بدورهم فى بعض الاشتباه

أصدره من قبل اجتمع قادة الجيوش فى جابية معه ، ثم سلم أهالى بيت المقدس مدينتهم مؤثرين التصالح ، فدخل الخليفة بجيوشه إلى بيت المقدس (عام 15 هـ) ،وبعد أن ألف الناس أبهة موكب الامبراطور البيزنطى إذا بأعرابى يفد إليهم راكبا ناقة ويرتدى رداء من صوف الإبل ، ثم عاد عمر إلى المدينة فى حين استأنفت الجيوش فتوحاتها وتقدمت حتى سواحل البحر المتوسط .

فى تلك الآونة ظهرت مجاعة بالمدينة وطاعون فتاك بالشام يطلق عليه طاعون عمواس[1] ، وتوفى عدد كبير من قادة المسلمين والصحابة متأثرين بهذا الوباء ومن بينهم أبو عبيدة ويزيد بن أبى سفيان (عام 18 هـ) ، وترك قادة الجيوش إرثا ضخما واضطربت عملية تقسيمه بسبب وفاةوارثيه مما اضطر عمر إلى الذهاب مرة أخرى إلى الشام لتقسيمه وللأشراف على تحركات الجيوش تاركا عليا مكانه فى المدينة ، وفى الشام قام معاوية بن أبى سفيان قائدا عاما لجيوش الشام وكان فى ذلك الوقت يعمل بجيوش الشام تحت قيادة أخيه يزيد ، ومن هنا نشأت سيطرة معاوية على الشام التى أصبحت فيما بعد عاصمة الدولة الأموية ، وتمت السيطرة على الشام بفتح قيسرية (عام 19 هـ)، وهى المدينة التى يطلق الأوربيون عليها اسم « سيزاريه »[2] وورد ذكرها فى أحداث حياة المسيح ، وكانت مقر حكم الروم ، وفى أطراف العراق فتح الطريق نحو أرمينيا بالسيطرة على الموصل .

فى فترة محاصرة قيسرية قرر عمرو بن العاص فتح مصر بقرار شخصى منه ،وفى رواية بأمر من الخليفة،كانت مصر فى ذلك الوقت جزءا من الامبراطورية الرومانية وكانت تعج بالخلافات المذهبية البيزنطية وكان أهلها يعانون الفوضى واضطراب الأحوال، فحاصر عمرو مدينة باب اليون [3] فقام المسئولون الرومان بتعبئة الجيش،فطلب عمرو امدادات

---

(1) « عمواس » وردت فى الزمحشرى : قرية بفلسطين قرب بيت المقدس خرج منها الطاعون(من المراصد) .

(2) Cesoree فى حنوب حبل الكرمل .

(3) يدون العرب هذا الاسم بهذه الصورة ويدونه الأوربيون Babylone ،وللتمييز بينه وبين بابل يرفق دائما بكلمة « مصر » .

من الخليفة ، فأرسل عمر الزبير بن العوام لمساعدته ، وفتح جزء من مدينة باب اليون وبدأ العرب فتوحاتهم فى أرض مصر ، وعقد والى مصر الذي يطلق عليه المقوقس (1) معاهدة سلام مع عمرو دون الرجوع إلى الأمبراطور أو عماله ويقتضى هذه المعاهدة دخل المسلمون الاسكندرية دون حرب أو مقاومة (عام 20 هـ) ، وبعد فتح مصر اتجهوا إلى النوبة ، إلا أنهم ارتدوا عنها بعد أن أثخنهم أهل النوبة بالجراح على أثر ضربات السهام، أما بالنسبة لموضوع مكتبة الاسكندرية وما إدا كان عمرو بن العاص قد أحرقها بأمر الخليفة فلا يرد له ذكر لدى الطبرى أوغيره من الكتب التى تتناول الفتوحات، ولكن ابن العبرى وبعض المؤرخين من معاصريه كتبوا عن هذا الموضوع (2).

كان عمر بن الخطاب يؤمن بأنه لا يحب أن يفصله بحر عن قادته أينما وجدوا ،لذا فقد بنى عمرو بن العاص مدينة الفسطاط كمقر له يتصل بالبادية وفى المكان الذى نزل فيه بجيشه ، وكان ذلك المكان هو القاهرة القديمة .

قام عمر بوضع دعائم مؤسسات ادارية وتنظيمية لهذه الامبراطورية الضخمة التى فتحت له فى هذه المدة الوجيزة والتى كانت تزداد اتساعا يوما بعد يوم ، وهى الدعائم التى تعد أساسا لنظام الدولة الإسلامية ، وكان المصدر الذى استمد منه عمر تنظيماته على حد قوله هو كتاب الله وسنة الرسول ، وكان أحيانا يعتمد على رأيه واجتهاده الشخصى أو على فتاوى مستشاريه من الصحابة .

وتقرر ترك الأراضى المفتوحة لأهلها وأصحابها الأصليين على أن يتم تحصيل الخراج

---

(1) طل موضوع المقوقس وهويته ومصدر تسمته عامصا لمدة طويلة ، وأحيرا توصل العالم الانحليرى بتلر من بحوثه فى الوثائق الإسلامية الحديثة والمسيحية إلى أنه كان يسمى « قيرس » وكان من كبار رجال الكنيسة القوقازية نقله هرقل منها إلى مصر ونصبه فى الزعامة المادية والرومانية لمصر ، ولفظ « مقوقس » الذى اشتهر به مأخوذ من اللفظ اليونانى « قوقا سيوس » بمعنى « قوقازى » ، وينطق العرب اسمه بكسر القاف الثانية وفى الحبشة بفتحها ،انظر : فتح العرب لمصر (الترجمة العربية لكتاب بتلر ، طبعة القاهرة)

(2) انظر تاريخ التمدن الاسلامى ، ج 3 ، ص 40 وفتح العرب لمصر

منها، وهو الأمر الذى قرره النبى(ﷺ)من قبل بشأن أراضى خيبر، وبالاضافة إلى الخراج كان على الرعايا من غير المسلمين أن يدفعوا ضريبة أخرى هى الجزية. أما ضرائبالرعايا المسلمين فكانت الزكاة والصدقات،وكانت سارية منذ عهد النبى(ﷺ)، كما تقرر ألا يتخذ المسلمون فى خارج الجزيرة العربية ملكا لأنفسهم وألا ينشغلوا بالزراعة عن الحرب.

كان الدخل هائلا،فكانت العراق وحدها تؤدى لبيت المال بالمدينة مئة مليون درهم سنويا ،وكانت هذه الأموال تنفق كأعطيات وهبات للمسلمين،ولتنظيم هذه العملية تم تشكيل ديوان لإمساك الدفاتر الحكومية على غرارالنظام الرومى الذى كان معمولا به فى الشام[1]، وتم تدوين أسماء المسلمين حسب ترتيب القبائل ،وفى تسجيل أسماء الأشخاص كان يعتد بأسبقيتهم إلى الإسلام ،وبدأت بأهل بيت النبى ، وقام عمر بتقسيم الأعطيات إلى درجات ومراتب وكانت فى زمن أبى بكر موحدة للجميع ، فكان يقرر المزيد لقدامى المسلمين والمجاهدين فى الغزوات وأقرباء النبى ، وقرر لعائشة خمسة عشرألف درهم ولسائر أمهات المؤمنين اثنى عشر ألف درهم لكل منهن .

وتم رسم حدود لأهل الذمة لا يتجاوزونها ، فلا ينبغى لهم أن يحقروا القرآن ولا أن يسبوا النبى أو يتعرضوا لنساء المسلمين ولا يفعلوا ما يؤدى إلى تضليل مسلم أو تبديد ماله وروحه ، وألا يساعدوا أعداء الإسلام أو عيونهم ،وكان على الذميين أن يرتدوا ملابس تميزهم عن المسلمين ، ولم يكن من المسموح به أن يطل بيت ذمى على بيت مسلم ، وحرم عليهم ضرب النواقيس فى الكنائس وتلاوة كتبهم بصوت عال أو فى حضور المسلمين وشرب الخمر علانيةً ، وحظر عليهم الخروج بخنازيرهم على الملأ ، أو ركوب الجياد أو حمل السلاح وما إلى ذلك من أحكام لا يزال بعضها ساريا فى الجزيرة العربية، وكانت هذه الأحكام المشددة سببا فى تحول الذميين غالبا إلى دين الإسلام ،ولم يتواجد اليهود والنصارى والمجوس إلا فى المدن ، أما الرعايا الذين يسكنون الصحارى والمناطق الزراعية عامة والنصارى والمجوس إلا فى المدن ، أما الرعايا الذين يسكنون الصحارى والمناطق الرراعية عامة فقد اعتنقوا الإسلام ،وبقى سكان الجبال على دين آبائهم كما هو الحال بالنسبة للمسيحين من سكان جبال سوريا ممن لا يزالون على دينهم .

كان عمر يفرض رقابة مشددةعلى تنفيذ أحكامه ،وكان يخرج بنفسه ممسكا بعصا فى

---

(1) البلاذرى ، ص 454 .

يده ويجول فى الأزقة والأماكن العامة ويقوم بدور المحتسب ، وكان أحيانا يعاقب عماله، ومن بينهم خالد بن الوليد الذى غضب عليه عمر بسبب واقعة قتل متمم بن نويرة ، فعزله وصادر أمواله مع أول فرصة سنحت له ، ولكن بدأ عهد الثراء والتجمل منذ ذلك الوقت أيضا .

أصبحت للجيش أيضا تنظيمات بحكم الحاجة فى عهد عمر ، وتم اقتباسها من تنظيمات الروم ،فتم تأسيس معسكرات ثابتة لتمركز الجيوش فى نقاط بعيدة عن المدن حتى لا تكون هناك حاجة للتردد على المدينة جيئة وذهابا عبر الصحارى ، فأصبحت دمشق مركزا للشام ، والكوفة للعراق وفارس ، والفسطاط لمصر ، وفى هذه النقاط كان هناك دائما عدد من الجنود ومعهم قائد له صلاحيات حكومية وعسكرية ، وإضافة إلى هذه المراكز الثلاثة كانت ثمة مناطق أخرى أيضا تأتى فى الدرجة الثانية من الأهمية كالرملة بالشام والبصرة بالعراق،وتحولت هذه المناطق العسكرية فيما بعد إلى مدن هامة .

ولكن لم يتم تطبيق التنظيمات الادارية الجديدة فى البلدان المفتوحة ، بل اكتفى القادة والفاتحون بالإشراف على تحصيل الضرائب واضطروا إلى تنفيذ هذه العملية من خلال الدفاتر المحاسبية القديمة ، وكانت العملة المتداولة أيضا هى العملة المحلية ، وكان يتم اختيار المحاسبين من الفرس والروم ، وكانت الدفاتر فى فارس مدونة باللغة البهلوية وفى الشام باللغة الرومية (اليونانية) ، وكان القائمون على حسابات الضرائب فى الشام هم القساوسة وفى إيران الدهاقين الذين كانوا يتولون عملية جمع الضرائب وتحويلاتها ، وفى المناطق التى يقطنها مسلمون كان يتم تعيين قاض من قبل الخليفة لتولى الشئون القضائية للمسلمين ، وغنى عن القول أن غير المسلمين فى الدولة لم يكونوا يفيدون من هذه الأجهزة القضائية ولم تكن شهادة غير المسلم على المسلم معترفا بها .

بدأ التاريخ الإسلامى وحساب السنين فى عهد عمر [1] ، وكان ثمة خلاف حول ما إذا كان ينبغى اتخاذ بعثة النبى أم مولده بداية للتقويم ، ثم استقر الأمر على إقرار عام الهجرة كبداية له (عام 16 هـ) بناء على توصية من على .

---

(1) كان هناك تقويم وحساب للسنين فى الجزيرة العربية قبل الإسلام ويراه فى النقوش القديمة ، إلا أنه كان يتخذ مبدأه من حسابات شعوب موغلة فى القدم .

قام عمر فى زمن خلافته بإخراج كل النصارى واليهود من جزيرة العرب استنادا إلى وصية من النبى بألا يكون بالجزيرة دينان ، وقيل فيما يتعلق بالمعاهدات التى أبرمها يهود خيبر ونصارى نجران مع النبى إنها كانت موقوتة بمشيئة الله .

كان عمر يولى اهتماما خاصا إلى العنصر العربى ، فأمر الناس فى خلافته بإطلاق سراح أسراهم من العرب سواء من أسر منهم فى الجاهلية أو فى الإسلام فى مقابل فدية ، وقال « إنه ليقبح بالعرب أن يملك بعضهم بعضا وقد وسع الله عليهم وفتح الأعاجم»[1] ، وكان يهتم بصورة خاصة بالحج وبالكعبة،وقام بتوسعة المسجد الحرام بأزالة البيوت المحيطة به، وقام بإنشاء سد فى مكة لمنع السيول ، وقد ذهب إلى مكة مرتين للحج والعمرة .

ذهب عمر للحج عام 23 وكان بصحبته كل أمهات المؤمنين ، وعند عودته كان قد وفد إلى المدينة عدد من أمراء المناطق المحيطة للقائه والتشاور معه ، وكان من بينهم المغيرة بن شعبة أمير الكوفة ، وأتاه غلام فارسى من غلمان ذلك الأمير ويسمى فيروز ويكنى بأبى لؤلؤ ليشكو إليه سيده الذى يحصل منه على عشرة دراهم يوميا كضريبة ، فسأله عمر عن حرفته ،فقال : « أعمل بالنجارة والرسم والحدادة » ، فقال له عمر :« هذه الضريبة ليست كبيرة على كل هذه الصنع ، سمعت إنك تستطيع أن تصنع طاحونة تعمل بالريح » ، فقال « نعم » ، فأمره عمر بأن يصنع له واحدة ، فأحس أبو لؤلؤ بالغضب لإهمال شكواه ، وربما كان لمشاعره القومية دخل فى ذلك[2] ، ثم قال : « أن ظللت سالما سأصنع لك طاحونة تكون حديث الشرق والعرب » ، ومضى ، فأحس عمر بالتهديد من حديث الغلام ، وفى صباح اليوم التالى وبينما كان عمر يقف فى المسجد لأداء صلاة الجماعة اتجه إليه أبو لؤلؤ وطعنه بخنجر ذى حدين ، كما قتل شخصا آخر يسمى كليب كان يقف وراء الخليفة ولاذ بالفرار ، وفى أثناء احتضار عمر نادى عبد الرحمن بن عوف وأمره بإقامة الناس فى الصلاة،ونقل إلى داره بجروحه ، وبعد عدة أيام أمسك عبيد الله بن عمر بأبى لؤلؤ وقتله هو وابنته ومعهما شخصين آخرين أحدهما هرمزان الفارسى الذى سبق ذكره والآخر يسمى جفينة من أهل الحيرة وكان يعمل بتدريس الخط فى المدينة ،وقد

(1) الطبرى ، ج 3 ، ص 276 .

(2) بكاء أبى لؤلؤ على أسرى نهاوند ،الطبرى ، ج 4 ، ص 344 .

قتل هذان الشخصان بتهمة التواطؤ مع أبى لؤلؤ دون أن يكون ثمة دليل على ذلك ، وتم حبس عبيد الله عدة ساعات لقتلهما ، وأطلق عثمان سراحه فى أول أيام توليته الخلافة ، وكان هذا من الأمور التى أخذت على عثمان ونوقشت تفصيليا فى كتب المتكلمة .

انشغل عمر وهو على فراش الموت بمسألة تعيين خليفة له ، وبدلا من أن يصرح باختيار شخص محدد لهذا المنصب شكل محلسا للشورى يتكون من عبد الرحمن وعلى وعثمان والزبير وسعد بن أبى وقاص وطلحة إن عاد من سفره ، وحدد مهلة ثلاثة أيام يتم فيها اختيار خليفة بالأغلبية ، وإذا تساوت الأصوات ترجح أصوات الجماعة التى يكون فيها عبد الرحمن بن عوف وعلى الجماعة الأخرى أن تذعن وإلا تعرض أفرادها للقتل ، وتوفى عمر فى سن الستين أو ما يقرب من ذلك (فى عام 23 أو فى رواية عام 24 هجرية) ودفن بجواد أبى بكر والنبى ، كان عمر طويل القامة أسمر البشرة مسترسل الشعر وكانت له لحية كبيرة يكسوها الخضاب .

كان كل أعضاء هذا المجلس يرغبون الخلافة سوى عبد الرحمن ، واستمر التفاوض مدة يومين دون التوصل إلى نتيجة وفى اليوم الثالث استقر الرأى على أن يتخير عبد الرحمن إما عثمان أو على بالتعاون مع سعد ، وكان عبد الرحمن يميل إلى عثمان بحكم القرابة ، واقترح البعض عثمان فى حين أيد البعض الآخر اختيار على ،فاتجه عبد الرحمن إلى على وقال: «أتعاهدنى على أن تعمل بكتاب الله وسنة النبى وتحذو حذو أبى بكر وعمر؟ »، قال على:« قدر جهدى وطاقتى » وفى رواية أخرى أنه قال :«بكتاب الله وسنةالرسول » فقط ،فتوجه عبد الرحمن إلى عثمان بنفس السؤال،فأجابه عثمان « نعم »،فبايع عبد الرحمن عثمان وأخذه إلى المنبر حتى يبايعه الآخرون ،وفى الخطبة الشقشقية ثمة اشارة إلى كل من سعد وعبد الرحمن فى عبارة « فصغى رجل منهم لضغنه ومال الآخر لصهره » [1] .

---

(1) وردت هذه الفقرة فى « تاريخ ابن خلدون (الجزء الثانى و ص 365) كما يلى : [قال . " أرجو أن أجتهد بل أن أفعل مبلغ علمى وطاقتى » ، وقال لعثمان مثل ذلك فقال . « نعم » ، فرفع رأسه إلى سقف المسجد ويده فى يد عثمان وقال . « اللهم اشهد أنى قد جعلت ما فى عنقى من ذلك فى عنق عثمان » ، فبايعه الناس] ، المترجم .

خلافة عثمان :

فى عهد عثمان استمرت الغزوات والفتوحات الإسلامية على نفس الأساس الذى سارت عليه فى عهد الخليفتين السابقين ، وتمت فتوحات عديدة فى فارس وأرمينيا وآسيا الصغرى وشمال أفريقيا ، ووضع فاتحو الإسلام أقدامهم لأول مرة على أرض أوربا .

قام والى مصر عبد الله بن سعد بن أبى سراح بالسيطرة على شمال أفريقيا ، ودخل أحد قادته ويسمى عبد الله بن نافع الأندلس بالتعاون مع البربر عن طريق البحر(27 هـ)، وثارت مدينة اصطخر التى تم فتحها فى عهد عمر ، فقام جيش الإسلام بفتحها مرة أخرى (29 هـ) ، وتمرد الروم المقيمون بالإسكندرية بالتعاون مع الجيش الذى كان قد أرسله امبراطور الروم لنصرتهم ، وتم إخماد التمرد على يد عمرو بن العاص ، وتعرضت مدينة الاسكندرية للدمار نتيجة لذلك (عام 25 هـ) ، وهاجم سعيد بن العاص كلا من جرجان ومازندران وعاد بالأسرى والغنائم الوفيرة إلى الكوفة (عام 30 هـ) ، وقام حبيب ابن مسلمة بفتح أرمينيا وتقدم حتى وصل إلى بحيرة وان (30 هـ) ولكن فى القوقاز تعرض الفاتحون المسلمون للهزيمة بعد حروب عديدة مع الخزر ، وأبيد سلمان بن ربيعة وجيشه عن آخره بالقرب من دربند .

عندما يأس يزدجرد الملك الساسانى تماما من جنوب فارس ورفض اقتراح أمير طبرستان الذى أراد أن يحمي الملك فى جبال مازندران ارتد إلى مرو على أمل أن يحصل على العون من الصين أو تركستان ، وكان هذا هو نفس الطريق الذى سلكه دارا الثالث فى فراره من الاسكندر، ولكن فى مرو اعترض والى خراسان على عودة يزدجردوأثار ضده أحد أمراء الترك على الحدود ، وفى رواية أخرى خرج بنفسه لقتاله ، على أية حال فقد هرم يزدجرد وأغلقت بوابات مرو فى وجهه ، فدخل طاحونة على نهر مرغاب حيث وجده حراس الوالى وقتلوه،وفى رواية أخرى قتله صاحب الطاحونة (31 هـ)،وفى تلك الأثناء جاء القائد العربى عبد الله بن عامر لمطاردة يزدجرد ومد سيطرته على كرمان ومن بعدها خراسان ووصل حتى ضفاف نهر جيحون ، وتقدم عن طريق سيستان حتى بلغ كابل.

وفى الشام وصل حيش الفتح الإسلامى فى أواخر عهد عمر إلى ساحل المتوسط، وفكر معاوية بن أبى سفيان الذى كان والى الشام وقائد قواته فى ذلك الوقت فى أن

ينشئ قوة بحرية توفر اللازم لها من مواد ومكونات على سواحل سوريا ، إلا أن عمر لم يأذن له لخوفه من البحر والسفن ، وفى عهد عثمان حصل معاوية على إذن الخليفة وبنى عددا من السفن وذهب إلى قبرص بمساعدة السفن المصرية وهاجم الجزيرة فى عام 28أو 29 هـ ، وكانت الشام من الثغور الهامة ، وفى كل عام كانت بعض الفرق الحربية تعبر آسيا الصغرى وتهدد عاصمة ملك الامبراطور،بل وفى إحدى المرات تقدم معاوية حتى وصل إلى« مضيق القسطنطينية » أى الدردنيل حيث دخل فى حرب ضد الأغريق (32 هـ) .

كان الجيش يقوم بغزوتين كل عام ، غزوة فى الصيف وأخرى فى الشتاء ، وكان الناس يفدون من داخل الجزيرة العربية ومن مختلف بقاع الدولة الإسلامية بهدف العبادة أو طمعا فى الغنائم ويتمركزون فى معسكرات الحدود التى كانت تسمى « رباط » ، وكان مركز القوات البرية فى ذلك الوقت فى أنطاكية بالشام ، وكانت مصر مركز القوات البحرية ، وكانت حدود المناطق غير المسلمة المجاورة تسمى «ثغور» ، ومن المدن ما كان يتم غزوه بالحرب(مفتوح العنوة) وكانت تؤول إلى الفاتحين بما يتم جمعه من أسرى وغنائم أقليمية ، وفى المدن التى يتم فتحها بالتصالح كان الفاتح يكتفى بتحصيل الضريبة النقدية وتعهد بتسليم الخراج السنوى ، وفى الأوقات التى تكثر فيها الغزوات وضرورة انتقال الفاتحين من جبهة إلى جبهة أخرى كان يتم قبول عروض الصلح بصورة فورية ، ولكن غالبا ما كان أهالى المناطق المفتوحة يثورون فى أعقاب عودة الفاتحين وفى هذه الحالة كان لابد من تجريد حملة جديدة إليها ، فمن المدن ما تم فتحه مرتين وثلاث مرات .

وفى عهد عثمان ، لاحظ بعض الصحابة أن الناس لا يقرأون القرآن بصورة واحدة فى كل مكان فشاعت قراءات مختلفة له ، فراجعوا الخليفة فى هذا الشأن ، فقرر نسخة واحدة وأمر بتوحيد القراءات ، وأخذ من حفصة بن عمر الأوراق التى كان زيد بن ثابت كاتب النبى قد جمعها فى عهد أبى بكر وبأمر منه ، وكانت هذه المجموعة لدى حفصة ،وأمر زيدا نفسه ومعه جماعة أخرى بتدوينها فى مصحف ، وفيما يتعلق باختلاف القراءات أقر لهجة قريش التى نزل القرآن بها ، وأرسلت إلى كل المناطق الإسلامية نسخ من هذه النسخة التى أطلق عليها اسم « مصحف الإمام » وتم إحراق بقية المصاحف ، وفى الكوفة اعترض عبد الله بن مسعود الذى كان من كبار الصحابة ومن القراء المشاهير على ذلك الاجراء إلا أن اعتراضه لم يكن ذا بال نظرا لموافقة الأغلبية ، وحرى بنا أن

نذكر أن عليا بن أبى طالب اتجه إلى جمع القرآن بعد وفاة النبى أيضا .

كان عثمان يخرج لآداء فريضة الحج فى كل سنة (عدا آخر سنوات خلافته) وكان يتولى إمارة الحاج بنفسه ، وكان يصطحب نساء النبى ﷺ معه اتباعا لسنة استنها عمر، وفى السنة الثانية من توليه الخلافة (26 هـ) قام بتوسعة ساحة المسجد الحرام ، فاشترى بعض الديار وأزال ديارا أخرى امتنع أصحابها عن بيعها وحول أثمانها إلى بيت المال ، كما قام بتوسعة مسجد النبى مستخدما فى ذلك حجارة منقوشة ودعم أعمدته الحجرية بالرصاص (29 هـ) ، وفى إحدى السنوات وفى موسم الحج أتم الصلاة فى منى فى حين كان النبى ﷺ وخليفتاه من بعده وحتى عثمان نفسه يؤدون الصلاة حتى ذلك الوقت قصرا ، ولقى هذا الاجراء اعتراضا شديدا من الصحابة فقال « هذا رأى رأيته » ، فسكت الصحابة تفاديا للخلاف .

فى ذلك العهد كانت الغنائم وفيرة على حد قول عثمان « زمن كمال النعم وفيض الدنيا » فزادت الهوة بين الغنى والفقير اتساعا ، وكان أمراء الجيوش وعمال الولايات وكل من أطلقوا على أنفسهم لقب « أهل الشرف والبيوتات والسابقة والمقدمة » وكل من كان يتصل للخلافة بشأن قد أصحوا أصحاب ثروات طائلة وزاد اهتمامهم بزينة الدنيا مما جنوه من الأقاليم المفتوحة ، وصار لهم ملك وخدم وأبهة ، وتنامت الملكيات الضخمة فى الأراضى المفتوحة .

كانت حكومة عثمان فى الحقيقة حكومة أشراف قريش ، وكان عثمان فى الجاهلية من أكبر تجار مكة ومن أشد أهلها ثراء ، وحتى فى زمن خلافته ظل يعمل بالتجارة والمعاملات الخاصة وكان يتنعم بالحياة ، وكان يقول فى رده على من يذكرونه بزهد عمر «رحم الله عمر » ، وفى عهده تولى زعماء بنى أمية من أقاربه أزمة الأمور وخصوا أنفسهم بالمناصب الحساسة والأعمال المربحة ، وكان عثمان يبدو تجاه أقاربه فى حالة استسلام تام ، وكان يمنحهم أنصبة كبيرة من الأموال العامة ، وعندما كان الناس يعترضون على ذلك كان يجيبهم « إنهم قوم فقراء ، وأنا أصل الرحم مما تحت يدى من أموال ، وكان النبي نفسه سخيا مع أهله » ، وكان الاجراء الجرئ الذى أقدم عليه عثمان تجاه الحكم بن أبى العاص الأموى وولده مروان بمثابة نموذج على اهتمامه ببنى أمية، كان

الحكم هذا عم عثمان ، وفى الجاهلية كان يعادى الإسلام والرسول ﷺ عداء سافرا ولا يرعى حرمة فى خصومته ، وبقى ابنه مروان مدة فى المدينة يتظاهر بالإسلام لدى النبى ويقوم بالتجسس على الكفار والمنافقين من قريش ، ثم نفاه النبى ﷺ مع أبيه الحكم من المدينة ، ولم ينقض كل من أبى بكر وعمر هذا الأمر رغم كل ما عرفنا به من اجتهاد ، أما عثمان فما أن تولى الخلافة أطلقهما بل وجعل من مروان كاتبا للخلافة ومستشارا لها وأمينا لسره وأغناه من أموال الغنائم كما منحه خمس غنائم مصر .

كان تسلط بنى أمية يخالف النتيجة المنطقية التى أقرت للخلافة فى السقيفة ، فقد قيل فيها إن الخلافة لقريش حيث أن قريشا أشرف العرب ، من ثم حق لبنى أمية أن تكون أشرف قريش ، وكما رأينا فى الفصول السابقة استقرت السيادة فى قريش فى الأسرة الأموية بعد بنى هاشم ، إلى جانب أن رجال السقيفة كانوا يضعون فى اعتبارهم ألا يدعوا الخلافة لبنى هاشم ،ولا شك أن ساحة بنى أمية لم تكن مهيأة بعد فى انتخابات الخلافة الأولية ، فقد كانوا قوما حديثى الإسلام ولا تتوفر فيهم أسبقية الإيمان ، وكانوا فى الجاهلية يبادرون الإسلام عداء صريحا لا تزال ذكرياته واضحة فى أذهان الناس حينئذ، وظل شيخ بنى أمية أبو سفيان على عداوته للإسلام حتى آخر لحظة ممكنة ولم يدخل الإسلام إلا مضطرا ، لذا فقد استقرت الخلافة الأولى والثانية فى أسرتين صغيرتين من قريش هما تيم وعدى ، ومع ذلك كان لأبى سفيان نفوذ كبير فى عهدى الخلافة الأولين ، وتولى ولداه يزيد ومعاوة أكبر امارتين فى عهدى أبى بكر وعمر .

وعندما تولى بنو أمية الخلافة فى عهد عثمان اختالوا كبرا وحدث ما كان عمر قد استبعد بنى هاشم من الخلافة خوفا من حدوثه ، فكان معاوية يقول : « إن قريش أسمى العرب حسبا ونسبا وجاها ورجالا ، وكانوا أحباء الله فى الجاهلية ، فلم تمتد إليهم يد ملك من ملوك الأرض ، وهم أولى بذلك فى الإسلام » ، وكان يقول أيضا : « إن قريشا كلها تعرف أن أبا سفيان أكرم قريش وابن أكرم قريش ، ولو كان الناس جميعا من نسل أبى سفيان لكانوا جميعا ذوى عقول راجحة » ، وحين فتح سعيد بن العاص بلاد العراق كان يعتبر نفسه ملك قريش وكان يقول . « إنما هذا السواد بستان لقريش » ، وكان مروان كاتب عثمان يقول لمن يهاجمون سياسات عثمان:«أتريدون أن تنازعونا فى ملكنا ، اذهبوا فما نحن بمغلوبين » .

ورغم أن عثمان كان يتبع سبيل عمر فى النهى عن المنكر والضرب بشدة على أيدى مرتكبيه وعدم التهاون فى أتفه المنكرات والمعاقبة بالجلد والسجن على مقترفيها إلا أنه كان يغض الطرف عن هذه المفاسد الجوهرية [1] ، وكان ينحاز إلى أهله وأقاربه فى مواجهة المعترضين ، وكان أحيانا يعاقب معارضيه بالنفى الجماعى أو السجن ، وكان النفى من العقوبات المألوفة لعثمان حتى اعتبره الناس بدعة ابتدعها عثمان .

لم تكن هذه الأوضاع سائغة بالنسبة للمسلمين الذين رأوا النبى فى حياته وعاصروا سيرة خليفتيه ، فعلت أصوات الاعتراض فى كل مكان ، ومن بينهم أبو ذر الغفارى أحد أكبر صحابة النبى والذى كان بالشام مشاركا فى غزوة (وفى رواية أنه كان منفيا هناك) ، كان أبو ذر يرى تجمل معاوية وكان يعترض عليه لزعمه أن أموال المسلمين هى مال الله حتى يستطيع أن يخص نفسه بها ، وكان يقول أن آداء الزكاة لا يسقط التكليف عن الأغنياء ، بل عليهم أن يسهموا بمالهم فى التخفيف عن جيرانهم وذويهم وأخوانهم فى الدين حتى لا يحبسوا المال عليهم مستشهدا بقوله تعالى﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (سورة التوبة آية: 34)،
فقبض معاوية على أبى ذر بأمر من الخليفة وأرسله تحت الحراسة إلى المدينة ، وعندما كرر ما قاله فى المدينة نفى إلى ربذة [2] وظل بها إلى أن توفى عام 32 هـ) .

واتسعت دائرة الاحتجاج فى البصرة والكوفة ومصر حيث أخذ الناس يشكون فى المحالس العامة من حور عمال الدولة وأقرباء الخليفة وتصرفاتهم غير المقبولة فى المال العام ، ودار الحديث عن تعدى قريش على المسلمين وشكوى الناس منهم [3] ، وفى بؤرة

---

(1) يحاول الكاتب أن يسقط كل مساوئ بنى أمية على عثمان ، وكان الأحرى به أن ينأى بنفسه عن التحيز فى بحثه خاصة وأنه تحرى الدقة فى مواضع كثيرة أخرى من كتابه ، (المترحم) .

(2) هذه الرواية للواقدى ، ويروى الطبرى أخبارا أخرى مفادها أن أبا ذر « ذهب إلى ربذة برضاه لا نفيا حتى لا يرى فساد أهل المدينة » ، وتحظى أخبار الطبرى بالشيوع كما يقول ابن أبى الحديد ، وقد أحجم الطبرى بصورة عامة عن إيراد الأخبار التى تشتم فيها الاساءة إلى عثمان كما يعترف هو نفسه ، ويكتفى ابن الأثير بالنقل عن الطبرى .

(3) وردت الشكوى من قريش أى من المؤسسة الحاكمة فى ذلك الوقت فى نهج البلاغة أيضا ، انظر شرح نهج البلاغة ، ج 3 ، ص 36

هذه الحركة المعارضة كان رجل من أهل اليمن يقيم بالبصرة ويسمى عبد الله بن سباكة ويطلق عليه رواة الأخبار اسم « ابن السوداء » نسبة إلى أمه ، ويقال إنه كان يهوديا وأسلم ، وكان لهذا الرجل نشاط فعال فى اثارة الناس على الأوضاع فى الدولة لدرجة أن اعتبره كثرة من المؤرخين العنصر الأصلى فى هذه الحركة ، وتم نفيه من البصرة إلى الكوفة ومنها إلى الشام وفى النهاية إلى مصر ، وكان يتابع نشاطه الثورى فى كل من هذه البلاد ، وإلى جانب التحامل على عثمان كان ابن سبأ يدعو إلى أصل الوصاية فى الإمامة بمعنى أن لكل نبى وصيا وأن وصى نبى الإسلام هو على وأن الخلافة حق له دون غيره ، وجمع ابن سبأ الثائرين على الأوضاع حوله وربط بين المدن عن طريق المراسلة بحيث أوجد جماعة تشبه الأحزاب السياسية . لذا ، فإن أهل الأخبار يطلقون على معارضى عثمان على إطلاقهم اسم « السبائية » .

كانت المدينة، مقر الخلافة والحكومة، لا تزال هادئة،فأمر عثمان والى البصرة ووالى الكوفة بنفى المعارضين فى إمارتيهما بصورة جماعية إلى الشام لدى معاوية،وأبقاهم معاوية لبعض الوقت. وبعد عدة جلسات للتفاوض معهم كتب إلى الخليفة بأنهم يمكن أن يتسببوا فى إفساد عقيدة أهل الشام وأنه يبغى إعادتهم إلى بلادهم لكى يخف نشاطهم، فأعيدوا إلى ديارهم حيث أستأنفوا نشاطهم،فعاد والى الكوفة إلى الشكوى منهم ، فأمر الخليفة بنفيهم هذه المرة إلى حمص لكى يقوم واليها عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بتأديبهم،فعاقبهم عبد الرحمن عقابا هينا ثم أطلقهم ليعودوا إلى الكوفة،وبعد فترة أرسلوا إلى الخليفة نائبا عنهم يطالبونه بالتوبة عما بدر منه من أخطاء،فرد الخليفة بتحقير رسولهم.

فى النهاية خرجت المدينة عن صمتها [1] وظهر فيها المعارضون أيضا (34 هـ) ، فكتب عدد من الصحابة بها إلى أصحابهم على حدود الدولة قائلين « إن شئتم الجهاد فالجهاد ها هنا ، تعالوا ، فدين الله فى معرض الخطر » ، وكان من بين المعارضين فى المدينة عمرو بن العاص الذى كان عثمان قد عزله عن ولاية مصر مما أوغر صدره على الخليفة فأخذ يحرض الناس عليه،واتبع المداراة فى بداية الأمر إلا أنه أسفر عن حنقه على

---

(1) كان قيام المدينة فى عام 34 هـ حسب رواية الواقدى الذى نقل عنه الطبرى ، فى حين أن بعض القرائن ترجح حدوث ذلك فى العام اللاحق أى 35 هـ

عثمان حين أخذ موقف الخليفة يزداد صعوبة ، وكان أيضا من بين المعارضين جماعة ساورتهم المطامع فى الخلافة بعد عثمان وما كانوا ليستاءوا لو سقط عن الخلافة ومنهم طلحة والزبير ومعاوية .

كان عثمان يدافع عن نفسه من هذه الانتقادات من فوق المنبر وكان يرى أن « عمر كان يفعل نفس هذه الأشياء لكن الناس كانوا يخافون بطشه فلا يعترضون » وأنهم الآن « يستغلون لينه » ، وكان يقول « إذا لم يكن للإمام سيطرة على فائض المال العام إذن ما معنى الإمامة ؟ » ، وفى النهاية يتوعد الناس قائلا « أنا أكثر قوما من عمر ، ولدى من يستطيعون إخضاعكم بطريقة أخرى ولكنى أحول بينهم وبينكم » ، وكان يرمى فى اشارته هذه إلى بنى أمية ، وكان مروان يهب للدفاع عن الخليفة قائلا « إن شئتم كان السيف حكما بيننا وبينكم » .

رغم هذا الوعيد إلا أن عثمان كان قلقا على ما آلت إليه الأوضاع ، لذا ، ففى أواخر عام 34 هـ عندما تولى إمارة الحاج إلى مكة لآخر مرة أمر بجمع أمرائه فى مكة للتشاور معهم فى مجريات الأمور واستقر الرأى على مقاومة ثورة الناس ، ثم أمر أمراءه بالعودة إلى ولاياتهم واتباع الشدة مع المعارضين وارسالهم إلى المعسكرات، بل وقطع الصلات عنهم إن لزم الأمر حتى يحتاجوا إلى الخليفة ، وعندما اجتمع هذا الجمع بمكة حدث اتصال بين ثلاث ولايات معارضة ، وقرر أمراؤها ألا يدعوا الولاة يعودون إلى ولاياتهم ، إلا أن هذه الخطة لم تنفذ إلا فى الكوفة ، فأعاد أهل الكوفة واليهم سعيد بن العاص من مشارف الكوفة وكتبوا إلى الخليفة أن يرسل إليهم أبا موسى الأشعرى وهو ما قبل به الخليفة ، عندئذ قامت الولايات الثلاث بإيفاد جماعات ممثلة لها إلى المدينة تجدد مطالبها القائمة على عزل العمال الذين كانوا فى مناصب هامة فى ذلك الوقت ، ووقف تجاوزات الأقارب واصلاح أخطاء الماضى وتوبة الخليفة وتجديد تعهداته ، إلا أن الخليفة بنى فى المسجد من جديد أدلة براءته ولم يعترف بهذه المطالب فى مجملها ، ولم يقبل سوى رد خمس غنائم مصر إلى بيت المال بعد أن كان قد وهبه لابن أبى السرح واليه على مصر ، وأكد على أن كلا من أبى بكر وعمر كانوا يهبون مثل هذه الهبات من أموال المسلمين .

وعاد ممثلو هذه الولايات ،وتأكد أن الخليفة غير مستعد للتوبة ، وفى شوال عام 35 هـ

قامت المدن الثلاث بالتعاون فيما بينها وطبقا لخطة مرسومة بحشد ستمائة رجل من كل منها وفى رواية ألف رجل والتحرك صوب مكة بقصد أداء العمرة ، ونزل هذا الجمع فى مكان بالقرب من المدينة وكان هدفهم إنهاء أمر عثمان إما بالإقالة أو بالقتل ، حينئذ أوفدوا ممثلين عنهم إلى المدينة ، فاتجه ممثلوا المصريين إلى على والبصريين إلى طلحة والكوفيين إلى الزبير يطالبون هؤلاء الزعماء بالتدخل ، وقام معارضو المدينة أيضاء واحتدم الأمر بينهم وبين الخليفة فى المسجد ، فأغلظوا له القول بل وذات يوم أخذوا عصا الخلافة من يده وكسروها ، فخاف الخليفة وتوسل بعلى ومحمد بن مسلمة الذى كان أيضا من الزعماء المقبولين فى المدينة ، فتباحث على ومحمد مع المعترضين واستقر الأمر على أن يعلن الخليفة توبته ويصلح ما وقع من أخطاء فى الماضى ، على أن يتم ما تيسر من ذلك بالمدينة فى غضون ثلاثة أيام والبقية فى مدة زمنية مناسبة ، وعقدت معاهدة بذلك وتحرك المعارضون للعودة إلى ولاياتهم ، ولكن ما أن غادروا المدينة ارتقى عثمان المنبر بتحريض من مروان وأعلن نكوصه عما تعهد به ، وقال إن المصريين عادوا بعد أن أدركوا أنهم كانوا مخطئين . ومن ناحية أحرى، قابلت جماعة المصريين رسولا موفدا من قبل عثمان إلى مصر برسالة من الخليفة إلى واليه عليها مفادها أن يلقى الوالى القبض على زعيم جماعة المصريين حال وصوله إلى مصر وأن يجلده ويحلق رأسه ولحيته وأن يلقى به فى السجن ، فعادت جماعة المصريين فى التو إلى المدينة ومعهم أهالى البصرة والكوفة ، فدخلوا المدينة دون تردد وطالبوا بإعفاء الخليفة من منصبه جديا ، ولكنه امتنع قائلا « إن قطعتم رأسى لن أتنازل عن هذا القميص الذى ألبسنيه الله ولن أدع أمة محمد صلى الله عليه وسلم بلا صاحب »، ودامت المفاوضات مدة ثلاثة أيام كان عثمان يأتى خلالها كل يوم إلى المسجد لإمامة الناس، وكان المعارضون يتصايحون ويعترضون، فتوسل عثمان مرة أخرى بعلى ومحمد بن مسلمة وطلب منهما إقناع الناس مرة أخرى بالاكتفاء بتوبته، إلا أن عليا ومحمدا أحجما عن التدخل بعد أن لم يبق مجال للصلح نتيجة لنكوصه عن تعهداته. فى تلك الأثناء، كان عثمان قد كتب إلى الولايات وطلب تعبئة الجيوش من كل مكان وإعدادها لمقاومة شديدة ، وذات يوم هاجم الناس الخليفة بالحصى والحجارة فى المسجد، فسقط على الأرض وحملوه إلى داره، فحاصر الثائرون الدار وحبسوا عنها الماء، فتدخل على حتى يسمحوا بمرور الماء، واستمر الحصار اثنين وعشرين يوما، وعندما سمع

الثوار بأن الخليفة استدعى الجيوش من الولايات وأن هذه القوات سرعان ما تصل أصروا على اقتحام الدار، وحدث أن رمى أحد غلمان عثمان رجلا من الصحابة كان عثمان يتحدث إليه من أعلى البيت بسهم فقتله ، فثار الثوار واقتحموا البيت وطالبوه بالتنازل عن الخلافة لآخر مرة إلا أنه أصر على امتناعه ، ولم يبد قبوله إلا للتوبة ، فقتله الثوار بينما كان ممسكا بالمصحف فى يده (فى ذى الحجة عام 35 هـ) .

كان عثمان حين توفى شيخا يزيد عمره عن الثمانين ، وكان متوسط القامة غزير الشعر ، وفى وجهه ندوب ، وكانت له لحية عريضة كثة ومخضبة ، حمل جثمان عثمان بسرعة وفى وجل ليلا إلى البقيع حيث دفن فى ركن بعيدا عن سائر القبور .

خلافة على :

تعطلت عملية تعيين خليفة بعد عثمان لعدة أيام، فكان المصريون يريدون عليا بن أبى طالب فى حين كان البصريون يريدون طلحة، وكان أهالى الكوفة يشايعون الزبير، وفى النهاية اجتمعوا جميعا على نصرة على، ووافقهم جمهور أهل المدينة على هذا الرأى، لكن عليا كان يمتنع طوال هذه المدة عن قبول اقتراح الناس وكان يختبئ عن عيونهم، وفى أحد الأيام التف الناس حوله فقال «دعونى والتمسوا غيرى فإنا مستقبلون أمر ا له وجوه وألوان لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول وإن الآفاق قد غامت والمحجة قد تنكرت، واعلموا أنى إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب وإن تركتمونى فأنا كأحدكم ولعلى أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم ، وأنا لكم وزيرا خير لكم منى أميرا»[1]، يتضح من ذلك أن عليا كان يدرك تماما تعقد الأوضاع فى المجتمع الاسلامى، فقد خرج أشراف قريش الذين كانت لهم الخلافة فى هذه السنوات الأخيرة عن طريق الرسول صلى الله عليه وسلم وأوشكوا على الانتكاس إلى عصر الجاهلية، فلم يكن لهم هدف سوى تأمين مصالحهم المادية واستعادة مكانتهم القديمة، ولا شك أن أى خليفة يحاول أن يغير هذا الوضع كان سيلقى معارضة ومقاومة شديدة من جانب قريش خاصة فى ذلك الوقت حيث تورط بنو أمية في خلافة عثمان بصورة كاملة

(1) نهج البلاغة والطبرى ، ج 5 ، ص 126 .

وكانوا يمثلون مراكز وقوة كبيرة بالشام وما وراءها ، لكن الناس لم يتركوا عليا حتى خرج إلى المسجد وبايعه الناس فى حين تخلف عن البيعة عدد كبير من الناس فى مقدمتهم طلحة والزبير ومن بينهم أيضا سعد بن أبى وقاص، وخرج من المدينة كل من تمكن من ذلك من بنى أمية فى خلال هذه الأيام، أما طلحة والزبير فقد أقاما بعض الوقت بالمدينة، ولما كانت لهما مطالب فى الإمارة والمزايا الأخرى التى رفض على منحها لهما يأسا، وفى الوقت نفسه وصلتهما رسالة سرية من معاوية ،فخرجا إلى مكة بعد أن استأذنا عليا فى أداء العمرة، وفى مكة ثارت عائشة ثورة شديدة وطالبت بالثأر لعثمان رغم أنها كانت بالأمس من معارضيه أو على الأقل من الصامتين عنه، وجمعت الناس حولها ضد على بسبب سابق عداوة مع على، وامتنع معاوية فى الشام أيضا عن بيعة على وأعلن تمرده بدعوى الثأر لعثمان، وهى الدعوى التى اتخذت لتشويش أفكار الناس وخداع العامة وتحولت فيما بعد إلى شعار التف حوله كل المعارضين لعلى،واضطرم الصراع بين بنى أمية وآل بيت النبى صلى الله عليه وسلم وأصبح سافرا، وانشغل الحزب الأموى بالدعاية لأفكاره، وفر نعمان بن البشير الأنصارى من المدينة إلى الشام بقميص عثمان وعليه دمه، واستقبله معاوية فاتحا ذراعيه وعرض قميص الخليفة المقتول بمسجد دمشق أمام أعين الناس .

سارع على بتغيير عمال الولايات وعين بدلا منهم عددا من ثقاته ، ولكن كان قد أضحى واضحا أن الأمور لن تستقيم مع وجود معاوية ، ولم يكن ثمة سبيل إلا الحرب ، وكان ذلك اختيارا صعبا للغاية لأن والى الشام كان يسيطر على منطقته بصورة تامة وكان يخضع الجميع سواء طوعا أو كرها ، وكان أكثر الأهالى من أعراب البادية لا يعرفون من الإسلام سوى قشور ولا يفهمون إلا الحرب والغنم فيها ، واتخذت دعاية المعارضين نغمة أخرى أثرت أيما تأثير فى تشويش أفكار العوام وركزت على أن « قتال أهل القبلة له حرمة قتل الأخ لأخيه » .

أما حزب المعارضة الذى شكلته عائشة فى مكة فقد ازداد قوة بانضمام أتباع عثمان إليه من المناطق المجاورة ، فقد انضم إليه عبد الله بن عامر وتبعه طلحة والزبير ، وقد نقض الأخيران بيعة على بدعوى أنها كانت إجبارية ، وقد أعلن ثلاثتهم « التوبة عما بدر منهم بحق عثمان » طبقا لقول أهل السنة ، وبدأوا فى تعبئة جيش « للثأر لعثمان »، وأرسل عمال عثمان امدادات من اليمن والعراق للمساعدة على تشكيل هذا الجيش ،

وخرج الثائرون من مكة متجهين صوب العراق بقصد حشد أنصار لهم هناك ، فانضم إليهم عدد من الناس فى الكوفة ، وعندما بلغوا البصرة كان تعداد الجيش قد بلغ ثلاثة آلاف رجل ، وفى البصرة خرج عثمان بن حنيف الوالى من قبل على للدفاع ، فقبضوا عليه غفلة واستولوا على المدينة وقتلوا عددا كبيرا من أنصار على بدعوى« دم عثمان »، أما ابن حنيف الذى كان من أنصار المدينة فأبقوا على حياته خوفا من أن يقوم الأنصار فى المدينة بالمعاملة بالمثل ، إلا أنهم أوسعوه ضربا وانتزعوا شعر لحيته عنوة وطردوه ، وكانت هذه الأعمال تخالف حسن التدبير والسياسة ، فقد استاء أهالى القتلى من الجيش المغير ، وظل الجيش بالبصرة ولم يكن لهم حديث إلا عن طلب دم عثمان ولا شئ عن الخلافة التالية ، وكانت إمامة المصلين من المسائل الهامة للغاية وتم توزيعها بين طلحة والزبير يتولاها أحدهما يوما ويقوم بها الآخر يوما .

وخرج على من المدينة ويرفقته جيش عدده سبعمئة رجل، وقصد فى البداية أن يصد الجيش لو وجده فى الطريق بين مكة والكوفة، ولكنه حين وجد أن الجيش قد تقدم اتجه إلى العراق ونزل فى ذى قار (قرب البصرة) وأوفد رسلا من قبله إلى الكوفة لتعبئة جيش، إلا أن والى الكوفة أبي موسى الأشعرى، الذى كان من أتباع عثمان، كان منشغلا بأمره فلم يخرج الرسل منه بنتيجة، ثم أرسل ابنه الحسن مع عمار بن ياسر ليجمع قوات ويعود إلى ذى قار، وخرج أتباع عثمان أيضا من البصرة ونزلوا فى مواجهة جيش على، فأوفد أمير المؤمنين سفيرا يحمل رسالة منه إلى المعارضين، واستمر التفاوض بضعة أيام أملا فى الوصول إلى السلام، وقرر على ألا يكون البادئ بإعلان الحرب، وفى النهاية نشبت الحرب (جمادى الأخرى عام 36 هـ)، وأراد على أن يتحدث إلى الزبير ويذكره بعهد النبى صلى الله عليه وسلم، وقرر الزبير ألا يكون له يد فى القتال إلا أن ابنه عبد الله الذى كان شديد الحماس لخلافة أبيه وحه اللوم للزبير ودعاه للمشاركة فى القتال، لكن الزبير انسحب من الميدان وانتحى جانبا، والتقى به رجل يسمى عمرو بن جرموز فى الصحراء وقتله، أما طلحة فقد أصيب بجرح نافذ يقال إنه تلقاه من مروان بن الحكم الذى كان يعتقد أن طلحة هو قاتل عثمان، وتوفى طلحة متأثرا بجرحه قبل بلوغه المدينة، وبموت هذين القائدين كان يفترض أن يتفرق الجيش، إلا أن عائشة ظلت تحرض المحاربين على مواصلة القتال من هودجها ، فتعرض الهودج لوابل من السهام إلا أنه كان مكسوا

بغطاء متين صان صاحبته من الأذى ، وكان أعراب بنى ضبة يحرسون الناقة ، وفى النهاية أتى مالك الأشتر وأمسك بلجامها وأنزل الهودج ، فأرسل على محمدا بن أبى بكر الذى كان أخا عائشة ومحرمها فاصطحبها إلى دار بالبصرة بكل احترام ، فذهبت إلى مكة بارادتها ثم عادت إلى دارها بالمدينة .

بانتصار قوات على دخلت العراق والمناطق التابعة لها تحت سيطرة على ، أما الشام فكانت لا تزال تحت سيطرة معاوية ، وكان شن الحرب عليه يتطلب تعبئة جيش من العراق وحده ، لكن عمال على حشدوا جيشا من آذربيجان وأماكن أخرى ، وكان من صحابة النبى ما يقرب من ألف رجل بصحبة على وكان سبعون منهم ممن شاركوا فى غزوة بدر ، وتحرك أمير المؤمنين بجيشه بدفع من معاوية واتجه إلى الشام على امتداد نهر الفرات .

استقرت مقدمة جيش معاوية بقيادة أبي الأعور السلمى فى صفين وهى صحراء شاسعة بجنوب الرقة ، واستولت على معبر الفرات الذى كان النقطة الوحيدة للوصول إلى الماء ، فبذل مالك الأشتر جهودا خارقة حتى فتح طريقا لجيش أمير المؤمنين (فى ذى الحجة عام 36 هـ) ، وظل على يؤخر التقدم أملا فى التفاوض من أجل الصلح إلا أن أهل الشام لم يكن لهم حديث إلا عن « دم عثمان » ، وألقى سلاحه أيضا احتراما لشهر المحرم ، وفى صفر من عام 37 هـ نشب القتال ، وكان جيش على يضم عددا كبيرا من مرتلى القرآن وكانوا يعارضون كلا من عثمان ومعاوية وكانوا يقاتلون بكل قوة ، وفى بداية الهجوم قامت ميمنة جيش على بشق صفوف العدو [1] وتقدمت حتى قاربت خيمة معاوية إلا أن الميسرة لم تتحمل مواجهة العدو وحدها ، فدخل على بنفسه ساحة القتال وأعاد الفارين صفوف الجيش ، ثم دعا معاوية للقتال وجها لوجه استنادا إلى احتمال أن يضع القتال بين القائدين حدا للحرب والخلاف بين فريقين من المسلمين ، إلا أن معاوية رفض هذه المواجهة خوفا ، واستمر القتال إلى الليل ، وعندما لاح الفجر بدت علامات الهزيمة على جيش معاوية ، فاتجه مالك الأشتر من الميمنة وعلى من القلب بجمعيهما إلى العدو ، وأوشكا علي إيقاع الهزيمة بمعاوية ، لكن عمرو بن العاص فكر فى حيلة ، رفع جيش الشام المصاحف على أسنة الرماح وقالوا « نرضى بحكم القرآن » ، وكان لهذه الخطوة أثر فاق التوقعات ، فلانت إرادة السذج ووضعوا السلاح ، وبذل على ومن معه

(1) يتضح تحيز الكاتب بالطبع فى وصفه لمعارضى على بلفظ (العدو) ، وفى وصفه لعلى دون سائر الخلفاء الراشدين بلقب (أمير المؤمنين) ، (المترجم) .

من قادة الجيش كل جهد لإيقاف الناس على الخدعة دون جدوى ، وكان للخيانة دور أيضا حيث اتجه مأجورو معاوية فى جيش على بإضعاف معنويات القوات ، وانتهز الأشعث بن قيس شيخ قبائل كندة الذى كان يكن العداوة والحقد للإسلام والمسلمين ويتظاهر بنصرة على ودعم قواته الفرصة واستصدر أمرا من على مستندا إلى العدد الهائل الذى يتزعمه بأن يعيد مالك الأشتر الذى كان لا يزال متحمسا للقتال واستأذن فى لقاء معاوية وتحديد الشكل الذى يتم به تحكيم القرآن .

وعاد الأشعث من عند معاوية باقتراح منه مفاده أن يقوم كل طرف بتحديد حكم له ، ويحتكم الحكمان إلى القرآن فى تحديد من تكون له أحقية الخلافة ، واختار أهل الشام عمرو بن العاص حكما عنهم واقترح أهل العراق والأشعث أن يكون أبو موسى الأشعرى حكما لجانب على ، وكان اختيار العراقيين لأبى موسى يرجع إلى أنه كان واليا عليهم لمدة من الوقت وكان يحذر الناس فى تلك الأيام من الفتنة ، أما الأشعث فكان يستند فى اختياره إلى أن أبا موسى كان يمانيا من عرب قحطان وبالتالى ينتمى إلى جلدته ، ولم يقبل على تحكيم أبى موسى وبيّن للناس سوابق عداوتهما ، واقترح على الناس تحكيم عبد الله بن عباس ومالك الأشتر ، لكن لا الناس ولا الأشعث اقتنعوا بذلك وطالبوا بتحكيم أبى موسى دون غيره ، واضطر أمير المؤمنين إلى التصديق على القرار وفحواه أن يتراجع الجيشان ، وأن يلتقى الحكمان فى شهر رمضان بدومة الجندل ليدليا برأيهما .

وعاد على من صفين إلى الكوفة ، وأوفد جعدة بن هبيرة المخزومى واليا على خراسان، فذهب جعدة إلى مدينة أبر (نيسابور القديمة) وكان أهلها قد ارتدوا عن الإسلام فرفضوا ولايته وعاد ، فأرسل على خليدا بن قرة اليربوعى بجيش إلى خراسان لمحاصرة نيسابور ، فقبل الأهالى الصلح وكذلك فعل أهالى مرو ، وفى ذلك الوقت طلبت أميرتان فارسيتان الأمان من قائد الجيش وجاءتا إليه فأرسلهما إلى أمير المؤمنين ، فعرض عليهما الإسلام وأن يزوجهما بزوجين من المسلمين فقالتا « بل زوجنا ولديك » ، فرفض على ، فطلب أحد الدهاقين من أمير المؤمنين أن يسلم له هاتين الفتاتين وقال : «هذه مكرمة منك لى » ، فسلمهما على له ، وظل الرحل يرعاهما ويرعى حرمتهما[1] ، وعادت الفتاتان بعد فترة إلى ديارهما بخراسان .

---

(1) كانتا عنده يفرش لهما الديباج ويطعمهما فى آنية الذهب ، الطبرى ، ج 6 ، ص 36 .

وفى طريق العودة من صفين ما كاد الجيش يبلغ الكوفة حتى وقعت الفتنة فى صفوفه، فثار عدد كبير من جنوده عل الصلح واتفاقية التحكيم ، واعتبروا ذلك كفرا وقالوا إن الخلافة ليست بالأمر الذى يتقرر بتحكيم أشخاص وإنه « لا حكم إلا الله » وأغاروا على الآخرين بدعوى أنهم «أعداء الله الذين يداهنون فى أمر الدين ويكفرون» ، ومما يدعو للدهشة أن دعاة هذا الاتجاه كانوا هم أنفسهم الذين اضطروا عليا بالأمس إلى وضع السلاح والتوقيع على اتفاقية التحكيم وتحديد أبى موسى حكما له ، وفى مقابل هذه الفئة ظهرت فئة أخرى ثبت على مشايعة على واتهموا هؤلاء بنقض بيعة الإمام وإشاعة الفرقة فى صفوف الجماعة ، وسميت هذه الفئة منذ ذلك الحين باسم « الشيعة » ، وطوال الطريق إلى الكوفة ظل هذا الجدل محتدما بين الفئتين ، بل وكان الفريقان يلتقيان أحيانا[1] ، وعند مشارف الكوفة رفضت الفئة المعارضة للتحكيم والتى سمى أفرادها بالخوارج دخول المدينة مع بقية الجيش ونزلوا فى حروراء خارج الكوفة .

خرج على إلى حروراء للتفاوض مع الثوا بناء على طلب منهم ، وأجبروا عليا على لقائهم وفى النهاية صدّق على الرضا بحكم القرآن لا بحكم الأفراد ، أى إبداء الرفض إذا ما جاء حكم الأفراد على خلاف حكم القرآن ، واقتنع الثوار بهذا الإقرار ، وعادوا إلى الكوفة مع أمير المؤمنين ، ثم جاء إلى الكوفة رسول من قبل معاوية مبلغا أن « معاوية أرسل حكمه وأن عليكم أيضا أن ترسلوا بحكمكم ولا تصغوا إلى ما يقوله أعراب بكر وتميم » ، فتم استدعاء أبى موسى من اعتكافه وأرسل إلى دومة الجندل ويرفقه أربعمائة فارس بقيادة عبد الله بن عباس بمقتضى شرط الاتفاقية ، فرفع الخوارج شعار « لا حكم إلا لله » من جديد ، وخرجوا محتشدين من الكوفة إلى نهروان وهو مكان يقع فى سفح جبل زاجروس ، فسموا بالخوارج منذ ذلك الوقت باعتبار خروجهم من الكوفة أو خروجهم على الإمام ، وفى نهروان اختاروا عبد الله بن وهب أميراً عليهم (فى العاشر من شوال عام 37 هـ) .

فى الوقت نفسه التقى الحكمان فى دومة الجندل وبدأ التفاوض [2] ، فى البداية

---

(1) الطبرى ، عن أبى مخنف ، ص 35

(2) يرى الواقدى أن الحكمان اجتمعا فى شعبان من عام 38 هـ .

تبادلا الآراء حول من هم أحق بالخلافة ، واقترح عمرو بن العاص معاوية فلم يقبل به أبو موسى ، فذكر له ابن معاوية فلم يقبل ، لم يكن أبو موسى على وفاق مع علي لأنه نزع في عهده عن ولاية العراق ، لكن معاوية أيضا كان يعد في نظره رجلا ذا هوى ولا يبدي اهتماما كبيرا بالدين ، وربما كان يرى أن هناك ممن بقي من صحابة النبي صلى الله عليه وسلم من هم أولى بالخلافة ومن بينهم أبو موسى نفسه ، لذا فقد اقترح عبد الله بن عمر على عمرو بن العاص لكن عمرو لم يقبل به ، ثم طلب رأي أبي موسى فقال « إني أرى أن نخلع كلا منهما وندع أمر الخلافة شورى بين المسلمين يختارون من يشاؤون » ، فصدق عمرو على رأيه وقررا أن يعلنا رأيهما على الملأ .

يروي عن أبي مخنف أن عمرو بن العاص طوال مدة التفاوض كان يقدم أبا موسى دوما في الحديث باعتباره من قدامى صحابة النبي صلى الله عليه وسلم ولتقدمه عليه في السن ، واعتاد أبو موسى على دلك ، وكان لعمرو هدف من ذلك ، وعندما بدأ إعلان الرأي تقدم أبو موسى أولا ، وكان أبو موسى رجلا يسهل خداعه ، فرغم أن ابن عباس حذره من مكر عمرو فقد نهض وقال في حضور جمع من الناس بعد الحمد والثناء : « اتفقت أنا وعمرو على خلع كل من علي ومعاوية من الخلافة وعلى ترك الاختيار للناس يولون من يشاؤون عليهم ، وها أنذا أعلن خلعهما جميعا ، ادهبوا وتخيروا من هو أهل لها » ، وما أن أنهى حديثه نهض عمرو وقال : « أسمعتم ، لقد خلع الرجل صاحبه ، أما أنا فقد صدقت على تثبيت معاوية فهو ولي عثمان والمطالب بدمه وهو أحق الناس لخلافته » ، ويروى أن أبا موسى ثار لهذا التصرف غير المتوقع واحتد على عمرو ، وأخذ الرجلان يتبادلان السباب[1] ، فمضى عمرو إلى معاوية وهنأه بإمارة المؤمنين ، وعاد عبد الله بن عباس إلى علي ، أما أبو موسى فعاد إلى مكة مباشرة خوفا من غضب الناس .

لا شك أن حكما بهذه الخديعة لم يكن قاطعا أو مقنعا ، فاستعد علي لحشد الجيش لإعلان الحرب ، وحاول أن يضم الخوارج إليه ، وبين لهم أن هذا الحكم لم يكن قائما على القرآن وأنه صدر على خلاف ما تم الاتفاق عليه في المعاهدة ، إلا أن الخوارج كانوا قد

---

(1) يرى هوار أن احتمال وجود اتفاق سري بين الرجلين قائم إلا أن الأحداث التالية تنفي ذلك ، (تاريخ العرب ، ج 1 ، ص 254)

اختاروا إمامهم ولم يصغوا لعلى ، ورأت فئة أخرى من الجيش تتبع الأشعث بن قيس ضرورة قتال الخوارج أولا ، واتخذ الخوارج من نهروان مركزا لهم وأخذوا يغيرون علي المناطق المحيطة ويجبرون الناس بالوعيد بالقتل على لعن كل من عثمان وعلى ، وسارع على لمواجهتهم ، ففر عدد منهم وتفرقوا فى مناطق من إيران والعراق ، وصمد منهم ألف وثمانمائة رجل منهم حتى قتلوا عن آخرهم (فى التاسع من صفر عام 38 هـ) ، إلا أن هذا الاتجاه الخارجى لم يتم القضاء عليه ، فقد قام من تفرق منهم بمرور الوقت ببث عقائدهم بين العناصر والفئات الساخطة على الحكومة وضرائب الدولة ، وظلوا يبثون الفرقة فى إقليم خوزستان لمدة طويلة ، وشيئا فشيئا تحولت هذه العقيدة إلى مذهب ، ولا يزال ثمة خوارج فى عمان وزنجبار وتونس والجزائر ولا يزالون يتبرأون من على .

بعد أن فرغ على من أمر الخوارج استعد لحرب معاوية ، لكن أهل الكوفة كانوا قد انهكوا من الحرب لمدة سنة فانفضوا من حوله ، وفى مصر تمرد عدد من الناس بتحريض من معاوية وعمرو بن العاص وتعرض محمد بن أبى بكر عامل على هناك للخطر ، فأرسل على مالك الأشتر من الكوفة إلى مصر ، فقام معاوية من خلال أتباعه فى مصر بتحريض عامل الخراج فى العريش على دس السم فى العسل لمالك قبل بلوغ مصر ، وقال معاوية « إن لله جنودا منها العسل » ، وفى نفس الوقت خرج عمرو بن العاص من الشام واستولى على مصر ، أما محمد بن أبى بكر فقد تفرق جنوده من حوله وألقى معاوية بن حديج قائد عمرو بن العاص القبض عليه وقتله ، فحزن على حزنا شديدا على الرجلين ، وقام معاوية بتعبئة قواته من كل مكان ووجهها إلى على ، فاستولى على مكة والمدينة وأعملت قواته القتل فى أهل العراق ، وظل على يقاوم هذه المصاعب مدة عامين وكان يدفع بفرق جيشه واحدة تلو الأخرى لصد جنود الشام ، وفى ذلك الوقت حلت واقعة مفاجئة غيرت مجرى الأحداث تغييرا تاما ، فقد أقسم ثلاثة من الخوارج على قتل على ومعاوية وعمرو بن العاص فى ليلة واحدة ، فذهب إثنان منهم إلى معاوية وعمرو بن العاص إلا أنهما لم يتمكنا من تنفيذ خطتهما ، أما الثالث وهو عبد الرحمن بن ملجم المرادى فقد أعد كمينا لعلى على الطريق إلى المسجد بمعاونة عدد آخر معه ، وهوى على رأسه بالسيف ، وبعد يومين لقى على وجه ربه متأثرا بجرحه (فى الحادى والعشرين وفى رواية فى السابع عشر من رمضان عام 40 هـ) في سن الخامسة والستين أو الثالثة

والستين من عمره باختلاف الروايات ، وقام ولداه بدفنه وأخفيا مكان قبره خوفا من الخوارج وغيرهم من الأعداء ، وكما يروى رواة الشيعة قام الإمام جعفر الصادق بهداية الشيعة إليه فيما بعد [1] .

يروى [2] أن عليا كان متوسط القامة عريض المنكبين قوى الساعدين نحيف الساقين قمحى البشرة وله لحية بيضاء ووجه بشوش دوما ، وكان على مسلما دينا بمعنى الكلمة ، فلم يجد الفساد أو التفرقة فى الدين طريقا إلى جهاز حكمه . لذا ، فقد أبغضه المتكالبون على الدنيا ، أما المسلمون الحقيقيون الذين كانوا يعرفون فضائله ومكارم أخلاقه فقد أحبوه حبا شديدا ، ولا غرو فى أن اسم على يعد من أقدس الأسماء فى تاريخ الإسلام .

* * *

---

(1) فيما يتصل بقبر على فإن أهل السنة لديهم روايات مختلفة ، لكن ابن الأثير يقول إن أصح الأقوال هو أن قبره يقع فى نفس المكان الذى يعد مزارا للناس حتى اليوم .

(2) البحار ، ج 9 ، ص 2 .



الفصل الخامس

الأمويون



معاوية و آل سفيان

بعد وفاة على أعلن معاوية نفسه أميرا للمؤمنين وكان قبل ذلك ينادى بلقب " أمير"[1] أما فى الكوفة فقد بايع الشيعة الحسن بن على ، فخرج بالجيش الذى كان والده قد قام بحشده فى أواخر أيام عمره بقصد الحرب ، فأرسل قيس بن سعيد عبادة على رأس اثنى عشر ألف رجل فى البداية كمقدمة للجيش ، أما هو فقد دخل المدائن ، وعلى الجانب الآخر نزل معاوية بجيشه فى مسكن [2] بالقرب من الموصل ، وذات يوم نودى فى حيش الحسن بن على بأن قيس بن سعد قتل وأن الخير فى الفرار ، ولدى سماع هذا النداء وقع الإضراب بين الناس بينما أغار عدد منهم على مقر الحسن ، وحتى البساط الذى كان تحت قدميه سحبوه ، وقام أحد الثوار بطعن الحسن فى فخذه بخنجر ، وبهذا تأكد أنه لا سبيل إلى مواجهة معاوية وقواته المنظمة المطيعة بمثل هذا الجيش ، ونتيحة لذلك اتجه الحسن إلى مراسلة معاوية والتفاوض معه على إحلال السلام ، واستقر الأمر على أن يحصل الحسن على موارد بيت المال بالكوفة وأن يكف عن نشاطه وألا يذكر اسم على بسوء أمامه ، فمضى الحسن مع سائر أهل البيت إلى المدينة ودخل معاوية الكوفة (عام 41 هـ) .

أما قيس بن سعد فلم يستسلم رغم إقرار الصلح وصمد مع عدد آخر للمقاومة ، كان قيس من دهاة العرب وكان معاوية يرهبه ، فعقد معه معاهدة صلح منفصلة تقضى بتأمين الشيعة وعدم التعرض لهم بسوء .

فى ذلك الوقت ثارت جماعة من الخوارج الذين كانوا قد تفرقوا على أثر هزيمتهم فى نهروان أو انتحوا حانبا مترددين بعد أن رأوا أنه قد أصبح ن المؤكد أن الوضع قد استقر على خلافة معاوية،فأرسل معاوية فرقة من الشام لقتالهم ،فانهزمت، نتحول إلى أهل الكوفة وطالبهم بصد الخوارج،وبعد عودة معاوية إلى الشام قام واليه فى الكوفة المغيرة

---

(1) ورد فى الطبرى أن هناك قولاً آخر بأن معاوية كان ينادى بأمير المؤمنين منذ وقت التحكيم ، وأورد ابن كثير كلتا الروايتين وأحجم عن ترجيح إحداهما على الأخرى .

(2) بفتح الأول وكسر الثالث .

بن شعبة بمواصلة مابدأه معاوية وسحق الخوارج فى نطاقه بمساعدة شيعة على الذين كانوا يعادون الخوارج أيضا ، أما خوارج البصرة فقد ولى قتالهم بسر بن أبى أرطأة [1]، إلا أن مسألة الخوارج كانت لا تزال فى بدايتها لا نهايتها . وكما سنرى فيما بعد كانت سببا فى قلق الخلفاء الأمويين طوال عهدهم بل وفى العصر العباسى أيضا ، وكانت قدرة الحكومة المركزية منذ معاوية وما بعده على مواجهة هذه الجماعات المتفرقة فى تصاعد دائم .

كان من أهم مايشغل معاوية هو أن يجد من بين أنصار عثمان والحزب الموالى لقريش من يتمتع بقدرة على إدارة شئون الدولة ورعاية مصالحه ، فأرسل عمرو بن العاص واليا على مصر بعد أن قضى فترة فى بلاط معاوية ، وأرسل المغيرة بن شعبة إلى الكوفة ، وولى على البصرة عبد الله بن عامر الذى كان من أشراف بنى أمية لكنه كان رجلا لينا سهل القياد ولا طاقة له على مواجهة الخوارج ، لذا فقد عزله وولى بدلا منه الحارث بن عبد الله الأزدى وبعد أربعة أشهر عزله وولى بدلا منه زياد بن أبيه على البصرة وما وراءها أى بلاد فارس .

كان زياد بن أبيه الذى كان يدعى أيضا باسم أمه - زياد بن سمية - من أهل الطائف وكان أبوه يدعى عبيدا وكان من قبيلة ثقيف ، وكانت سمية أمة الحارث بن كلدة وتزوجها عبيد فى الجاهلية ، وكان زياد يعرف فى الطائف باسم زياد بن عبيد ، وكان أول من استعمل زياد هو المغيرة بن شعبة حين كان واليا على البصرة ، إذ كان ملما بالقراءة والكتابة وكان شابا نابها ذا كفاءة،ثم أرسله على بن أبى طالب واليا على فارس وكان بها حين قتل على وتولى معاوية الخلافة ، الا أنه ثار على معاوية واختبأ بقلعة فى اصطخر بما لديه من أموال ، فأمر معاوية بحبس أولاد زياد ومصادرة أمواله ، الا أن هذا التهديد لم يجد شيئا ، وفى النهاية أوفد المغيرة بن شعبة اليه ، وكانت تربطهما صلة وثيقة لكى يقنعه بأن المصلحة فى نصرة معاوية ويحذره من " الإنصات إلى مايردده الناس " (2) ، فجاء زياد إلى معاوية وانضم إلى حزبه ، ومن فرط اهتمام معاوية باستقطابه اليه أعلن

(1) أرطأة (بدون أبى) وردت فى بعض الكتابات " بسر " بضم الأول وسكون الثانى .

(2) مروج الذهب ، ج 2 ، ص 40

مؤاخاته رسميا بحيث أجبر شيخا يبيع الخمر من أهل الطائف ويسمى أبا مريم على أن يدلى بشهادة فى مجلس عام بأن " أبا سفيان أبا معاوية زنى بأم زياد فى الجاهلية " وأن هذا الشيخ نفسه كان وسيطا فى هذه الصلة ، فكان لابد بالتالى أن يدعى زياد باسم بن أبى سفيان بحكم من معاوية ، وكان ارتكاب معاوية لهذه المخالفة الشرعية بهذه الصورة البغيضة مدعاة لاستياء الناس منه ، فعبر الشعراء عن استيائهم بهجائه شعرا ، إلا أن معاوية أخذ يعلى من مكانة زياد يوما بعد يوم إلى أن منحه ولاية البصرة وتوابع بلاد فارس وملحقاتها،وضم إليه أيضا ولاية الكوفة بعد المغيرة بن شعبة (عام 45 أو 50هـ)، واتبع زياد فى حكمه سياسة البطش التى حبذها معاوية ، فكان يبطش بطشا شديدا بالمتمردين ومعارضى الحكومة فى البصرة والكوفة ، وقام بتصنيف أهل الكوفة إلى أربع جماعات واختار لكل جماعة رئيسا من أتباعه ومنحه صلاحيات فض الخلافات فى جماعته ، فكان " يأخذ البرىء بجرم المجرم " على حد قوله ، وفى عهد زياد تم الحكم بالقتل على عدة آلاف من أهالى البصرة والكوفة ، ونتيجة لهذه السياسة القاسية سادت حالة من الأمن والهدوء تدعو للدهشة حتى أن أحدا لم يجرؤ على قطع الطريق فى مسالك الصحراء .

لم يكن معاوية ينسى مسألة " ثأر عثمان " وكان يدعم المطالبة به لأنه كان يعتبر هذه السياسة أساس خلافته ، وكان يطبق هذه السياسة بسهولة فى الشام ، فأصبح الناس هناك أشد ميلا إلى عثمان نتيجة لدعاية معاوية ، أما فى العراق التى كانت مهد التشيع فلم يكن الأمر بهذه السهولة ، فأخذ عمال معاوية يسبون " أبا تراب " من فوق المنابر بأمر من الخليفة ، فكان الشيعة يثورون عليهم ويقتلونهم ، وكانت من هذه الأحداث الدامية الحزينة حادثة حجر بن عدى [1] ، كان حجر من قبيلة كندة ومن كبار زعماء الكوفة ، وكان رجلا زاهدا ويحظى باحترام الناس ، بينما كان يصلى بالمسجد أخذ الخطيب يثنى على عثمان ويهجو عليا ، فثار حجر واعترض على الخطيب وانتقده ، فألقى زياد القبض عليه بأمر من معاوية وقيده مع جماعة من رفاقه فى السلاسل وأرسلهم إلى الشام ، فقام معاوية بقتلهم جميعا (عام 35 هـ) ، وكان لهذه الواقعة رد فعل شديد فى العالم الاسلامى فى ذلك الوقت ، ويقال أن قتل هذا الرجل الزاهد ترك أثرا حتى فى

(1) حجر بضم الحاء وسكون الجيم .

قلوب أعداء الشيعة ، حتى أن عائشة قالت لمعاوية « أين كان حلمك عن حجر ؟ ! » ومن المعروف أن معاوية حين كانت منيته قال فى سكرات الموت « يومى منك يا حجر يوم طويل » .

بعد أن استقر حكم معاوية استأنف الفتوحات الشرقية والغربية التى كانت قد ضعفت فى فترة الإضطرابات والحروب الداخلية ، فبدأ تجريد الجيوش فى ثغر الروم بصورة منتظمة صيفا وشتاء (المشتى والصائفة) ، وتم شن الهجوم برا وبحرا على القسطنطينية عاصمة الروم الشرقية سنويا ، اذ كان معاوية يطمح إلى فتحها دوما ولكن دون جدوى ، بل وعاد الجيش ذات مرة مهروما ولحقت به خسائر فادحة (فى عام 49 أو 50 هـ) إلا أنه تم فتح جزيرة أرواد وجزيرة رودس فى طريق هذه الحملات ، وتمركزت حامية بها لمهاجمة السفن الرومية . وظل الأمر على هذا الحال حتى عهد يزيد حيث تم إخلاء الجزيرتين ، وفى شمال أفريقيا اتسعت الفتوحات السابقة ودخل البربر فى الإسلام وفى حوزة الدولة الإسلامية وتأسست مدينة القيروان،وبلغ نطاق الفتوحات جزيرة صقلية [1].

فى خراسان تولى عبيد الله بن زياد الحكم بعد وفاة والده وانهمك فى ردع الخوارج ، وعبرت الجيوش الإسلامية نهر حيحون وتقدمت حتى الصغد وسمر قند ودخلت الهند من ناحية سيستان ، كان ديوان خراج معاوية فى يد رحل من نصارى الشام يسمى سرجون وكان يتولى نفس المكانة فى عهد الروم ، وكان هناك نصرانى آخر يسمى ابن اثال كان طبيب معاوية ، وعن طريق هذا الطبيب دس معاوية السم لقائده عبد الرحمن بن خالد بن الوليد (46 هـ) اذ كان معاوية يخشى تعاظم مكانة قائده المرموقة ، كان معاوية يحابى أمراءه فى كل شىء إلا فى أمر الخلافة أو ما يعرضها للخطر ، فكان باب الاستفادة الشخصية مفتوحا لعمال الدولة فكانوا يجمعون ثروات هائلة ، اذ كان الخليفة نفسه من أهل الاستفادة الشخصية [2] .

---

(1) فتوح البلدان ، ص 244 .

(2) فى رسالة زياد إلى والى خراسان كتب يقول « أن أمير المؤمنين كتب إلى أن اصطفى له كل صفراء وبيضاء والروائع فلا تحركن شيئا حتى تخرج ذلك » ، الطبرى وآخرون

كان معاوية قد قرر قبل وفاته بسنوات عديدة أن يورث الخلافة ليزيد ، الا أن ذلك الأمر لم يخل من مصاعب ، أولا كانت الخلافة حتى ذلك العهد تقوم على الشورى والانتخاب العام وليس على التوارث ، ثانيا كان يزيد على أخلاقيات وسلوكيات لا تعجب المسلمين، ثالثا كان من بين بنى أمية رجال يطمعون فى الخلافة بعد معاوية ومن بينهم مروان بن الحكم وسعيد بن عثمان وربما زياد بن أبيه ، إذا فقد انشغل معاوية لفترة من الوقت فى تمهيد الساحة واستقطاب أهل الثقل إلى أن توفى زياد بن أبيه فى عام 53هـ على أثر طاعون أصاب يديه ، وعلى أثر ذلك أعلن معاوية يزيد خليفة له وأخذ بيعة الناس له ، وصارت الخلافة منذ ذلك الحين وراثية ، وظل معاوية يسكت معارضيه بالوعد تارة وبالوعيد تارة أخرى ، ورغم دلك ظل هناك خمسة أشخاص لايذعنون لهذه البيعة وهم الحسين بن على الذى كان إمام الشيعة بعد رحيل الإمام الحسن (50 هـ) وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبى بكر ، فذهب معاوية إلى المدينة بنفسه وتفاوض مع كل منهم دون التوصل إلى نتيجة ، فقد ثبتوا جميعا على رفضهم ، وتوفى معاوية فى رجب عام 60 هـ بعد أن أصابته الشيخوخة والعجز ومرض فى الصدر ، وكان عمره آنذاك 57 عاما [1] .

كان معاوية طويل القامة ممتلئا أبيض البشرة له وجه عبوس وعينان جاحظتان ولحية مسترسلة مخضبة بالحناء ، وكان أكولا يحب التجمل ، وكان يتخذ سمات الملوك كحشد الحجاب والحراس فى بلاطه ، ويروى عنه قوله « كم نعمنا بنعيم الدنيا » ، وكان معاوية فى بداية عهد خلافته قد فكر لبعض الوقت فى نقل منبر النبى (ص) من المدينة إلى دمشق الا أنه انصرف عن هذه الفكرة رعاية للرأى العام .

وعندما تولى يزيد الخلافة كان أول أمر أصدره تعقب الخمسة الرافضين للبيعة ، فأمر والى المدينة بالتفاوض معهم ومطالبتهم بالمبايعة وخاصة عبد الله بن الزبير والحسين بن على ، فقد كانا مصدر خوف شديد من جانب يزيد نظرا لمكانتهما الشخصية ، ونتيجة لضغوط الوالى لجأ إلى مكة

---

(1) وثمة روايات بأنه كان فى سن 73، 78 ، 82 ، ابن الأثير ، ج 4 ، ص 3

كتب شيعة الكوفة رسائل إلى الحسين وأوفدوا إليه الرسل وطلبوا منه الذهاب إلى الكوفة على وعد بنصرته وفدائه ، فأوفد الحسين مسلم بن عقيل إلى الكوفة لتقصى الأمر، فالتف الشيعة حوله وبايعوه على نصرة الحسين ، وكان أمير الكوفة نعمان بن بشير يتحاشى سفك الدماء وكان يريد أن يهدىء ثورة الناس بالحسنى ، فعزله يزيد وولى إمارة الكوفة لعبيد الله بن زياد والى البصرة بنصيحة من سرجون المسيحى على الرغم من الضغينة التى كان يكنها لعبيد الله ، فجاء عبيد الله إلى الكوفة وفرق الناس من حول مسلم عن طريق زعماء الكوفة ، ثم قتل مسلم ومعه عدد من الشيعة . من ناحية أخرى ، خرج الحسين ومعه أهله وعدد من آل بيت على من مكة على أثر رسالة تلقاها من مسلم بموافقة أهل الكوفة ، وعندما اقترب من الكوفة أرسل عبيد الله حر بن يزيد الرياحى التميمى مع عدد آخر لمنعه من دخولها ، وأرسل وراءهم عمر بن سعد بن أبى وقاص على رأس جيش من أهل الكوفة للقتال ، والحقيقة كما قال الفرزدق للحسين : « قلوب الناس معك وسيوفهم مع بنى أمية » ، وحين رأى الحسين نفاق أهل الكوفة اقترح عليهم أن يدعوه ليعود من حيث أتى ، الا أن ابن زياد رفض هذا الاقتراح وأصر على القبض على الحسين، وأرسل شمر بن ذى الجوشن الذى أوصى إليه بهذا الرأى على رأس جيش ، وأمر عمر بن سعد فألقى القبض عليه وحبس عنه الماء واستل السيف لقتاله ، ففضل الحسين الموت كريما على الحياة فى السجن ذليلا ، ووقعت هذه الواقعة الحزينة فى كربلاء فى العاشر من محرم عام 61 هجرية ، الموافق العاشر من أكتوبر عام 680 ميلادية .

كان عبد الله بن الزبير قد لاذ بالحرم فى مكة وأخذ يمهد الطريق لتولى الخلافة ، فأفاد من حادثة كربلاء والاضطراب الذى تفشى بين المسلمين على عدوه يزيد ، وكان فى الوقت نفسه من ألد أعداء آل على ، فأقسم أن يكبل ابن الزبير فى القيود ؛ فقام والى المدينة عمرو بن سعيد بإرسال جيش بقيادة عمرو بن الزبير أخى عبد الله الذى كان يكن عداوة شديدة لأخيه إلى مكة للإيقاع بعبد الله ، فدخل عمرو مكة وعرض على أخيه الاستسلام فيتم بذلك الوفاء بقسم الخليفة ، وأبدى استعداده لتقييده بسلاسل من فضة تعلق فى جيده تحت ملابسه وأخذه إلى الخليفة ، الا أن عبد الله رفض العرض وألقى القبض على أخيه وزج به فى السجن .

وفى المدينة بدأت القلاقل والاضطرابات ، فقد أرغم واليها الجديد عتبة بن الوليد

الذى عاد إلى منصبه مرة أخرى المهاجرين والأنصار على أن يرسلوا وفدا منهم إلى الشام لعلهم يحظون بقرب الخليفة وانعامه ، ولقى الوفد كل ترحيب فى الشام ، ولكن فى طريق العودة إلى المدينة ظل الوفد يبين للناس الحياة الرغدة التى يحياها الخليفة وأنه يعشق تربية الكلاب ويسىء إلى الناس ويشرب الخمر ويلهو ، فثار أهل المدينة حين سمعوا هذه الأنباء ، وكان فى مقدمة المعارضين عبد الله بن حنظلة الأنصارى (حنظلة غسيل الملائكة الصحابى المعروف) ، فتعرض بنو أمية فى المدينة للمطاردة فلاذوا بحى مروان بن الحكم شيخ قبيلتهم ، وأرسل يزيد جيشا من الشام بقيادة مسلم بن عقبة المرى الذى ضرب حصارا حول أهل المدينة وتم حفر الخندق الذى أنشىء فى عهد النبى من جديد ، إلا أن جنود الشام التفوا حول الخندق ودخلوا المدينة من الخلف بمساعدة طائفة بنى حارثة وخيانتهم ، وأحاطوا بالمدافعين عنها ، وقتل عبد الله بن حنظلة فى السادس والعشرين من ذى الحجة عام 63 هـ وأعمل جند الشام القتل والدمار فى المدينة .

وفتح الطريق لفتح مكة ، لكن مسلم بن عقبة توفى قبل بلوغها ، وتولى حصين بن نمير قيادة الجيش من بعده ، فحاصر الجيش مكة ، وكان الحصار فى البداية فى صالح المحاصرين ، ففى هذه الآونة شب حريق فى الكعبة ، كان الحريق ، طبقا لرواية الواقدى ، يرجع إلى أن واحدا من أصحاب ابن الزبير كان يحمل شعلة على طرف رمحه ، فطارت شرارة منها وأمسكت بالبيت ، وكانت هذه الحادثة ، حسب رواية المدائنى ، قد تمت بيد ابن الزبير وعن عمد . على أية حال ، فقد بلغ جبروت يزيد فى أثناء الحصار (ربيع الأول من عام 64 هـ) ، فترك جنود الشام مكة وعادوا إلى الشام ، ويروى أن القائد الشامى حصين كان مستعدا فى ذلك الوقت لتقبل خلافة ابن الزبير بشرط أن يذهب ابن الزبير معه إلى الشام ، لكن ابن الزبير رفض هذا الشرط ، وذهب أمير المدينة أيضا بصحبة هذا الجيش إلى الشام .

بعد موت يزيد تولى الخلافة ولده معاوية الثانى ، الا أنه لم يكد يمضى أربعين يوما حتى توفى ، واضطربت الأوضاع بعد ذلك ، فقد أعلنت العصيان قبيلة قيس التى كانت تحقد على قبائل بنى كلب وعلو مكانتها فى دولة يزيد (كانت أم يزيد من بنى كلب) وأعلنت الثورة فى بين النهرين تأييدا لابن الزبير ، وأعلن الضحاك بن قيس الفهرى (من بنى قيس) تولى ابن الزبير الخلافة من فوق المنبر ، وكان الضحاك حينئذ أميرا على

دمشق ، وسرعان ما استقر الرأى على ولاية ابن الزبير فى سائر الولايات من مصر إلى الحجاز والعراق وخراسان ، أما فى الأردن (الجزء الشمالى من الشام) فقد قام حسان بن بحدل الكلبى خال يزيد مع قومه برفض خلافة ابن الزبير ، وكان يريد لخالد بن يزيد الذى كان لايزال طفلا أن يتولى الخلافة ، الا أن بنى أمية وأنصارهم اجتمعوا فى جانبه (بين دمشق وطبرية) للتشاور فى الأمر ، واستقروا على خلافة مروان بن الحكم الذى كان شيخا هرما ، واختاروا خالد بن يزيد وليا للعهد ، بهذا تمت مبايعة مروان الذى تحرك بجيشه من بنى كلب بقصد السيطرة على دمشق ، ومن ناحية أخرى خرج الضحاك بن قيس من دمشق فى جيش كبير لمواجهته ، ونشبت الحرب فى مرج راهط ، وقتل الضحاك ولاذ جنوده بالفرار ، كانت هذه الحرب فى الحقيقة حربا عرقية واجه فيها الكلبيون القحطانيون القيسيين العدنانيين فى تعصب عرقى ، ويذكر الشعراء القحطانيون هذا الفتح فى أشعارهم ضمن مفاخر قومهم ، وسنرى فى التاريخ أيضاً وقائع عديدة وقف فيها هذان العنصران فى المواجهة ، وكان الخلفاء الأمويون يزيدون هذا التعصب العرقى اضطراما لصالحهم ، ورموا العرب مرة أخرى فى أتون الجاهلية من حديد بعد إسلامهم .

آل مروان :

بعد أن أخذ مروان البيعة فى دمشق مرة أخرى شمر عن ساعديه لاستعادة السيطرة على الدولة التى انفرط عقدها ، فأحكم سيطرته على بقية الشام ومصر ، وفى طريق عودته من مصر عزل خالد بن يزيد عن ولاية العهد خلافا للعهد الذى أبرمه مع بنى أمية وأعلن تنصيب ولديه عبد الملك وعبد العزيز مكانه بالترتيب ، فقامت فاختة أم خالد التى كانت امرأة مروان بدس السم لزوجها وفى رواية ضغطت على حلقة بوسادة وخنقته(عام 65 هـ) وخلفه عبد الملك فى الخلافة .

فى الكوفة وفى أعقاب موت يزيد ثارت جماعة من الشيعة وعلى رأسهم سليمان بن صرد الخزاعى مطالبين بالثأر للحسين بن على ، وكانوا يريدون التكفير عن ذنوبهم فى التقصير فى نصرة الإمام ، وقاتلهم عبيد الله بن زياد فى عهد مروان (وفى رواية فى خلافة عبد الملك) ، وقتل سليمان ونفر أصحابه ، فقام المختار بن أبى عبيدة الثقفى بجمع صفوفهم وثار فى الكوفة بدعوى الثأر للحسين والدعوة إلى إمامة محمد بن حنيفة (عام

66 هـ) ، فطرد عامل ابن الزبير وقتل كل من وقع فى يده من قتلة الحسين واستولى على المنطقة من الكوفة وحتى الموصل ، فخرج عبيد الله بن زياد من الشام مكلفا بصد المختار واستعادة الكوفة ، فنزل الموصل بجيشه فانهزم بها وقتل هو نفسه ، وحملت رأسه إلى الكوفة ، وأرسلت من هناك إلى المدينة لدى بنى هاشم .

ولكن فى تلك الآونة كان أمر عبد الله بن الزبير قد أشتد فى مكة فأرسل أخاه مصعب لحرب المختار والسيطرة على الكوفة ، فخرج مصعب من مكة قاصدا الموصل حيث بدأ فى حشد الجيش واستدعى المهلب بن أبى صفرة عامل ابن الزبير فى فارس لمعاونته فى مهمته ، وكان زعماء الكوفة وأشرافها على عداء مع المختار وكانوا يقولون « غلماننا صارت لهم السيادة علينا » ، فانضموا إلى مصعب فأتى إلى الكوفة بقوات هائلة ، صمد جيش المختار فى المعركة الا أنه لاذ بالفرار فى النهاية ولقى المختار حتفه ودانت البصرة لابن الزبير ، وبهذا صارت مشكلة عبد الملك فى كل مكان هى مسألة ابن الزبير ، كان الملك يود فى البداية أن يفرغ من أمر الشام ، فحمل على قرقيسيا وفلسطين اللتين كانتا تحت سيطرة عمال ابن الزبير ، وفى ذلك الوقت دخل الشام جيش من الروم ، فاضطر عبد الملك مجبرا أن يهادن امبراطور الروم،فقبل بتقديم خراج باهظ (ألف دينار أسبوعيا) ، فعاد جنود الروم ، لكن مشكلة أخرى طفت على السطح وهى أن عمرو بن سعيد بن العاص استولى على دمشق فى غيبة عبد الملك عنها ، فترك عبد الملك مشكلة قرقيسيا واتجه صوب دمشق ، وحوصر عمر بن سعيد ، وفى النهاية أبرمت اتفاقية صلح على أن يتولى عمرو ولاية عهد عبد الملك ، وعقدت معاهدة وأقسم عبد الملك على الوفاء بما جاء بها ، وبعد فترة أمر بالقبض على عمرو وقتله ، كان عبد الملك فى تلك الأوقات قد حظر الحج على أهل الشام ، لأن ابن الزبير كان يرغم كل شامى يلقاه على مبايعته ، فضج الناس بهذا الأمر من جانب عبد الملك وثارت ثورتهم ، فروى عبد الملك حديثا عن النبى ﷺ فحواه أن مسجد بيت المقدس مثل المسجد الحرام وقال أن الحجر الذى وطأه النبى فى ليلة معراجه يماثل الحجر الأسود ، ثم شيد قبة فوق هذه الصخرة وأسدل عليها أستارا كأستار الكعبة وعين لها الخدام وأجبر الناس على الطواف حولها ، يقول اليعقوبى أن هذا أصبح تقليداً مرعيا طوال عهد بنى أمية [1]

---

(1) تاريخ اليعقوبى ، ج 3 ، ص 8

بعد أن فرغ عبد الملك من أمر الشام شن حربا على ابن الزبير ، وفى عام 71 هـ جرد جيشا إلى العراق ، فخرج ابن الزبير لصده ، وكتب عبد الملك رسائل إلى زعماء العراق يطالبهم فيها بالتخلى عن مصعب ، الا أن مصعب كان رجلا شجاعا صمد بالعدد القليل الذى كان معه فى باجميرا وأخذ يقاوم إلى أن أهلكته السهام التى انهمرت عليه .

ومن العراق قام عبد الملك بتوجيه الحجاج بن يوسف الثقفى إلى مكة لحرب عبد الله بن الزبير ، فحاصر الحجاج مكة (أول ذى القعدة عام 72 هـ) وانهال على المدينة والكعبة بالحجارة والمجانيق ، فانفض الناس من حول ابن الزبير واحدا تلو الآخر وأدرك عبد الله أنه ملاق حتفه ، وذات يوم ودع أمه الشيماء ذات النطاقين وخرج إلى ميدان القتال مع صحبه فقتل ، وكان فى سن الثالثة والسبعين (عام 73 هـ) ، وعلق جثمانه فوق مشنقة، وأعاد الحجاج بناء الكعبة وأمر بمحو كل تغيير قام به ابن الزبير فى بنائها .

كانت أحداث مكة سببا فى إعلاء مكانة الحجاج لدى عبد الملك ، فمنحه الكوفة فانهمك فى ردع الخوارج الذين كانوا يطلون برؤوسهم من حين إلى حين ، ومن ناحية أخرى اتجه إلى تعقب شيعة على و « قتلة عثمان » وغيرهم من الفئات المعارضةللدولة ، وكان بطشه فى ذلك شديدا ، فكان بصورة عامة بمثابة كارثة كبرى وقلما يتكرر مثله فى التاريخ ، وكان من مشاهير رجال الشيعة الذين قتلوا على يديه كميل بن زياد وميثم التمار ورشيد الهجرى وقنبر غلام على ، ثم أعطى عبد الملك كلا من البصرة وبلاد فارس للحجاج ، فسيطر على ذلك الإقليم الشاسع من خلال قادة معظمهم من ربائبه ومن هم على شاكلته (الملهب بن أبى صفرة ، قتيبة بن مسلم ، عبد الرحمن بن محمد ، محمد بن الأشعث وغيرهم) ، فبدأ بتعقب فلول أنصار ابن الزبير وشتت شمل الخوارج الذين انتشروا فى أطراف بلاد فارس ، فى حين اتجهت الجيوش للفتوحات خارج الحدود .

كان الناس يبغضون الحجاج بغضا شديدا ولم يكن يحبه سوى عبد الملك الذى كان يعتبر مكانه « بين عينيه » ، وفيما عداه كان كل الناس متعطشين لدمه ، كان عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث من أشراف قحطان وورث الزعامة عن أبيه ، وكان منهمكا فى القتال فى زابلستان لحساب الحجاج ، فكتب إليه الحجاج رسالة شديدة اللهجة واتهمه باللين والتهاون ، فثار عبد الرحمن واتفق مع جيشه من أهل العراق أعداء الحجاج على

الانقلاب ضد الحجاج ، واتجه بقواته صوب العراق (عام 81 هـ) قاصدا الحجاج ، فأسرع الحجاج لملاقاته فى جمع من أهل الشام ، ونشبت الحرب قرب شوشتر ، فانهزم الحجاج وفر إلى البصرة فطارده الجيش إلى البصرة ، ووقف الحجاج فى قلب المدينة مدافعا ، فنزل عبد الرحمن البصرة واتجه إلى الكوفة ، فهرع الحجاج إلى الكوفة بإمدادات القوات التى تلقاها من الشام ، والتقى الخصمان فى مكان قرب دير جماجم ودام القتال بينهما مئة يوم ، وكان عدد كبير من جند ابن الأشعث ينفضون من حول قائدهم على أثر الرسائل والوعود التى كان الحجاج يرسلها إليهم ، فذهب ابن الأشعث مرة أخرى إلى البصرة ، وهناك لم يكن آمنا فذهب إلى مسكن ، فذهب الحجاج إلى مسكن فى أعقابه ، وفى الليل عبرت جماعة من أهل الشام هورا لم يكن العدو يظن أن الخطر يمكن أن يأتيه منه وأغاروا على جيش ابن الأشعث فلاذ الجنود العراقيون بالفرار وغرقوا جميعا تقريبا فى نهر دجيل (عام 82 هـ) ، وذهب ابن الأشعث بهزيمته إلى خراسان ولاذ بحمى رتبيل ملك زابلستان بناء على سابق معرفة به ، فراسل الحجاج رتبيل ومناه بالوعود لكى يرسل ابن الاشعث مكبلا بالقيود إلى العراق ، وفى الطريق ألقى ابن الأشعث بنفسه من فوق تل فسقط قتيلا وحملت رأسه إلى الحجاج .

ما أن فرغ عبد الملك من حروبه الداخلية شن هجوما على الروم تأخر عن موعده خمسة عشر عاما ، فأنزل محمد أخو الخليفة هزيمة بالإمبراطور البيزنطى جوستينيان الثالث فى كليكية عام 83 هـ ، وتمت فتوحات أيضا على أطراف أرمينيا ، وفى عهد عبد الملك تم تعريب العملات النقدية التى كانت يونانية حتى ذلك الوقت وضربت أول عملة إسلامية فى دمشق عام 74 هـ ، كما تم تعريب الدواوين التى كانت تدون بالخطوط الأعجمية (باليونانية فى الشام ، وبالقبطية فى مصر ، وبالبهلوية فى العراق وفارس) .

ذهب عبد الملك للحج فى عام 85 هـ فى موكب مهيب ، وألقى عدة خطب فى مكة وتحدث فيها عن مساوىء عبد الله بن الزبير وعن محاسنه ، وفى المدينة لقى الناس بوجه عبوس وأمر خطباءه بأن يسبوا أهلها من فوق المنابر .

كان عبد الملك يتطلع إلى تنصيب ابنه الوليد وليا للعهد ، الا أنه طبقا لوصية مروان كان عبد العزيز هو ولى عهد عبد الملك ، فاسترضى عبد الملك عبد العزيز وأقنعه عن

طريق الشعبى [1] بأن يتنازل عن ولاية العهد وأن يتولى ملك مصر ، وفى رواية أنه دس السم لعبد العزيز . على أية حال ، توفى عبد العزيز قبل عبد الملك ، ولهذا فقد تولى الخلافة من بعده ولده الوليد دون منافس .

كان عبد الملك ربعة تمحى اللون ذا لحية طويلة ، وكان بخيلا ولكنه كان فى الوقت نفسه يعمل بجد ومثابرة وكان يشرف على كل الأمور فى الدولة بنفسه ، وكان يعارض آل على معارضة شديدة ، وكان عامله على المدينة هشام بن اسماعيل يسىء معاملتهم إساءة شديدة ، وكان عبد الملك حين وفاته فى الستين من عمره تقريبا .

اتسع نطاق الفتوحات فى عهد الوليد بن عبد الملك (الوليد الأول) ، فأخذ أخو الخليفة مسلمة بن عبد الملك وكان قائدا نابها أعمالا كبرى من بينها السيطرة على مدينة طوانة ، ودخل أوربا من شمال أفريقيا بعون من البربر المسلمين واستولى على الأندلس (عام 84 هـ) ، ونفذ الوليد ما خطط له والده فيما يتعلق بكنيسة يوحنا بدمشق ، فاستولى على الكنيسة وبنى مسجدا وهو المسجد الذى يعرف فى الوقت الحاضر بالمسجد الأموى الشهير ، وفى عهد الوليد أيضا ظل الحجاج على نفس قوته ، فظل يعمل القتل فى الناس من ناحية وينظم شئون البلاد من ناحية أخرى ، وبنى مدينة واسط ونظم أوضاع الزى فى العراق ووضع الأحكام ، وكان فى كل أعماله هذه يستعين بمهندس أرامى يسمى حسان النبطى ، وعلى أطراف خراسان قام قتيبة بن مسلم الباهلى بفتح ماوراء النهر لحساب الحجاج واصطدم بالترك بل وبالصينيين ، وكان محمد بن قاسم منشغلا فى وادى السند ، وتوفى الحجاج عام 95 هـ فى سن الثالثة والخمسين ، وفى العام التالى توفى الوليد أيضا فى سن الأربعين تقريبا ولحق بالحجاج ، أمر الوليد بتوسعة مسجد الرسول فى المدينة وضم إليه الديار المحيطة به ، وكان الوليد يولى اهتماما ملحوظا بالتشييد والتعمير (2) .

---

(1) أبو عمرو عامر بن شراحيل الشعبى (بفتح الأول وسكون الثانى) من طبقة العلماء وكتاب الأخبار ومن مقربى ديوان عبد الملك ، انظر ابن خلكان

(2) الطبرى ، ج 8 ، ص ، 98

تولى الخلافة بعد الوليد أخوه سليمان كما أوصى عبد الملك ، وكان الوليد فى عهده يفكر فى إزاحة سليمان عن ولاية العهد وأن يستبدل به ولده ، وأبدى الحجاج موافقته على ذلك ، إلا أن هذه الفكرة لم تدخل مرحلة التنفيذ ، ولهذا فعندما تولى سليمان الخلافة كان أول ما فعله هو أن عزل كل من قام الحجاج بتعيينهم فى مناصب الدولة انتقاما منه ، ومنح مكان الحجاج ليزيد بن المهلب الذى كان قد فر من سجن الحجاج ، واتبع يزيد نفس سياسة الحجاج واتخذ من واسط مستقرا له كما اتخذ سليمان من مدينة الرملة بفلسطين مقرا لخلافته وعاش فى رغد من العيش يعب من متاع الدنيا ، فقد كان يحب رغد الحياة، الا أنه سرعان ما توفى (عام 99 هـ) ، وكان خير ما فعله سليمان أنه لم يختر أحداً من بنيه لخلافته عملا بنصيحة رجاء بن حيوة واتخذ من عمر بن عبد العزيز الذى كان أكثر رجال بنى أمية صلاحا وليا للعهد .

كان عمر بن عبد العزيز (عمر الثانى) ينتمى إلى عمر بن الخطاب من ناحية أمه ، وكان واليا على المدينة لمدة طويلة قبل توليه الخلافة ، وكان يعرف بحسن المسلك وبالصلاح التام ، ونظرا لأنه كان يأوى العراقيين الذين كانوا يلوذون بالمدينة فرارا من بطش الحجاج ، فقد أوغر الحجاج إلى الوليد فعزله عن ولاية المدينة حتى آخر حياته ، وكان لإقامته الطويلة بالمدينة واطلاعه على سيرة النبى ﷺ ونهج مسلمى الصدر الأول للإسلام أثر شديد عليه خاصة وأنه كان تقيا صالحا بطبعه ، وعندما تولى مقاليد الخلافة كان كل همه الإصلاح (عام 99 هـ) ، لاشك أن الساحة لم تكن مهيأة لذلك فقد كان الفساد مستشريا بين الناس أو أغلبهم ، فأصدر عمر أمره بوقف الغزوات لأنه كان يعلم أن هذا الأمر لم يكن يقوم به القادة ومن ولاهم إلا بهدف الفائدة الشخصية والإغارة ، لا بقصد إعلاء دين الله ، وأمر بسحب الجيش الذى كان يحاصر القسطنطينية، كما أمر فاتحى خراسان ألا يتجاوزوا نهر جيحون ، وبهذا جمع الجيوش جميعا داخل حدود الدولة، وأنصف جنود الجيش الذين أصابهم الفقر نتيجة لجشع قادتهم وعاقب هؤلاء القادة الجشعين وطالبهم برد الأموال التى نهبوها ، وحكم على يزيد بن المهلب الذى كان جبار العراق خلفا للحجاج بالسجن وأرسل إلى أركان الدولة عمالا جددا بتعليمات جديدة يهتدون بها ومن بينها ما يتصل بالخراج ففى بداية الفتوحات الاسلامية كان من المقرر أن يتم تحصيل ضريبة رؤوس تسمى جزية من أهل الذمة ، فكان كل منهم بدفع ضريبة

أراض تسمى الخراج عن أية أرض مزروعة يملكها ، واذا دخل الذمى الإسلام ترفع عنه الجزية والخراج جميعا ويبدأ دفع زكاة المال كغيره من المسلمين ، ورفع الأمويون الضرائب وأضيفت إليها تجاوزات عمال الدولة حتى ضج الناس بالشكوى ورفعوا راية الثورة عدة مرات دون نتيجة [1] ، فكان الذميون يعتنقون الإسلام فرارا من الجزية والخراج ، وكانوا يتنازلون عن ملكية أراضيهم ويهجرونها وينزحون إلى المدن ، فأمر الحجاج بمنع أى شخص من النزوح من القرية إلى المدينة ، وفرض الخراج حتى على الذمى الذى يتحول إلى الإسلام ، وكان خلفاء بنى أمية يجمعون الجزية حتى من الرهبان النساك الذين كان قد تقرر إعفائهم بموجب أحكام الصدر الأول للإسلام . ومن ناحية أخرى ، كان يتم تجنيد الذميين الذين يتحولون إلى الاسلام والموالى أى الغلمان المحررون وأبناؤهم ويرسلون إلى الميدان دون أن يكون لهم تصيب من الرواتب والغنائم التى كان الجيش كله يحصل على أنصبة منها ، فألغى عمر بن عبد العزيز كل هذه المظالم وأصدر حكما بعدم تحصيل الخراج من ذمى يتحول إلى الاسلام ، ويمنح الموالى فى الحرب رواتب وغنائم . ونتيجة لهذا الحكم المنصف أخذ الذميون فى بلاد فارس فى دخول الإسلام جماعات رغم أنف عمال الضرائب، فكتب العمال تقريرا عن انخفاض الدخل للخليفة وطالبوا بإعادة الأمور إلى ماكانت عليه ، إلا أن عمر رد عليهم بالرفض بلهجة حادة ، إضافة إلى ذلك أعلن إدخال الأراضى المفتوحة ضمن الأموال العامة أى من متعلقات بيت المال وعدم أحقية أى فرد فى بيعها أو شرائها وأن يكون القائمون على هذه الأراضى فى حكم المزارعين وحسب .

أمر عمر فى عهده بترك فدك لبنى فاطمة اكراما لهم ، ومنع الاساءة إلى على من فوق المنابر ومنح الخمس لبنى هاشم ، وأمر برفع كثير من المظالم وحد من سيطرة عمال الدولة وتصرفهم فى الأموال والأرواح ، وأمر بعدم أحقية أى عامل فى قتل أو شنق أى فرد من الرعية دون مراجعة الخليفة نفسه ، وكان الخلفاء السابقون يحصلون أموالا من الناس تحت اسم « هدية النوروز » أو « ضريبة القلم والدواة » وما إلى ذلك مما كان يتم تحصيله بالقوة وكان يصل إلى مبالغ ضخمة ، وأوقف عمر العمل بكل ذلك .

---

(1) انظر : تاريخ التمدن الإسلامى ، ح ، 2 ، ص 85

الا أن عهد خلافة عمر لم يدم طويلا ، فقد توفى بعد عامين وخمسة أشهر على أثر مرض دام عشرين يوما ، وكان آنذاك فى سن التاسعة والثلاثين (رجب عام 151 هـ)، ويروى أن بنى مروان دسوا له السم لخوفهم من زوال ملكهم ، وخلف عمر يزيد بن عبد الملك بناء على وصية سليمان بن عبد الملك،ويقال أن عمر كان يود أن يغيره فى آخر أيام حياته بعد أن عرف من مفاوضاته مع زعماء الخوارج ونتيجة لاستدلالاتهم أن تعيين الخليفة بهذا الشكل كان مجافيا للشريعة ، مما أدى إلى خوف بنى مروان فدسوا له السم[1] .

كان يزيد بن عبد الملك (يزيد الثانى) صهر أخى الحجاج . لذا ، فحين تولى مقاليد الخلافة جاءته أسرة الحجاج تشكو من بطش يزيد بن المهلب على آل الحجاج فى ولايته بالعراق ، فأمر الخليفة بتعقب ابن المهلب ، ففر ابن المهلب إلى البصرة حيث اتخذ منها ملاذا بحكم أنه كان من أهلها وكان أهله واتباعه بها ، فاستولى على المدينة إلا أن واليها عدى بن أرطأة تحصن بالقلعة ، فاستدعى ابن المهلب قبائل أزد وربيعة اليمنية وبذل العطاء لهم وفتح القلعة بمساعدتهم ، ثم استولى على الولايات التابعة للبصرة كالأهواز وفارس وكرمان ، ولم يبق خارج سيطرته سوى خراسان ، إذ كان بنو تميم يحكمون سيطرتهم عليها ، فتحرك ابن المهلب صوب الكوفة لفتحها ، وفى عقر[2] على ضفة الفرات قابل جيش الشام وعلى رأسه مسلمة بن عبد الملك ونشبت الحرب ، وتم إحراق الجسر من وراء جيش يزيد بأمر من مسلمة ، فخاف جنود يزيد ولاذوا بالفرار ، إلا أن يزيد صمد أمامهم وأخذ يقاوم فى بسالة حتى قتل ، وفر من تبقى من أسرة المهلب من البصرة إلى كرمان ومنها إلى سمر قند ، وفى النهاية ألقى القبض عليهم جميعا وقتلوا بأمر من الخليفة .

لم يكن يزيد أهلا للإدارة والسياسة ، فكان رجلا ضعيفا لا يستند إلى فكر ثابت ، وكان شغله الشاغل فى بدء توليه الخلافة هو تغيير عماله ورجال دولته ، فألغى الأحكام

---

(1) الطبرى ، ج 8 ، ص 142 .

(2) بفتح الأول وسكون الثانى ، اسم مشترك بين عدة مناطق منها عقر بابل وهو مكان بالكوفة قرب كربلاء ، انظر : معجم البلدان .

التى وضعها عمر بن عبد العزيز فيما يتصل بالضرائب وفرض الجزية والخراج من حديد على مسلمى الصغد ، وترك الحبل على الغارب لعمال الدولة يفرضون مايشاءون ، فى حين انشغل هو تماما فى المباهج والملذات ، وأمضى حياته فى صحبة مطربتيه سلامة وحبابة وكان يهتم بهما اهتماما يصل إلى حد الهوس ، وتدخلت المطربتان فى شئون الدولة وتشبث بهما موظفو الدولة ، وعندما توفيت حبابة حزن الخليفة حزنا شديدا عليها حتى توفى بعدها بسبعة أيام فى أربد (بشرق الأردن) فى شعبان من عام 102 هـ ، وكان عمره بين الثالثة والثلاثين والأربعين ، وقد حدد أمر خلافته بأن يخلفه أولا أخوه هشام ثم ولده الوليد من بعده .

كان هشام بن عبد الملك - على خلاف أخيه وسلفه - رجلا يحب الإصلاح ولا ميل لديه للهزل والملذات ، فولى خالد بن عبد الله القعرى على ولايات المشرق أى العراق وملحقاتها ، وكان خالد هذا من تلاميذ الحجاج ويشبهه فى مسلكه ، الا أنه لم تكن له نفس الشهوة الدموية ولو أنه كان أحيانا يحرق المعارضين بالنار طاعة منه لسادته ، كان الناس ينفرون منه على أية حال ، وقام الخوارج والشيعة بثورات فى أواخر ولايته ، وكان خالد يعد من أصل قحطانى وكانت أمه نصرانية ، وبنى خالد كنيسة لها ، وكان يهادن النصارى واليهود ، وكانت إدارته تضم عددا من المجوس ،وكان يولى اهتمام للعقيدة المانوية ، ورغم كل هذا فقد أدار دفة الحكم بالعراق بكفاءة تامه لمدة خمسة عشر عاما ، وجمع ثروة وأملاكا شاسعة ، ومن انجازاته تخفيف أهوار واسط على يد حسان النبطى وأقام مزرعة مكانها ، وفى النهاية لفتت ثروة خالد الفاحشة انتباه الخليفة الذى كان هو نفسه رجلا محبا للمال ، فأتى يوسف بن عمر الثقفى قريب الحجاج بأمر من الخليفة من اليمن إلى العراق وألقى القبض على خالد ،وأطلق سراحه بعد ثمانية عشر شهرا من السجن والتعذيب .

وفى ولاية يوسف أتى زيد بن على بن الحسين إلى الكوفة وأعلن ثورته بها ، ودامت حركة زيد مدة عشرة أشهر ، وكان يوسف فى البداية لا يعلم بأمره إلى أن أطلعه هشام من الشام ، وفى يوم الخروج والحرب لاد زيد بالفرار فى حين صمد هو وقلة معه إلى أن قتل فى صفر عام 122 هـ ، وعلق جثمانه بالكوفة وأخذت رأسه إلى دمشق أولا ثم إلى المدينة ، وكان زيد من علماء آل البيت وقام أتباعه من بعده بتكوين فرقة هامة تسمى

الزيدية ولا تزال قائمة إلى الآن .

واستأنف هشام الحرب ضد الروم ، وكان ولداه معاوية وسليمان قائدى هذه الحملات ، ومعاوية هذا كان جد الخلفاء الأمويين بالأندلس ، وقد سقط يوما من فوق جواده فى رحلة صيد ولقى حتفه ، وقبره بالقرب من مدينة بروسه [1] بمكان يقال له سيدى غازى فى آسيا الصغرى ، وكانت لهم حروب مع الترك على سواحل بحر الخزر وكانت تنتهى دائما بالهزيمة ، وفى الأندلس وبعد عبور بيرينيه والتمركز فى ناربن وهو ما تم فى عهد عمر بن عبد العزيز اشتبك العرب مع الفرنج وهاجموا مدينة تولوز الا أن " ايود " أمير الفرنج قام بصدهم ، وفى عهد هشام تولى عبد الرحمن بن عبد الله ولاية الأندلس ، وقد هزم مونوزة البربرى الذى ثار فى شمال الأندلس واتحد مع ايود ، ومن هناك اتجه إلى ايود لقتاله وألحق به الهزيمة بين نهرى غارون ودوردن [2] (بفرنسا) ، الا أن ايود حصل على إمدادات من شارل مارتيه والتقى بجيش العرب قرب بواتييه ، واستمر القتال لعدة أيام ، وذات يوم نظم العرب صفوفهم وهجموا بصورة مكثفة الا أن الفرنج صمدوا أمامهم وتراجع العرب فى اليوم التالى (رمضان 114 هـ) ، وكانت هذه الحرب تعرف باسم حرب بواتييه ، وبعد عشر سنوات قام العرب بالتوغل مرة أخرى داخل الأراضى الفرنسية عبر نهر غارون إلا أنهم لم يسيطروا على أراض فيها ، بل كان مجرد هجوم مركزه قلعة ناربن (Narbonne) التى تتصل بولاية بروفانس بخط من القلاع الحصينة (الرباطات)، وبعد أن استعاد شارل بواتييه حاصر قلعة ناربن إلا أنه لم يتمكن من فتحها ، وبعد اثنين وعشرين عاما فتحها "بين " ملك الفرنج المعروف بالقصير ، وكان ذلك فى عام 759 ميلادية ولم تدخل تحت سيطرة العرب مرة أخرى رغم ما بذلوه من جهد فى هذا الصدد .

بعد حرب بواتييه استبدل هشام والى الأندلس عدة مرات ولكن دون نتيجة ولم يحق

---

(1) ورد فى كتاب هوار كحاشية لبسوى . وهى ناحية فريغية الرومية وتسمى المدينة التى توفى فيها معاوية أكرويسس

(2) نهر غارون Garonne يقع بفرنسا ، وينبع من جبال بيرينيه وبعد التقائه بنهر دوردن Dordonne يسمى " غارون الأكبر " ويصب بالمحيط الأطلسى .

الانتصار على الفرنج ، من ناحية أخرى ثار البربر بشمال أفريقيا على تعسف عمال الدولة ومن ثقل الجزية والخراج ، فأرسل هشام جيشا بقيادة كلثوم بن عياض القشيرى من الشام لقمع الثوار ، فانهزم الجيش وقتل ابن عياض .

وعلى الطرف الآخر من الدولة وفى بلاد الصغد اتحد الأهالى مع الترك أعدائهم القدامى بسبب الضرائب الباهظة التى فرضت عليهم دون وجه حق ، وساء موقف العرب نتيجة لذلك ، فأرسل الخليفة نصر بن سيار إلى هناك وكانت له تجارب سابقة فى هذه المنطقة ، فسيطر على الأوضاع ولو بشكل مؤقت .

توفى هشام فى ربيع الثانى من عام 125 هـ فى سن الخامسة والخمسين تقريبا فى الرصافة ، وكان ربعة أصفر البشرة وذا لحية مصبوغة بالسواد ، وكان هشام مسرفا ويحب جمع المال ولهذا كان يولى اهتماما شخصيا خاصا ودقيقا إلى الشئون المالية ، وجمع نتيجة لذلك أموالا وأملاكا ، وكان يطالب عماله بجباية الضرائب من كل سبيل يمكن جبايتها منه ، لكنه كان فى الوقت نفسه شديدا فى أمور العقائد الدينية ويجالس علماء الحديث ويطارد القدرية [1] .

توفى الإمام محمد الباقر فى عهد هشام فى عام 117 هـ فى سن الثامنة والخمسين ودفن بالبقيع ، وفى العام التالى لحق به على بن عبد الله بن العباس فى داره بالحميمة بالقرب من دمشق .

تولى الوليد بن يزيد بن عبد الملك (الوليد الثانى) الخلافة طبقا لوصية أبيه خلفا لهشام ، ولما كان شابا ميالا للهو والمجون فقد فكر هشام فى عزله من ولاية العهد وأن يعين بدلا منه ولده مسلمة ، فلم يوافق الوليد على الاستقالة ووقعت الجفوة بين عمه وابن أخيه ، وعاش الوليد فى أواخر عهد هشام بعيدا عنه فى قصر بالبادية يسمى البخراء مع ندمائه ، وذهب إلى دمشق بعد وفاة هشام وتولى مقاليد الخلافة وبدأت الخلافات بينه وبين عمال هشام وأهله .

(1) ورد ذكر معاملته لغيلان القدرى فى العقد الفريد ، ج 1 ، ص 332 .

ذهب يحيى بن زيد إلى خراسان بعد مقتل أبيه وأعلن تمرده هناك ، فطارده عمال نصر بن سيار والتقى به فى جوزجان وقتل يحيى ، فى تلك الآونة أمر الوليد يوسف بن عمر الوالى بحرق جثمان زيد فى الكوفة ونثر رماده فى الفرات .

كان الوليد ينتسب إلى أسرة الحجاج من ناحية الأم ، وكان يوالى آل نزار فى العصبية العرقية ، وكان يتعقب القحطانيين بالأذى ، لذا فقد سلم خالد القشيرى الذى كان أكبر زعماء القحطانيين فى ذلك الوقت ليوسف بن عمر الثقفى لكى يعذبه ويقتله وبشتت شمل أسرته ، واشتد أمر العصبية بين الطائفتين فى أطراف البلاد وخاصة فى خراسان ، واختلت الأوضاع.ومن ناحية أخرى،كان الوليد ،كما سبق أن ذكرنا،رجلا يميل إلى اللهو والشراب وكان يفضل مجالس المجون ورحلات الصيد وصحبة المطربات والندماء وكلاب الصيد على إدارة شئون الدولة ، وكان بالإضافة إلى ذلك رجلا ظالما يسفك الدماء حتى بين أقاربه من بنى أمية ، فقد عذب ولدى هشام ابراهيم ومحمد حتى الموت ونصب ولديه الحكم وعثمان وليين للعهد ، فهيأت الساحة لسقوطه من كل ناحية ، فقام ابن عمه اليزيد ابن الوليد بن عبد الملك (يزيد الثالث) ، وكان رجلا يتظاهر بالصلاح بإقناع جماعة من بنى أمية واستدعى القسريين وسائر القحطانيين واستولى على دمشق بدعوى الخلافة، فبلغ الخبر الوليد وكان يقيم بقصر البحراء ، فأمر الوليد بضرب الرسول مئة عصا واتجه إلى تعبئة الجيش ، الا أنه لم يتمكن من حشد أكثر من مئتى فرد ، فاستولى المهاجرون على القلعة وعثروا عليه فى حجرة خلفية من القصر وقتلوه والمصحف بيده كما حدث لعثمان (فى جمادى الثانية 126 هـ) ، والنقطة الهامة فى تلك الحادثة هى انفصام عرى الوحدة التى كانت تربط بين أفراد بنى أمية وكانت تعد من الأسباب الرئيسية لنجاحهم حتى ذلك الوقت ، وانتهت الأحداث لمصلحة بنى العباس ودعوتهم ، كما سنرى .

تولى يزيد الثالث الخلافة استنادا إلى القبائل اليمنية (القحطانية) وبدأ فى إصلاح ما خربته يدا الوليد وأسلافه ، فألقى بيوسف بن عمر الثقفى فى السجن عقابا له كما حكم بالسجن أيضا على ابنى الوليد اللذين كان يلقبان بوليى العهد ، ونصب أخاه إبراهيم ابن الوليد وليا للعهد [1] ، وأعلن التمرد مروان بن محمد المعروف بمروان الحمار [2]

(1) ثمة خلاف حول هذا الموضوع ، انظر ، العقد الفريد ، ج 2 ، ص 178

(2) من التفسيرات التى قيلت فى سبب هذه التسمية أنه كان يعشق زهرة تسمى « ورد الحمار »

والذى كان ينتسب إلى شعبة أخرى من بنى مروان وكان يتولى ولاية أرمينيا ، ورفع راية الثأر للوليد ، فاسترضاه يزيد بمنحه الولاية وحصل على البيعة منه ، الا أن الشرارة كانت قد اندلعت وعمت الفتنة كل مكان ، فتحرك الخوارج فى العراق ونشط الدعاة العباسيون بخراسان واشتعل صراع التعصبات القبلية بين العرب فى خراسان ، ولم يطل عهد يزيد ، فقد وافته المنية بعد خمسة أو ستة أشهر (فى ذى الحجة عام 126 هـ) ، وكانت أمه فارسية ، وفى رواية كانت أميرة وكانت تسمى " شاه آفريد " ، ويطلق على يزيد الثالث لقب " يزيد الناقص " بسبب أنه أمر بتخفيض قدر من رواتب الجند يوازى ماكان الوليد قد أمر بإضافته ، أو ربما لأن مروان الحمار كان يناديه بـ " ينقص " من باب الذم . ولم يغير إبراهيم بن الوليد خليفة يزيد من الأمور شيئا ، فظلت البلاد فى حالة فوضى والناس ينتظرون مايستجد من أحداث ، وكان الواردون على الخليفة ينسون أحيانا تحيته بالخلافة أو حتى بالأمارة ، وما أن علم مروان الحمار بالجزيرة [1] بموت يزيد الثالث حتى جمع عرب قيس وربيعة الذين كانوا العنصر الغالب فى المنطقة وكانوا على خلاف مع كلبيى الشام وصنائعهم من الحلفاء ، واتجه بهم صوب دمشق بقصد خلع إبراهيم وتولية ولدى الوليد الثالث الذين كانا بالسجن فى دمشق عاصمة الخلافة .

كان مروان هذا قويا معنويا وجسمانيا ولما كان قد أمضى جزءا كبيرا من عمره فى أرمينيا وآذربيجان فى حروب على الحدود فقد كان قائدا مجربا ومطلعا إضافة إلى قدرته على البيان والإنشاء، لكنه وصل بعد أن بلغ الأمر ببنى أمية نقطة يصعب علاجها، فعندما اتجه إلى دمشق ومعه عرب قيس من كل مكان خرج لصده سليمان بن هشام من قبل إبراهيم بن الوليد فى عين الجر(بلبنان) فهزمه، ودخل مروان دمشق ورحل إبراهيم عنها وفر إلى تدمر، وكان أقرباء إبراهيم قد قتلوا قبل فرارهم ولدى الوليد السجينين فى السجن ، وروى أحد الشعراء المرائين أن ولى العهد المقتول نظم شعرا قبل مصرعه مفاده أن مروان سيصبح أميرا للمؤمنين من بعده ، فأخذ مروان البيعة على الخلافة من الناس فى السادس والعشرين من صفر عام127 هـ وأعطى الأمان لسليمان وإبراهيم واستقبلهما وأكرم وفادتهما ، الا أن أتباعه أخرجوا جثة يزيد الثالث من القبر وعلقوها على مشنقة ،

---

(1) جزيرة ابن عمر كانت مدينة تقع إلى الشمال من الموصل .

ثم عاد مروان إلى مستقره القديم فى حران واتخذ منها عاصمة له ، حيث كانت مستقر أتباعه من بنى قيس ، وتم نقل خزانة دمشق إلى هناك ، وحينئذ ثارت بعض مدن الشام ، فأتى مروان وأخمد ثورتها ، ثم أرسل جيشا بهدف الاستيلاء على العراق ، وثار ذلك الجيش فى الرصافة وطالب بتولى سليمان بن هشام مقاليد الخلافة ، وكان سليمان يعيش منذ فترة فى تلك المدينة فخرج مروان وأخمد ثورة الجيش وأقام مذبحة بشعة وظل سليمان يقاوم مدة فى مدينة حمص [1] ، وفى النهاية فر إلى الكوفة ، وبسقوط حمص دانت الشام خالصة لمروان .

كانت العراق فى حالة غليان منذ عهد يزيد الثالث ، وثار بها عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر الطيار والتف الزيديون حوله ، وهب لقتالهم والى يزيد على العراق وهوعبد الله بن عمر بن عبد العزيز ، وبعد مقاومة باسلة استسلم الزيديون فى محرم عام 127هـ ، الا أن عبد الله بن معاوية ذهب إلى بلاد فارس وبنى لنفسه تكية بمساعدة أهل فارس ، وبعد فترة وجيزة قام أحد الخوارج يدعى الضحاك بن قيس الشيبانى بمحاصرة الكوفة والاستيلاء عليها ، ثم استولى على واسط فى شوال عام 127 هـ ، واتخذ الضحاك من الكوفة عاصمة له ، وكانت هذه أول مرة يستولى الخوارج على هذه المدينة ، وفى ذلك الوقت تولى مروان مقاليد الأمور ، فخرج الضحاك بجيشه قاصدا مروان بالموصل،وحاصر عبدالله بن مروان الذى كان قد خرج لصده فى نصيبين،وبعد أن فرغ مروان من أمر حمص كما سبق الذكر اتجه لقتال الضحاك فهزمه فى كفر توثا [2] فى أواخر عام 128 هـ ، وظل يتعقب الضحاك حتى العام التالى إلى خارج العراق ، وأعلن الثورة خارجى آخر يدعى أبا حمزة فى حضرموت وأعمل القتل والخراب بمكة والمدينة ، وانتهى أمره بدوره فى عام 130 هـ ، وتمكن مروان من أن يستقر لفترة فى الخلافة فى حران [3]

---

(1) حمص مدينة بين دمشق وحلب .

(2) قرية من توابع جزيرة ابن عمر .

(3) بتشديد الراء ، كانت مدينة قرب الديار المصرية

الا أن أحداثا رهيبة كانت فى طور البداية بخراسان ، وهى حركة أبى مسلم ودعوة بنى العباس التى هى موضوع الفصل التالى .

الدعوة العباسية وابو مسلم :

انتشرت دعوة الشيعة فى خراسان ، وكلما زاد ضعف السيطرة الأموية بسبب ضعف الخلفاء أو ضعف العرب المساندين للخلافة ازداد نفوذ الشيعة وهى الدعوة التى بدأت فى زمن محمد بن الحنفية وربما على يديه ، وكان موضوعها آل على وخلافتهم ، إلا أن بنى العباس تمكنوا فى النهاية من تحويلها إلى صالحهم بمهارة مشهودة .

كانت خراسان آنذاك تابعة للبصرة وتخضع لحكم واليها ، وكان يقطنها قبائل عربية كانت قد شاركت فى فتح فارس ، وكانت كل عشيرة تتخذ لنفسها نطاقا تسيطر فيه على القرى والمزارع والمراعى ، وكان الخلفاء يحتاجون إلى هذه المستوطنات فى حروبهم الحدودية وتوسيع نطاق فتوحاتهم ، وكانت هذه العشائر تعانى الفرقة والخلافات فيما بينها من ميراث الحقبة الجاهلية ، وكانت الدولة الأموية التى قامت أسسها على هذه الخلافات تزكى نار الفرقة بين القبائل ، وفى خراسان كانت قبيلة بنى تميم أهم القبائل العربية وأشدها نفوذا وأكثرها عددا ، وكانت هناك منذ بداية فتح بلاد فارس ، وكانت تعد من أصل عدنانى ، وفى مقابل بنى تميم كانت قبيلة أزد التى كانت من أصل قحطانى ، وكانت قد انضمت إلى الجيوش الإسلامية والفتوحات فى عهود أقدم من انضمام بنى تميم ، الا أنها ازدادت نفوذا بسبب علو شأن أسرة المهلب وانضمت إليها أيضا قبائل ربيعة ، وكانت هناك صراعات بين هذين الفريقين على الزعامة فى خراسان ، ففى عام 96 هـ ثار بنو تميم على قتيبة بن مسلم الباهلى [1] الذى كان والى خراسان وقائد حروب تركستان ، وقتلوه فى الحرب ، وبهذا أثبتوا تفوقهم على اليمانيين ، ولكن بعد فترة أعلى يزيد بن المهلب من شأن قبيلة أزد فى خراسان وبالتالى ضعف شأن بنى تميم* ، وعلى أثر سقوط أسرة المهلب انعكست الصورة ، وفى خلال هذه الصراعات انتشرت سرا دعوة الشيعة التى وجد بنو العباس لأنفسهم مكانا فيها .

---

(1) كانت باهلة طائفة صغيرة من القحطانيين .

كان الإمام العباسى يقيم فى حميمة بمنطقة شرات قرب دمشق ، وكانت مقاما للأسرة العباسية منذ عهد عبد الملك بن مروان ، وكان الدعاة والمريدون يفدون إليه بالأموال والهدايا قاطعين هذا الطريق الطويل من خراسان ويتلقون تعاليمه ويعودون ، وكان لهم مركز للدعوة فى الكوفة أيضا ، وكان الإمام أحيانا يزور دعاته بمكة فى موسم الحج محتميا من سوء ظن الحكومة بالزحام ، كانت تعاليم الامام لدعاته أن يركزوا على الفرس ويعتمدوا على العرب من قبائل اليمن (القحطانيين) وأن يظهروا الود للمضريين (النزاريين) فى حين يبطنوا لهم العداوة ويبيدوهم إبادة إن استطاعوا ، وكان منهج الدعوة أن يتحدثوا فى البداية عن محاسن الإسلام ثم يذكروا مساوىء بنى أمية وفسادهم وانحرافهم عن جادة الإسلام ، ثم يبدأون فى الحديث عن مناقب أهل البيت وآل محمد (ويقصدون بالتسميتين بنى العباس) والمظالم التى تعرضوا لها وأن الإسلام الحقيقى لديهم ، وفى النهاية تبدى ضعف بنى أمية ، وكان الإمام مطلعا تماما على الأوضاع فى خراسان وظل ينتظر الفرصة .

فى تلك الأونة ظهر زعيم من بنى تميم يسمى الحارث بن سرج، وكان خارجيا لبعض الوقت إلا أنه كان يؤمن بعقيدة المرجئة [1] ، فادعى أحقيته فى الخلافة فى طخارستان ، فدانت له مدن ماوراء النهر ، إلا أنها سرعان ماثارت عليه بمجرد أن جاء جيش والى خراسان لمحاربته ، واتفق الحارث مع الترك ، إلا أن سيار طرده من تشاج فأخذ يهيم مدة على حدود سيردريا [2] ، ثم هاجم مرو إلا أنه انهزم وقتل فى رجب من عام 128 هـ ، كان نصر بن سيار رجلا ذا بصيرة نافذة ، واستطاع فى عهد حكمه أن يرفع الجزية عن الذميين الذين دخلوا الإسلام وأن ينجز أعمالا طيبة من هذا القبيل ، إلا أن الإضطرابات فى خراسان كانت أعمق من أن يتم إصلاحها بهذه السهولة ، وبعد مقتل الحارث بن سريج ظهر معارض آخر لنصر بن سيار وهو الكرمانى (وكان عربيا يكنى بهذه الكنية) وكان من زعماء اليمانيين ، وكان مقتل الحارث فى الحقيقة قد تم على يديه ويد قبيلته وكذلك تحرير مرو ، ونشبت الحرب بين نصر والكرمانى فى مرو ، وبينما كان الفريقان كامنين فى

(1) المرجئة إحدى الفرق الإسلامية التى تختلف عن الشيعة وعن الخوارج فى بعض مبادئها .

(2) وتسمى أيضا سيحون .

الخنادق إيذانا بالقتال ظهرت طلائع حيش الشيعة وعلى رأسه أبو مسلم ، ففى هذه الآونة أرسل الإمام العباسى لواء الظل وراية السحاب وأصدر أوامره بالخروج على الفور ، فأصيب القائدان النزارى واليمانى نصر والكرمانى بالرعب عند رؤية حشود أبى مسلم ، فعرض نصر على غريمه الصلح فوافق ، ولكن نصر أمر أتباعه باغتيال الكرمانى فى أثناء التفاوض ، وتحصن فى مرو ، وأطلع خليفته مروان على الأمر وطلب العون ، إلا أن مروان أجابه قائلا : « احسم الثؤلول من قبلك » ، وبات واضحا أنه لن يتلقى امدادات منه، ثم فكر نصر وابن الكرمانى الذى حل محل أبيه فى أن يستميلا أبا مسلم إلى جانبهما ويبد أوا فى التفاوض ، فاتخذ أبو مسلم جانب ابن الكرمانى أى اليمانى الأصل طبقا لأوامر الإمام تجاه العرب ، فدخل مرو بعون منه ولاذ نصر بالفرار إلى نيسابور(فى جمادى الأولى من عام 130 هـ) .

ليست هناك معلومات كافية عن أصل أبى مسلم ومن أين أتى ، ففى حين يعتقد البعض أنه من اصفهان يرى البعض الآخر أنه من مرو ، وهناك خلاف أيضا حول أصله العرقى بين قائل بأنه مروى أو عربى أو أعجمى [1] ، ومن أشهر ما كتب فى هذا الصدد انه كان غلام عيسى بن معقل العجلى وفى عام 124هـ رأى فيه بكر بن ماهان أحد الدعاة لبنى العباس كفاءة وكياسة حين كان فى السجن وإخلاصه الذى يكنه لدعوتهم ، فاشتراه من عيسى وأخذه معه إلى الشام وأهداه للإمام ، فسلمه الإمام لأحد الدعاة ويسمى موسى السراج ليعلمه فنون الدعاية ورموز الدعوة ، وبعد أن تلقى التدريب أرسله الإمام إلى خراسان لرعاية شئون الشيعة وإعداد مقدمات التحرك الثورى ، وثمة رواية أخرى معناها أن أبا مسلم لم يكن مملوكا بل كان عاملا لإدريس بن معقل . على أية حال، كان الإمام العباسى وقت حركة أبى مسلم الثورية هو إبراهيم بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس ، ويصل دعاة بنى العباس بسلسلة إمامتهم إلى محمد بن الحنيفة فى البداية ، وكانوا يزعمون أن أبا هاشم ابن محمد بن الحنيفة الذى آلت إليه الإمامة بعد أبيه كان فى رحلة إلى الشام ونزل فى خيمة لدى محمد بن على والد إبراهيم هذا ، ونقل إمامته إلى محمد هذا ثم مات ، وكان محمد الذى يعد أول أئمة العباسيين أول من أوفد الدعاة إلى

(1) ابن خلكان ، مادة « عبد الرحمن » .

أنحاء البلاد ، وكان قد أمر بطلب « الرضا من آل محمد » وألا يذكروا اسما محددا ، وبعد محمد ولى الإمامة ولده إبراهيم بوصية منه ، وأخرج أبو مسلم الدعوة إلى العلانية، وبهذا ارتبطت فرقة الراوندية التى والت الدعوة لإمامة بنى العباس فى البداية بفرقة الكيسانية أى أتباع محمد بن الحنيفة وعدت امتدادا لها ، وفى عهد المهدى العباسى أرادوا أن يقطعوا هذا الإرتباط ، فنسبوا سلسلة الإمامة إلى العباس بن عبد المطلب مباشرة بدعوى أنه كان عم النبى ووريثه ، وبهذا أخرجوا العلويين من حساباتهم .

فى الوقت الذى استولى فيه أبو مسلم على مرو أتاه فتح آخر دون جهد منه ، فعبد الله بن معاوية الذى كان قد استولى على جنوب فارس لفترة من الوقت بدعوى الخلافة فر أمام الجيش الذى حرده مروان إليه فترك أصفهان وذهب إلى خراسان ولاذ بأبى مسلم ، فزج به أبو مسلم فى السجن ثم قتله ، وبعد فتح مرو أرسل أبو مسلم قادته لفتح المناطق المحيطة بخراسان ، وتقدمت هذه الفتوحات بسرعة كبيرة ، ودخلت فرقة من قوات مروان من أصفهان إلى جرجان ، فأمر أبو مسلم قحطبة بن شبيب بالخروج لصدها ، فأنزل قحطبة الهزيمة بتلك الفرقة فى جرجان وتعقبها إلى أطراف الرى ، وانسحب أبو مسلم أيضا من مرو إلى حوار نيسابور ، فلم ير نصر بن سيار فائدة من البقاء بخراسان خاصة وأن ابنه تميم كان قد هزم فى طوس فى الحرب وقتل ، ففر نصر من نيسابور إلى الرى واتجه منها إلى همدان وهو مريض ، وتوفى فى الطريق عند ساوة فى ربيع الأول من عام 131 هـ .

بلغ قحطبة أواسط بلاد فارس وظل يتعقب أعداءه ، وفى النهاية وبعد أن فر جنود الخليفة الأموى أمام جيش قحطبة توقفوا للمقاومة فى نهاوند بعد أن أخلوا همدان ، وأعلنوا التسليم بعد عدة أشهر فى ذى القعدة من عام 131 هـ ، واتخذ جيش خراسان الطريق المعتاد من كرمانشاه إلى حلوان إلى خانقين ثم هبط من الهضبة الإيرانية إلى سهول العراق وفاجأوا العدو ، واختفى قحطبة فجأة ذات ليلة فى خضم القتال وبصورة مجهولة ، وأتم الفتح ولده حسن وكان قائدا حكيما شهما ، فدخل الكوفة مباشرة فى محرم من عام 132 هـ ، وبعد هذه الموقعة ألقى القبض على إبراهيم الإمام فى حميمة ، بأمر من مروان ، ثم قتل فى السحن فيما بعد ، إلا أن أخاه أبا العباس عبد الله بن محمد بن على دهب مع عدد من أقاربه فرارا إلى الكوفة لدى الشيعة هناك ، وفى تلك الآونة دخل حسن بحيشه إلى الكوفة ، فأعلن الشيعة عبدالله هذا خليفة بحكم أن

إبراهيم اتخذه وصيا وخليفة له (فى ربيع عام 132 هـ) ووضعوا أبا سلمة الخلال الذى كان زعيما للشيعة فى الكوفة وقائما على الدعوة بها وكان قد أبدى ميلا إلى العلويين أخيرا أمام الأمر الواقع .

فى الوقت نفسه خرج مروان من حران واتجه إلى الكوفة عن طريق الموصل وخرجت جماعة من جيش خراسان لملاقاته ، ونشب القتال على ضفة نهر الزاب الأكبر ، واستمرت الحروب من الثانى إلى الحادى عشر من جمادى الآخرى ونزلت بمروان هزيمة فادحة ، وكانت هذه الموقعة التى تعرف بموقعة الزاب بمثابة إيذان بأفول نجم الدولة الأموية ، وذهب مروان بجيشه المهزوم إلى حران وأسرع منها إلى دمشق أملا فى أن يجد بها ملاذا فلم يجد ، فواصل المسير إلى مصر السفلى ومنها إلى مصر العليا ، وفى النهاية كان عليه أن يجابه جيش خراسان فى بوصير بمصر العليا ، فقتل أثناء القتال وقطعت رأسه وأرسلت إلى أبى العباس بالكوفة .

طورد أفراد أسرة بنى أمية فى كل مكان وأعمل فيهم القتل وخربت قلعة مدينة دمشق وشقت قبور خلفاء بنى أمية وأحرقت عظامهم [1] ، وتمكن أحد أحفاد هشام بن عبد الملك ويسمى عبد الرحمن من النجاة بروحه من هذه المذبحة وبلغ الأندلس وأعلن نفسه خليفة وبدأت به الأسرة الأموية فى الأندلس .

رغم القضاء على مروان إلا أن الإستيلاء على الشام كله وهو مقر الأمويين لعدة سنوات كان لا يزال أمرا صعبا ، فقد ظل عدد من قادة الأمويين يمارسون نشاطهم سواء خوفا على أرواحهم أو طمعا فى الملك وأخذوا يؤلبون المدن على العباسيين ، فأعلن أحد قادة آل مروان واسمه أبو الورد بن الكوثر الثورة فى قنسرين ورفع أحد أحفاد يزيد بن معاوية يسمى زيا محمد زياد بن عبد الله للخلافة ، وزعم أنه السفيانى الموعود الذى ورد ذكره وسمع به الناس فى أخبار آخر الزمان ، وتم قمع هذه الحركة فى موقعة مرج الأخرم قرب قنسرين فى أواخر عام 133 هـ ، وقتل أبو الورد فى المعركة وفر السفيانى إلى تدمر ومنها إلى الحجاز حيث سقط فى يد أبى جعفر المنصور فقتله ، وثار قائد آخر يسمى حبيب بن مرة فى بلقاء الشام وانتهى أمره بالمصالحة .

---

(1) ابن العبرى ، 207 .

وبالقضاء على الأمويين خرج زمام الحكم من يد العرب وانتقل إلى أتباع بنى العباس أى الفرس ، وكان إنشاء بغداد إرهاصا بذلك التحول ، وظلت العربية لغة الدولة ، إلا أن الأدب وتقاليد الحياة وقعت جميعا تحت تأثير ذلك التحول وبدأت حضارة جديدة ، وكانت موقعة الزاب توازى معركة القادسية واستعاد الفرس بها ما كانوا قد فقدوه من قوة .



الفصل السادس

العباسيون



الخلافة العباسية فى عهد نفوذ أهل خراسان

تولى الخلافة أول خليفة عباسي وهو أبو العباس [1] الملقب بالسفاح كماسبق أن ذكرنا فى الثانى عشر من ربيع الثانى من عام 132 هـ بالكوفة بإجماع من أنصاره ، واعتلى المنبر وتلى خطبة ذكر فيها عشيرته من آل البيت وذوى القربى والعشيرة الأقربين ، وركز على ذكر الآيات التى تتعلق بآل بيت النبى (ﷺ) ومالهم من حقوق ، ثم تحدث عن توجهات بنى حرب (آل سفيان) وآل مروان وأنهم ظلموا واغتصبوا الحق من يد أصحابه إلى أن أنزل الله عليهم عقابه ومن على الناس بالخلافة العباسية ، ثم حمل البشرى لأهل الكوفة وقال « هنيئا لكم بأن أدركتم زماننا وسعدتم بوجودنا ، أمرنا بزيادة عطاياكم مئة درهم لكل منكم " ، وبعد الوعد جاء الوعيد فقال " فاستعدوا فانا السفاح المبيح والثائر المبين " ، وقد ذكر لفظ " الثائر " تذكرة للناس بدم بنى هاشم الذى سفكه بنو أمية ، اذ لم يكن شيعة آل البيت وخاصة الكوفيون قد نسوا واقعة الامام الحسين مع زيد وكانت الرغبة فى الثأر لهؤلاء الشهداء هى الباعث على قيام هذه الحركة على يد الكيسانية فى بداية الأمر ، وبرع العباسيون فى الانتساب إلى آل البيت وفى إدارة الحركة باتجاه مصالحهم وكما سبق أن ذكرنا فإن أبا سلمة حفص بن سليمان المعروف بالخلال الذى كان قائما على شئون الدعوة العباسية فى الكوفة وكان يعد من أركان الحركة خحل فى النهاية من تقديم العباسيين وفكر فى أهل بيت النبى الحقيقين، لذا فقد أخفى أبا العباس لفترة فى إحدى الدور بعيدا عن أعين شيعته ولم يعلن على الناس نبأ وروده إلى الكوفة ، وكتب أبو سلمة - كمايروى المسعودى - رسالتين إلى المدينة ، إحداهما إلى الإمام جعفر الصادق والأخرى إلى عبدالله بن الحسن بن الحسن بن على يدعوهما إلى الكوفة ووعدهما بأخذ البيعة لهما من أهل خراسان ، فحدث أن أحرق جعفر بن محمد رسالة أبى سلمة فى حضور رسوله بنار المصباح وقال : " هذا هو ردى " ، أما عبدالله بن الحسن فقد استجاب لدعوته ، إلا أن رسوله ماأن وصل إلى الكوفة وجد أبا العباس وقد أخرجه أهل خراسان من مكمنه الذى أخفاه فيه أبو سلمة وأعلنوه خليفة [2]، وكان السفاح رغم إدراكه لسوء طويه أبى سلمه تجاهه

---

(1) هو أبو العباس عبدالله بن محمد بن على بن عبدالله بن العباس بن المطلب .

(2) مروج الذهب ، ج 2، ص 150

يخشى نفوذه ومكانته فكان يخفى عداءه له بل واختاره وزيرا له، وكان ينادى بلقب « وزير آل محمد »، وكانت هذه أول مره يستخدم فيها لفظ « وزير » فى الإسلام ، وكان الخوف الأكبر الذى ساور السفاح هو أبو مسلم ، وكان يخشي أن يكون أبو سلمة مستندا إليه فى معارضته ، فأوفد أخاه أبا جعفر المنصور إليه فى خراسان ، وكانت الصلة بين أبى جعفر وأبى مسلم وثيقة ، فأرسله إليه يشكو من أبى سلمة خفية ، وكان أبو مسلم نفسه ساخطا على أبى سلمة ونفوذه فى العراق ، فأرسل شخصا من خراسان لإغتيال أبى سلمة ليلا بعلم الخليفة ، ونودى فى الناس أن الخوارج قتلوه وورى جثمانه تحت الثرى فى جنازة مهيبة .

استولى السفاح على كل الأراضى والبلاد التى كانت تحت سيطرة بنى أمية فيما عدا الأندلس التى ظلت تحت سيطرة عبدالرحمن الأموى كما ذكرنا من قبل، ولم تدخل الأندلس تحت سيادة العباسيين أبدا، وولى السفاح أقاربه على البلاد المفتوحة قدر استطاعته ، وظلت خراسان فى يدى أبى مسلم الذى كان الحاكم المطلق فيها ، وكان يقوم بإخماد الحركات الثورية التى كانت تنشب من آن لآخر فى المناطق المحيطة به ضد الأمويين ، وكان يزيل من طريقه أيا من زعماء الحركات أى من زملائه القدامى ممن يحس تجاهه بشىء من المنافسة على السلطة ، ومن بينهم سليمان بن كثير الخزاعى الذى تحدث يوما مع أبى جعفر المنصور ضد أبى مسلم ، فوشى به أبو جعفر عنده ، وفى فارس أيضا رفض عامل أبى مسلم عليها وهو عيسى بن على تعيين عم الخليفة الذى كان قد جاء عاملا على الولاية بأمر من الخليفة وقال " حكم أبى مسلم ملزم " ، وبلغ النبأ الخليفة فرأى المصلحة فى الصمت ، إذ كان الخليفة الحقيقى هو أبو مسلم، وفى العام الرابع من خلافة السفاح مر أبو مسلم بالخليفة فى طريقه إلى الحج ، فاستقبله الناس فى العاصمة بترحاب كبير، وكان أبو جعفر المنصور ثائرا على مالأبى مسلم من سطوة ، فنوى اغتياله إلا أن الخليفة خشى مغبة الأمر، وحال بينه وبين ما نوى [1] وقد أتم المنصور ماعزم عليه بالفعل فى أيام خلافته .

---

(1) الطبرى ، ج 9 ، ص 153

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كانت عاصمة السفاح مدينة الأنبار التى كانت مدينة فارسية قديمة تقع على ضفاف نهر الفرات ، ويبدو إنها كانت مستودعا للذخائر والمهمات الحربية لدولة فارس فى الحملات الفارسية على الروم ، وتوفى السفاح بالأنبار فى سن الثلاثين تقريبا متأثرا بمرض يظن البعض أنه الجدرى ، وكانت وفاته فى عام 136 ، وكان أخوه أبو جعفر المنصور الذى كان يتولى ولاية العهد منذ مدة مع أبى مسلم فى مكة بغرض آداء فريضة الحج فى ذلك الوقت ، وأسرع إلى العراق بمجرد أن وافاه النبأ ، فتولى الخلافة وأخذ البيعة لنفسه من الناس ولعيسى بن موسى من بعده .

أعلن عبدالله بن على عم المنصور الثورة على ابن أخيه بالشام واتجه الى العراق بجيش جرار كان قد حشده من أهل الشام بهدف الغزو الخارجى ، فأرسل المنصور أبا مسلم الذى كان قد عاد من الحج وحضر الى عاصمة الخلافة لقتال عبدالله ، والتقى الجمعان عند نصيبين رغم أن جيش الشام كان يفوق جيش خراسان عددا وعدة وفرسانا ، الا أن أبا مسلم فاجأ جيش الشام بالحشود الخاصة التى عبأها فى الميمنة والميسرة وأنزل به هزيمة ساحقة ، ففر عبدالله واستولى أبو مسلم على أمواله التى كانت تقدر بمبالغ ضخمة ، وأرسل الخليفة من يأتى إليه بالغنائم وينتزع خراسان ضمنا من يد أبى مسلم ، وأرسل إليه أمرا بتولى إمارة مصر والشام بزعم أنه سيكون " قريبا الى الخليفة منه فى خراسان " ، لكن أبا مسلم ثار على أمر الخليفة واتخذ طريق خراسان بجيشه عازما على تهديد الخليفة ، فارتعدت فرائص الخليفة الذى أوفد جمعا من خاصته وكبار رجال البلاط لاستمالة أبى مسلم وتذكيره بحرمة آل البيت ، ووعد الخليفة بأنه إذا ماجاء أبو مسلم إلى العاصمة فان الخليفة يتنازل له عن كل سلطاته ، أما إذا أصر على مخالفته فإنه سيصمد حتى آخر رمق ، ومن ناحية أخرى أرسل رسالة الى أبى داود عامل أبى مسلم فى خراسان ووعده بولاية خراسان ، والتقى وفد الخليفة بأبى مسلم عند حلوان وأبلغوه بالوعود فى البداية ، فتشاور أبو مسلم مع مقربيه فلم يروا صلاحا فى الذهاب إلى الخليفة ، ووافق أبو مسلم على رأيهم ، وحين رأى الوفد امتناعه أبلغوه بالوعيد ، وكان أبو مسلم أيضا قد اطلع على أمر رسالة الخليفة الى عامل خراسان فخاف وفى النهاية أعلن تسليمه وقتل عند بلوغه بلاط الخليفة فى عام 137 هـ ، وقضى على ذلك الرجل العظيم الذى اعتبره المأمون ندا لأردشير والإسكندر بسبب خطأ صغير ، وبعد مصرعه سمى بأبى مجرم بعد أن كان العباسيون يطلقون عليه لقب " أمين آل محمد " .

كان قتل أبى مسلم جرحا بقلوب الفرس ، فخرج من ريف نيسابور رجل فارسى يقال له سنباد كان من ربيبى أبى مسلم ، ويقول المؤرخون إنه كان مجوسيا عازما على الثأر لدمه ، وخرج معه جيش معظمه من أهل الجبال من نيسابور وقومس والرى ، وألحق جيش الخليفة الهزيمة به بعد سبعين يوما فيمابين الرى وهمدان، وقتل سنباد فى طريق فراره بين قومس ومازندران على يد فارسى آخر يسمى لونان فى عام 137هـ[1]. ونشبت ثورة أخرى فى مقر الخلافة التى كانت حينذاك هاشمية بالقرب الكوفة، فأمر المنصور بسجن مئتين من قادة فرقة الراوندية [2]، فثارت الراوندية وهاجموا سجن الخليفة وقصره ، وقام الخليفة بنفسه ومعه عدد من الفرسان بالهجوم عليهم وأبادهم عن آخرهم وكانوا ستمئة ، وبهذا تم القضاءعلى فرقة كانت تعد فى طليعة الدعوة العباسية بنفس النار التى أوقدوها ، تماما كما حدث لأبى مسلم ، وكان هذا فى عام 137وفى رواية فى عام141هـ .

من المشاهد الدامية لخلافة المنصور حادث قتل محمد وإبراهيم ولدى عبدالله بن الحسن ابن الحسن ؛ ففى وقت ضعف آل مروان قامت طائفة بنى الحسن وأشياعهم بالمدينة بترشيح هذين الشابين للخلافة وبايعتهما جماعة سرا وكان من هذه الجماعة المنصور نفسه، لكن بتقدم شأن العباسيين انزوى هذان المرشحان واختفيا عن الأنظار، ولم يهدأ خاطر المنصور لحظة لهذا السبب ، فظل يطاردهما وبذل فى ذلك جهدا كبيرا منذ أول ايام توليه الخلافة ، فأرسل عماله وعيونه للبحث عنهماولما فشل فى العثور عليهما أمر بإلقاء القبض على كل آل الحسن المثنى فى المدينة عام 144 هـ وتم اقتيادهم الى العاصمة مهانين وألقى بهم فى السحن ، ولقوا تعذيبا شديدا للادلاء بمكان كل من محمد وابراهيم ، وضيق عمال الخليفة الدائرة على محمد فى المناطق المجاورة للمدينة الى أن اشتد به الحال فأعلن الثورة فى المدينة طبقا لنصيحة تلقاها من أتباعه ، وقام بإرسال أخيه إبراهيم إلى الكوفة لكى يعلن الثورة هناك أيضا ، فبدأ المنصور بقتل عدد من مسجونيه ، وعندما انتشر خبر ثورة محمد بخراسان أرسل رأس أحد المسجونين إلى

---

(1) كذا فى الطبرى ،إلاأن ابن اسفنديار يذكر أن القاتل يسمى"طوس"، انظر،تاريخ طبرستان،174

(2) الراوندية أو الروندية كانوا من شيعة العباسيين فى خراسان يؤمنون بإمامة العباس عم النبى، وكانوا فرقا عدة ، وكانوا على ولاء شديد لأبى مسلم ، راجع ، فرق الشيعة ، 46

خراسان فطاف بها الشيعة فى كل مكان وأقسموا إنها رأس محمد بن ابراهيم ، ثم جرد جيشا من العرب وأهل خراسان إلى المدينة بقيادة عيسى بن موسى العباسى ، ففر أتباع محمد ، وكان معظمهم من البدو بعد فترة من المقاومة ومقتل عدد منهم ، ودخل حميد بن قحطبة الذى كان يتولى قيادة ميمنة جيش المنصور المدينة وقتل محمد الذى ظل يقاتل رغم جروحه الشديدة ، وقد قتله حميد بيده وأحضر رأسه الى عيسى عام 145 هـ كان شيعة محمد بن عبدالله يطلقون عليه اسم " المهدى " و " النفس الزكية " وكانوا يطبقون أخبار " المهدى الموعود " عليه .(1)

بعد مصرع محمد ثار أخوه ابراهيم بالبصرة والتفت حوله جماعة كبيرة من الزيدية وغيرهم ، واستفحل أمره الى درجة ان استولى على مناطق حتى فارس ثم تحرك بجيشه قاصدا الكوفة ، فاستدعى المنصور باخمرا (2) ، وكانت كفة النصر تميل نحو إبراهيم إذ كانت قواته تضم رجالا شجعانا حكماء ، أما هو نفسه فكان ضعيفا مترددا بل ويروى أنه كان خائفا وداخله اليأس بعد أن بلغ مابلغ ، ففى كل خطة قتالية يقترحها قادته كان يساوره التردد، وفى يوم القتال انهزم جيش المنصور فى البداية ، بل ولاذ حميد بن قحطبة بالفرار ، إلا أن ابراهيم حال دون مطاردة جيشه للفلول المهزومة بدعوى أنهم من أهل القبلة والدين ، إلى أن أدى صمود عيسى إلى عودة الفارين ، وانقلبت الموازين ، فقد نظم الجيش المهزوم صفوفه وأنزل الهزيمة بابراهيم وجيشه فى ذى القعدة من عام 145هـ ، فسجد عيسى شاكرا مأأتاه من نصر وأرسل برأس إبراهيم إلى المنصور ، فأمر بتعليقها فى السوق وتوافد الناس على الخليفة زمرا يهنئونه ، وظل المنصور طوال عهد خلافته يتعقب الفاطميين ويتوعدهم ، ويروى أنه بعد وفاته تم العثور على مستودع يضم رؤوس عددكبيرمن القتلى وفى أذن كل رأس علقت رقعة تنبىء عن اسم صاحبهاونسبه،ومن بينهم وجد عدد من الأطفال والشيوخ (3).

ولم يتورع المنصور عن الفتك بأقاربه أيضا فى سبيل العرش والتاج ، فألقى القبض غفلة على عمه عبد الله بن على الذى شق عصا طاعته ذات مرة ثم استسلم

(1) انظر مقاتل الطالبيين ، ص 87

(2) باخمرا موضع بين الكوفة وواسط ، وكان قبر إبراهيم بها يعد مزارا فى زمان ياقوت .

(3) الطبرى ، ج9 ، ص 320

وبايعه ، فزج به فى السجن وأمر الحراس بهدم سقف السجن على رأسه [1] ، وكان المنصور يسعى إلى تنصيب ولده المهدى وليا للعهد بينما كان عيسى بن موسى ولى عهد المنصور بمقتضى وصية السفاح، ولم يمتثل عيسى لرغبة المنصور ، فظل الخليفة يهدم على رأسه الأسقف ويهيل على رأسه الأنقاض دون جدوى، فدس له السم حتى ألم به مرض عضال ، لكنه شفا منه وطاب ، وفى النهاية استدعى وابنه وأمر حراسه بخنق الابن أمام عيون والده ، وما أن شرع الحراس فى تنفيذ ماأمروا به حتى أذعن عيسى وتنازل عن ولاية العهد ، وعلى أثر ذلك أعلن ابنه المهدى الذى كان متعلقا به تعلقا شديدا وليا للعهد .

استمرت الغزوات الخارجية الصيفية بصورة منتظمة فى عهد المنصور فيما عدا فى الأوقات التى كانت الاضطرابات الداخلية تحول دون ذلك، فاستمرت الجيوش تغزو آسيا الصغرى وأرمينيا وخراسان وتعود بالغنائم ، فلم تكن الغزوات فى عهده فتوح بلدان، وهاجم الروم أرض الإسلام مرة واستولوا على مدينة ملطية وأعملوا التخريب فى حصونها (عام 148هـ) ، وفى العام التالى ،تبادل الطرفان الأسرى وردوا الفدية ، وأعاد المسلمون بناء مدينة ملطية ، وفى القوقاز أيضا هاجم الترك الأراضى الإسلامية وقتلوا عامل الخليفة وأشاعوا الخراب فى تفليس ، فأرسل الخليفة حميد بن قحطبة اليهم ، إلا أن الترك كانوا قد عادوا أدراجهم قبل وصوله ، وكان الفتح الجديد الذى تم فى عهد المنصور هو فتح دماوند وطبرستان اللتين كانتا حتى ذلك الوقت خارج سيطرة الدولة الإسلامية، وقام قادة المنصور بخلع مصمغان عن دماوند وسبهبد عن طبرستان وأخذوا بناتهما أسيرات إلى الخليفة [2]، وفى الجزيرة أعلن خارجى يسمى ملبد بن حرملة الشيبانى عصيانه ، وتحقق له النصر عدة مرات فى مواقع متعددة الى أن تم القضاء عليه ، وفى أفريقيا الإسلامية ثارت جماعة من الخوارج الاباضية بعون من البربر إلا أنهم هزموا، وكان الخطر الأكبر من كل ذلك ثورة استادسيس بخراسان فى عام 150 هـ ، فقد سيطر بجيشه الجرار الذى يروى أنه بلغ ثلاثمائة ألف جندى على معظم أراضى خراسان ، وهزمه قائد الخليفة خازم بن خزيمة بعدجهد جهيد طوال عام من القتال.

رغم كل هذه المشاغل الحربية كان المنصور يتسم بنشاط كبير فى شئون الدولة ؛ ففى

(1) طبقا لرواية مروج الذهب تم خنقه فى السجن ثم أهيل عليه السقف فلقى حتفه .

(2) راجع تفاصيل هذا الفتح فى ابن اسفديار

خضم هذه الأحداث أنشأ مدينة بغداد والرصافة ورافقة ، وأولى اهتماما زائدا بأمن الطرق وخاصة طريق مكة الذى كان معرضا لهجمات البدو قاطعى الطرق ، وكان يذهب فى معظم سنوات خلافته إلى مكة لأداء الحج ، وأنشأ المنازل والرباطات على طول الطريق، وكان يولى اهتماما بالغا بما يتصل بالمال والضرائب، فكان يتقصى حسابات عمال الدولة بدقة صارمة، وكان غالبا مايأمر بسجنهم ومصادرة أموالهم ومعاقبتهم ، وكان يغير عماله بسرعة وأولا بأول، ونادرا ماكان سجنه يخلو من عمال الدولة المسجونين ، وبسبب تدقيقه وصرامته فى الحسابات كان يطلق عليه « الدوانيقى» أو " أبا الدوانيق"، وكان يدقق كذلك فى النفقات حتى على نفسه ، لدرجة أنه يقال إنه كان يرتدى قميصا به ثقوب، ويروى عن الإمام جعفر الصادق انه قال عن المنصور : « الحمد لله الذى لطف به حتى ابتلاه بالفقر فى ملكه» ، ويروى عن المسعودى أن المنصور حين توفى ترك تسعمئة وستين مليون درهم [1] .

كان خالد البرمكى هو القائم على شئون الخراج ، وقد أنشأ الدوارين والإدارات التنظيمية لهذا الأمر، وأقام جهازا حكوميا على غرار النظام الساسانى ،واصطبغ التعمير والعلم والأدب وأسلوب الحياة فى عهده بصبغة فارسية ملموسة .

توفى المنصور فى سن الستين عند بئر ميمون قرب مكة وهو فى طريقه إلى الحج على أثر سوء هضم ابتلى به قبل سنوات، وكانت وفاته فى عام 148 هـ بعد مايقرب من اثنين وعشرين عاما حافلة بالأحداث ،ودفن فى مقبرة المعلى بمكة ، وكان قمحى البشرة طويلا ونحيفا وله لحية صغيرة جدا ، ورغم ماكان يتسم به من قسوة كان يبكى فى أثناء إلقائه للخطبة فوق المنبر وكانت دموعه تنهال من لحيته الصغيرة المخضبة على الأرض .

توفى الإمام جعفر الصادق فى عهد المنصور فى عام 148هـ فى سن الخامسة والستين ودفن بالبقيع إلى جوار أبيه [2] ، وبعد واقعة محمد النفس الزكية قام شخص بتأليب المنصور ضد الإمام ، ويقال إنه كان يقدم معونات مالية لمحمد ، فأرسل المنصور رسولا من قبله لاستدعاء الإمام إلى العراق ، واتضح له أن سعى الوشاة لم يكن صحيحا ، فأكرم المنصور وفادة الإمام كمايروى وسمح له بالعودة الى المدينة [3].

(1) التنبيه والاشراف 296 .
(2) الارشاد والمقيد ، طبعة تهران .
(3) البحار ، ج 11 ، ص 165

كان خليفة المنصور هو ابنه محمد الملقب بالمهدى ، وكان شابا رقيق القلب يتحاشى سفك دم بنى هاشم ، وقد استغل الهدوء الذى أقره والده بماكانت له من هيبة وظل يقضى أيام خلافته فى اللهو والشراب والتمتع بملذات الحياة ،وأنفق ماكان والده قد جمعه بالتقتير والشدة على رفاقه وبذل العطايا، وظلت شئون الدولة على ماكانت عليه ، فاستقر أمر الحج والغزو والعزل والتنصيب، وتم إنشاء منازل جديدة على طريق مكة ، وتم توسيع مسجد النبى وبذلت العطايا لأهل مكة والمدينة ، ولم تكن ثمة حروب أو حملات ذات أهمية فى الداخل ، وفى خراسان ثار يوسف بن إبراهيم المعروف باسم "البرم"(1) معترضا على الخليفة، فألقى قائد المهدى وهو يزيد بن مزيد المهلبى القبض عليه وأرسله إلى العاصمة حيث تم شنقه على مدخل جسر دجلة فى عام 160 هـ ، وفى العام التالى ثار المقنع فى مرو ، ومن المعروف أنه ابتدع مذهبا يقوم على التناسخ وكان أتباعه يقال لهم " سبيد جامكان " أى " المبيضة " فطارده قادة الخليفة ، ففر الى ماوراء النهر وتوارى فى منطقة كش بإحدى القلاع، وحوصرت القلعة مدة عامين فضاق الخناق على المقنع ، فأضرم النار يوما فى كل شىء حوله بالقلعة وقتل نفسه وأهله وعياله بالسم، ويروى ابن العبرى أنه بعد أن تناول السم أشعل النار فى نفسه حتى لايقع جثمانه فى يد أعدائه(2) ، إلا أن رواية الطبرى تدل على أن محاصريه قطعوا رأسه وأرسلوها للخليفة فى حلب(3) ، وفى تلك الآونة ثار خارجى يدعى عبد السلام اليشكرى بالجزيرة وألحق الهزيمة بعدد من قادة المهدى، وفى النهاية أرسل المهدى أحد قادته من أهل خراسان اليه ، فلاذ عبدالسلام بالفرار وقتل فى قنسرين فى عام 162 هـ .

كانت الغزوات الخارجية على قدر أكبر نسبيا من الأهمية فى عهد المهدى ؛ فكان الجيش مهيأ وكان المال المخصص للإنفاق العسكرى متاحا ، إضافة إلى وجود المرتزقة من مختلف الولايات ، وكانوا يجتمعون كل عام فى موسم الغزو ويسمون المطوعة ، وكان الخليفة يصحب الجيش إلى الطريق فى موكب مهيب ، وتقدم عباس بن محمد

---

(1) بفتح الأول وسكون الثانى بمعنى " البخيل "

(2)مختصر الدول ، ص 218.

(3) الطبرى ، ج 9 ، ص 342.

برفقة عدد من القادة من أهل خراسان حتى أنقرة ، وعادوا بعد اعمال القتل والتخريب بها (عام 159 هـ) وبلغ هارون ابن الخليفة خليج القسطنطينية ، فطلبت ملكة الروم الصلح،فقبل هارون مطلبها وعقد معها هدنة لمدة ثلاث سنوات على جزية سنوية يدفعها الروم ، وعاد فى عام 162 هـ .

وفى مسألة الخلافة وقع المهدى فى نفس المشكلة التى عاناها أبوه لفترة ، فكما حدث فى عهد المنصور آلت الخلافة بعد المهدى لعيسى بن موسى مرة أخرى ، وكان المهدى يود أن يستبدل به ولده موسى الهادى كولى للعهد . ومرة أخرى رفض عيسى التنحى عن ولاية العهد، وقضى الخليفة فترة فى تهديد عيسى ، وفى النهاية تم استرضاؤه بعشرة ملايين درهم وبعض الأملاك فى مطقة الزأب ورابع الهادى ، وبعد مدة تم إعلان هارون الإبن الثانى للخليفة وليا للعهد ، إلا أن الخيزران أم الولدين كانت تود لهارون أن يكون المقدم فيهما إذ كانت تحبه حبا جما ، من ثم فقد انشغلت بالدسيسة لتحقيق رغبتها ، وظهر بذلك تدخل النساء فى شئون الخلافة لأول مرة فى تاريخ العباسيين ، وتعاون البرامكة مع الخيزران نظرا لأن الخليفة كان قد عهد إليهم بتنشئة هارون ، وكان الخليفة يقف عاجزا أمام إرادة زوجته المحببة إليه ، لذا فقد طلب من موسى الهادى الذى كان فى ذلك الوقت فى جرجان مشغولا بالقتال أن يتنحى عن منصبه إلا أنه رفض ، فخرج الخليفة قاصدا جرجان بقصد إقناعه شخصيا، ولكنه توفى عند وصوله إلى ماسبذان بصورة مفاجئة فى محرم من عام 169هـ ، ويروى أن سبب وفاته أنه كان يتعقب صيدا فسقط على ظهره فانكسر ، وفى رواية أخرى أن واحدة من المحظيات كانت قد دست السم لمحظية أخرى فى ماء الورد ،فحدث أن تناوله الخليفة المهدى دون أن يدرى مابه فمات،ولم يذكر احتمال أن يكون الهادى قد أعده له .

كان المهدى يولى اهتماما شديدا بتعقب الزنادقة ، وقد عين عاملا خاصا لإدارة هذه المهمة، وكان عمال الدولة يبحثون فى كل مكان عن الزنادقة ويقتلونهم ، وكانت صفة " زنديق " تطلق على كل من حاد عن جادة الدين ، ويبدو أن هذه الصفة كانت تستخدم بنفس المعنى الفضفاض فى زمن الساسانيين [1]وكان قتل الزنادقة يستغل ضمنا فى حبك الدسائس فى البلاط وبين كبار رجال الدولة ، فكان يطلق على كل من يراد به أن

(1) ماسينيون فى كتاب " شهادة الحلاج ، " ج 1 ، ص 186 .

يعانى غضب الخليفة ، كمافعل ربيع الحاجب مع أبى عبدالله الوزير(1)، واستمرت نفس هذه السياسة تجاه الزنادقة فى عهد خليفة المهدى .

كان أول قرار اتخذه الهادى فى عهد خلافته أن حظر على أمه الخيزران التدخل فى شئون الدولة بدعوى أن شئون الملك ليست من شأن النساء ، وأمرها أن تلتزم بالصلاة وبطاعته ولاتأبه بأمر الملك ، فلزمت الخيزران دارها على مضض ، إلا أن رجال الدولة وكبار مسئوليها كانوا يجتمعون فى بلاطها كل يوم كعادتهم فى السابق إلى أن أمر الخليفة الناس علنا ألا يراجعوا الخيزران فى أى أمر ، بل ويروى أنه أرسل يوما إليها حلوى مسمومة بهدف الخلاص منها ، إلاأنها تنبهت وأحجمت عن تناولها .

وواجه الهادى المشكلة الثابتة التى واجهها أسلافه وهى ولاية العهد ، كان الهادى يريد أن يولى ابنه القاصر جعفر وليا للعهد، وسلك سبيل القسوة مع أخيه هارون الذى كان قد بويع وليا للعهد وأمر بسجن يحيى البرمكى الذى كان يحث هارون على المقاومة ، واتخذ فى النهاية قرارا شجعه على اتخاذه قادته والمقربون إليه بأن يخلع هارون بالقوة ، وهنا تدخلت الخيزران العجوز ودبرت خطة لقتل الخليفة ، وهى الخطة التى صارت مثالا يحتذى فيمابعد ، وذات ليلة تزاحمت جوارى الخيزران على الخليفة وخنقنه فى ربيع الأول من عام 170 هـ ، ثم تم إيعاد أحد كبار مسئولى البلاط إلى جعفر فأوقظه من نومه وأخذ منه البيعة لهارون ، كان الهادى حين وفاته فى السادسة والعشرين من عمره ودامت خلافته مدة ثلاثة عشر شهرا وعدة أيام ، وصلى على جثمانه هارون صلاة الجنازة ، ودفن فى قصر الملك .

وفى عهد الهادى أعلن الثورة حسين بن على بن الحسن من سادات المدينة وذهب إلى مكة حيث حشد جيشا على رأسه محمد بن سليمان العباسى ، وكان الجيش فى معظمه من الحجاج، ووقعت الحرب ولقى حسين مصرعه مع عدد من رفاقه ، وقد عرف حسين باسم حسين " صاحب الفخ " على اسم الحى الذى قتل فيه (فى ذى الحجة 169هـ) .

فى أعقاب وفاة الهادى تولى الخلافة أخوه هارون الذى كان فى ذلك الوقت شابا فى الثالثة والعشرين من عمره ، وعاودت الخيزران فرض سطوتها من جديد فتولت أزمة

(1) انظر الطبرى ، ج 9 ، ص 339 .

الأمور بالتعاون مع يحيى البرمكى ، إلا أنهالم تعمر طويلا حيث توفيت فى عام 173هـ ومنذ ذلك الوقت تولى هارون الخلافة مستقلا، وقد أفاد من كفاءة البرامكة ودرايتهم .

كان هارون من أشهر خلفاء العباسيين ، وكتب المؤرخون الكثير عن سيرته إلا أن معظم مارووه كان يدور حول حياته الخاصة ومجالس اللهو والندماء والإماء والغلمان والعطايا وما إلى ذلك ممايعد كثير منه من نسج الخيال . على أية حال ، فإن الأحداث الهامة فى حياة هارون قليلة ولاتوازى ماحظى به من شهرة ، كان هارون محبا للترحال وحياة السرور، ولم يكن يحب جو بغداد ، فقضى كل عمره فى المناطق المحيطة ببغداد يبحث عن عاصمة لها مناخ أفضل ، والحقيقة أنه لم يكن له مقر محدد، فكان كثير الحج والجهاد وكان فى بعض الأحيان يحرم للحج من بغداد .

كان يحيى يخفف من متاعب الخليفة بالتعاون مع أبنائه الأكفاء ، وكان يدير شئون الدولة والجيش بكفاءة تامة ، وحدث أن أعلن الثورة أحد السادات الحسنيين وهو يحيى بن عبدالله أخ النفس الزكية فى منطقة ديلم الجبلية فى عام 176هـ ، فخاف هارون ، وولى الفضل بن يحيى على الولايات المركزية وجرجان ومازندران وطلب منه إخماد ثورة يحيى ، فذهب الفضل إلى هناك وأقنع يحيى بالاستسلام ودّيا وحصل له على وثيقة أمان بخاتم الفقهاء والقضاة وكبار رجال بنى هاشم من الخليفة واصطحبه معه إلى بغداد، فأكرم هارون وفادة يحيى إكراما للفضل وترك مهمة رعايته للفضل نفسه ، وبعد حين أذن الفضل ليحيى بالعودة إلى المدينة دون علم الخليفة، فغضب هارون لكنه أثنى عمليا على قرار الفضل ، وبعد فترة أرسل رسولا يستدعى يحيى من المدينة ، وألقاه فى السجن ، ويبدو أنه توفى فى السجن مسموما، وفى عام 176 هـ . نشبت فتنة العصبية فى الشام بين اليمنيين والمضريين وقتل عدد كبير من الجانبين، فأرسل موسى بن يحيى البرمكى من بغداد وظل بالشام الى أن تمكن من إخماد الفتنة وهدأت الأوضاع ، واختل جمع الضرائب فى مصر وكان واليها موسى بن عيسى العباسى يفكر فى إعلان التمرد ، فولى هارون جعفر البرمكى على مصر ، وأرسل محاسبا فارسيا اليها ، وعندما هدأت الأوضاع عزل هارون المحاسب الخبير فاختل النظام من جديد ، وفى شمال افريقيا أعلن الثورة عبدويه الأنبارى وجيشه وقتل عامل الخليفة ، وقام يحيى البرمكى بإقرار النظام

هناك بإرسال اثنين من أقاربه ، واستلم عبدويه بوعد من يحيى وأتى إلى بغداد ولقى استقبالا كريما من يحيى . وهكذا ، كان البرامكة يديرون شئون البلاد على اتساعها بسياسة تجمع بين حسن التدبير والكياسة ، وتأكد أن ثمة أسلوبا لإدارة شئون الملك غير أسلوب زياد بن أبيه والحجاج بن يوسف .

كان أسلوب البرامكة لايعجب الخليفة الذى كان مولعا بجمع المال ، فولى على بن عيسى بن ماهان على خراسان رغم أن يحيى لم يكن يرى فى ذلك صلاحا ، فاتبع على بن عيسى سبيل الظلم فى خراسان حتى حأر الناس بالشكوى وتوالت رسائلهم وشكاواهم على رجال الخليفة ولكن دون جدوى ، ولكن فى تلك الآونة بلغ الخليفة نبأ عن اعتزام على بن عيسى على الثورة ، فقلق الخليفة وذهب إلى الرى حيث أتاه على بن عيسى بهدية ثمينة بالإضافة إلى هداياه لرجال الخليفة، فسر الخليفة وقال ليحيى معاتبا " وكنت قد أشرت بأنه لايجب إرسال على بن عيسى إلى خراسان، لقد أحسنت حين لم أصغ اليك " ، فرد يحيى برسالة مطولة قال فيها إن ثمة سبلا أيسر لنهب الناس من ذلك (1).

فى النهاية قرر الخليفة استئصال شأفة البرامكة ، وذات ليلة أرسل مسرورا خادمه مع عدد من الغلمان فقطعوا؟ رأس جعفر بن يحيى وأحضروها إلى الخليفة، ثم أمر بالقاء القبض على يحيى وسائر البرامكة والزج بهم فى السجون ومصادرة أموالهم (محرم، 187 هـ) ، كان هذا القرار الفجائى موضع جدل واسع ، فيروى البعض أنه يرجع إلى العلاقة الغرامية التى جمعت بين جعفر والعباسية أخت هارون وأن هارون كان السبب فى قيامها فى أحد مجالس شرابه ، إلا أنه لم يرض عماوصلت إليه العلاقة ، ويعتقد البعض أن موضوع يحيى بن عبدالله الحسنى هو الذى دفعه إلى ذلك حيث أطلق البرامكة سراحه دون إذن من الخليفة ، ويرى البعض الآخر أن الخليفة كان قد ضاق ذرعا بنفوذ البرامكة المتزايد، ولكن إذا كان الأمر كذلك فلماذا اكتفى بقتل جعفر دون سائر الأسرة وفى النهاية أطلق سراحهم ؟! ويروى البعض أخبارا عن انتشار الأقاويل حول زندقة البرامكة ، موجز القول أن هذا الامر لازال يكتنفه الغموض ويمكن أن تكون له

---

(1)إضافة المترجم ، انظر تاريخ البيهقى (ص 416) حيث وردت هذه الواقعة بالتفصيل

عدة أسباب، يقول المسعودى إن الأمور قد أصابها الخلل بعد البرامكة وأن الناس عانوا سوء تدبير هارون وسذاجة سياسته(1)

حدد هارون مسألة ولاية العهد منذ السنوات الأولى من توليه الخلافة ، فولاها محمد الملقب بالأمين والذى كانت أمه زبيدة حفيدة المنصور فى عام 173 هـ رغم أن ولده الآخر عبدالله الملقب بالمأمون كان أكبر سنا من محمد إلا أن أمه كانت جارية ، وفى العام التالى عين المأمون وليا ثانيا للعهد بعد محمد واستكتبهما على الإخلاص بينهما، وأودع الوثيقة بالكعبة لحفظها ، وبعد مدة ولى القاسم ولده الثالث وليا ثالثا للعهد بعد المأمون ولكن بشرط أن يكون للمأمون فى خلافته حق خلعه أو الإبقاء عليه .

كان اهتمام هارون بالجهاد ضد الروم البيزنطيين كبيرا ، فقد خرج بنفسه للغزو مرات كماذكرنا من قبل ، وفى أواخر عهده نذر ابنه القاسم لهذه المهمة ، فكان يقاتل الغزاة برا وبحرا ، وكان أحيانا مايحدث تبادل للأسرى وتعقد معاهدات صلح ، وحدث فى عهد هارون أن وفد على مقر الخلافة سفير من قبل شارلمان ملك الفرنجة مرتين ، وكان الفرنجة فى ذلك الوقت فى تحالف مع البابا وفى حالة حرب مع الإمبراطور البيزنطى الذى كان على خلاف مذهبى مع البابا ، فكانوا يهدفون إلى تحريض الخليفة على الروم ، وفى عام 191 هـ أمر هارون بهدم الكنائس على الحدود وأمر سندى بن شاهك رئيس شرطة بغداد بإجبار ذميى بغداد على ارتداء ملابس تميزهم عن المسلمين، وكان الامبراطور البيزنطى متحالفا مع الخزر ، ونتيجة لذلك اعتدى الخزر فى عام 183 هـ على أراضى الدولة الاسلامية ودخلوها من دربند وأعملوا القتل والتخريب ويروى أنهم قتلوا مئة ألف مسلم وذمى ثم عادوا أدراجهم ، فى ذلك الوقت ظهرت قلاقل بشمال افريقيا من جراء ثورة ادريس أحد السادات الحسنيين ، وقبل ابراهيم بن الأغلب القيام بإخمادها بشرط أن تظل ولايتها فى أسرته ، وقبل هارون هذا الشرط تحت ضغط الانشغال بالقلاقل الداخلية ، وبهذا خرجت افريقيا من تحت سيطرته واستقلت بها أسرة الأغالبة .

وعلى أطراف الدولة توالت ثورات الخوارج واخمادها وبصعوبة بالغة احيانا ، ومن

(1) ا لتنبيه والاشراف، ص 199 .

بين هذه الثورات حركة فرقة الخرمدين أو المحمرة بأذربيجان ، ورغم أن جيش الخليفة أخمد ثورتهم الا انهم ظلوا نشطين ، وفى سيستان ظهر حمزه بن آترك (آذرك) الخارجى (177هـ) ، وقد عم الخراب مناطق عديدة من خراسان قبل القضاء عليه [1] وكانت من الحركات الهامة ثورة أهل خراسان على ظلم على بن عيسى بن ماهان والى خراسان ، وحين يأس الأهالى من إنصاف الخليفة شقوا عصا الطاعة وثاروا ، ورفعوا رافع بن ليث حفيد نصر بن سيار الذى عانى شخصيا عسف على بن عيسى واتخذوه قائدا لهم ، فأرسل هارون هرثمة بن الأعين إلى مرو ظاهريا بهدف دعم على بن عيسى وفى الحقيقة للخلاص من شره عن خراسان ، فألقى هرثمة القبض على على وأخذه إلى الخليفة وصادر أمواله ، وكان رافع فى سمرقند ، فاتجه هارون إلى خراسان بنفسه لتصفيفه ثورته ، واصطحب معه المأمون الذى كان صاحب خراسان، وفى الطريق اشتد عليه المرض، وفى طوس أوفد المأمون إلى مرو بينما ظل هو فى طوس بسبب اشتداد وطأة المرضى عليه ، وفى أواخر لحظات حياته استدعى أخا رافع الذى تم القبض عليه وطلب جزارا وأمره بتقطيع جسده إلى أربعة عشر جزءا ، وكانت هذه آخر رغبة للخليفة توفى بعدها بساعات (فى جمادى الآخرى من عام 193هـ) وكان فى الخامسة والأربعين من عمره ، كان هارون أبيض البشرة ممتلئا محعد الشعر بدأ الشيب فى الظهور عليه .

توفى فى عهد هارون الإمام موسى بن جعفر الكاظم فى سجنه ببغداد، وكان هارون قد أرسل الإمام فى عام 179هـ من المدينة إلى البصرة ليتم سجنه لدى حاكمها عيسى بن جعفر ، ثم أمر بإحضاره إلى بغداد وسجنه لدى رئيس شرطة بغداد سندى بن شاهك إلى أن وافته المنية فى عام 183هـ فى السجن وهو فى سن الخامسة والخمسين ، ومن المسلم به لدى الشيعة أن هارون دس له السم ، وبعد وفاته عرضوا جثمانه على الملأ واحضروا القضاة والفقهاء لرؤيتها والتأكد من عدم وجود جروح أو اختناقات بها ، ثم وووريت الثرى فى مقابر قريش [2] ، وتحكى الروايات أن الامام تعرض للسجن

(1)انظر التفاصيل بتاريخ سيستان .

(2)أصول كافى ، 193، ارشاد معيد

أيضا فى عهد المهدى إلا أن المهدى رأى مناما أطلق سراح الإمام على أثره وأعاده مكرما إلى المدينة (1)

استمرت خلافة الأمين حوالى خمس سنوات من 193 الى 198 هـ قضى معظمها فى صراعات مع أخيه المأمون ، كان الأمين شابا لاهيا بلافكر محدد، وكان واقعا تحت تأثير وزيره الفضل بن الربيع ، ففى العام الثانى من خلافته أمر بإيعاز من وزيره بذكر اسم موسى ابن الخليفة فى خطبة الجمعة قبل اسم المأمون مماكان يعنى إزاحة المأمون عن ولاية العهد خلافا لوصية هارون ، وكرد فعل تدبر المأمون أمره وكان فى خراسان ، فقطع العلاقات بين خراسان وبغداد، وأجبر رافع بن ليث الذى أعلن تمرده فى ماوراء النهر على الاستسلام بمعاهدة صلح مشرقة ، وفى النهاية نشبت الحرب صراحة بين الأخوين ، فخرج من بغداد جيش بقيادة على بن عيسى متجها إلى خراسان ومعه سلاسل من فضة لتقييد الأخ المتمرد ، إلا أن هذا الجيش انهزم فى الرى على يد قائد جيش المأمون طاهر بن حسين ذى اليمينين ، فتم تجريد جيش آخر من بعداد ولقى الهزيمة بدوره فى همدان ، ولم يجد الأمين جيشا آخر يرسله اليه ، فأمر بحشد جنود جدد من الشام بينما كان الشام يشهد صراعات عصبية بين الكلبيين والقيسيين ، وفر جنود الشام فى أول مواجهة مع العدو ، فتقدمت جيوش المأمون بقيادة طاهر وهرثمة فتقلت البصرة والكوفة ومكة والمدينة الخليفة الجديد، وسرعان ماحاصر بغداد، واتخذ الأمين ملاذا فى قصر الخلد، فعم الإضطراب المدينة وأعلن عدد من الناس معظمهم من "الأبناء" أى ذوى الأصل الفارسى تأييدهم للمأمون، وعندما عجز الخليفة عن العثور عمن يعينه على السيطرة على الأوضاع حشد قوة من فتوات بغداد ولصوصها الذين كانوا هم أنفسهم سببا فى اضطراب الأمن، وفى النهاية لم يجد الخليفة بدا من التسليم إلا أنه طلب أن يكون استسلامه لهرثمة لا لطاهر، لأن أنصار الخليفة كانوا يطمئنون لهرثمة بحكم سابق المعرفة بينهم وبينه، فخرج كل من الخليفة وهرثمة للقاء على ضفاف دجلة ليلا، وكان طاهر على اطلاع تام بكل شىء من خلال عيونه فى المدينة، فأرسل جماعة من رجاله لمهاجمة القارب الذى يقل الخليفة وهرثمة، فسقطا فى الماء، فانتشل الحراس الخليفة وأخذوه إلى طاهر الذى أمر بقطع رأسه وإرسالها إلى المأمون بخراسان (فى الخامس والعشرين من محرمحن عام 197هـ) .

---

(1) تدكرة حواص الأمة ، طبعة تهران ، 197 .

وتحولت الخلافة إلى ابن الجارية الفارسية الذى احتل مكان ابن زبيدة العباسية، وكانت الميول الفارسية لدى المأمون ووزيره الفضل بن سهل السرخسى سببا فى قلق العنصر العربى ، فالتفوا حول أحد العلويين ببغداد ويدعى محمد بن ابراهيم المعروف بابن طباطبا ، وقامت ثورة بقيادة أبى السرايا الذى كان فيما مضى من أتباع المأمون فى لكوفة فى عام 199 هـ ؛ إلا أن ابن طباطبا توفى فجأة وسقط أبو السرايا فى يد هرثمة والحسن بن سهل الذى كان عامل المأمون على العراق وتم قتله بأمر من الحسن ، وحدثت الوقيعة بين الحسن وهرثمة ، فأمر المأمون بتولى هرثمة لولايتى الشام والحجاز إلا أنه أتجه إلى خراسان بدعوى ضرورة إطلاع الخليفة على سوء أعمال الحسن ، فألقى المأمون بهرثمة فى السجن بإيعاز من الفضل ، وبعد عدة أيام تم قتله سرا . وفى الجزيرة أيضا قامت حركات ثورية بين العلويين والزيديين ، فثار زيد بن موسى الكاظم المعروف بزيد الغار بالتعاون مع أخيه أبى السرايا فى الأنبار والبصرة ، إلا أن أيا من هذه الحركات الثورية لم تخرج بنتيجة ، وفى بغداد ثار الأهالى اعتراضا على الحسن بن سهل وعلى سلوكيات هرثمة ، وطالبوا بتولى المنصور بن المهدى للخلافة. وفى ذلك الوقت كان المأمون بخراسان فأرسل رسولا إلى المدينة لإحضار على بن موسى الرضا مكرما إلى خراسان ، وقرر تنصيبه وليا للعهد وزوجه ابنته ، فثار أهالى بغداد وطالبوا بخلافة ابراهيم بن المهدى. وثار الأهالى فى مصر أيضا واستولى بابك الخرمى على آذربيجان .

اتجه المأمون من طوس إلى العراق ، وفى سرخس تكالب عدد من الناس على الفضل ابن سهل فى الحمام وقتلوه (أوائل عام 202 هـ) . ولعلهم كانوا يرمون بذلك إلى حماية الخليفة من وزيره المتآمر ، وتظاهر الخليفة بعدم رضائه عن هذا الحادث وعاقب مرتكبيه ، وفى سبيل استرضاء أسرة الفضل تزوج ابنة أخيه الحسن ، ولدى وصوله الى طوس توفى الإمام الرضا مسموما، كما تروى الشيعة. وفى الرى شاعت أنباء عن أن الحسن بن سهل والى العراق الذى كان يقيم فى واسط قد أصابه مس من الجنون وأنه أودع مصحة الأمراض العقلية . وبهذه الحوادث اتضح لأهالى بغداد أن المأمون يستعد لتغيير سياسته ، فانفضوا من حول ابراهيم بن المهدى ودخل المأمون العاصمة فى هدوء فى عام 204 هـ ، وعادت الرايات إلى اللون الأسود بعد أن كانت خضراء منذ زمن ولية عهد الإمام الرضا ، وتم مسح ضرائب العراق إنعاماً على الناس .

كان المأمون رغم مشاغله الكثيرة يولى اهتماما بالغا للعلم والأدب وتشجيع أهل العلم ، وظهر فى عهده علماء أفذاذ فى مختلف أفرع المعرفة ، من قبيل الشافعى وأحمد ابن حنبل الفقيهين النابهين ، والبخارى المحدث المعروف صاحب كتاب الصحيح، والواقدى المؤرخ ، وأبى تمام الشاعر الكبير فى عصر المعتصم وناظم الحماسة ، واسحاق ابن ابراهيم استاذ الموسيقى، وغيرهم ، ومن الأعمال الرئيسية فى عهده ترجمة كتب الإغريق الفلسفية والعلمية وهو ماتم وتطور بتشجيع من المأمون ، وقام المأمون بتشييد أول جامعة فى الإسلام وهى بيت الحكمة ، وهى مؤسسة تعليمية تضم مكتبة ومرصدا، وكان المأمون يهتم بالفكر والمذاهب والآراء ، وكان له مجلس يجتمع فيه متكلمو الفرق على اختلافهم ويتباحثون ، وقد أمن المأمون بخلق القرآن كمايرى المعتزلة ، وكان يريد أن ينشر هذه العقيدة، إلا أن الفقهاء والمحدثين وخاصة أحمد بن حنبل وأتباعه كانوا يعتبرون ذلك بدعة ، فاتبع المأمون سبيل القسوة عليهم وأمر بحبسهم وإلقائهم فى السجون ، فحل " عصر المحنة " على حد تعبير الحنابلة ، ولكن توفى المأمون فى رحلة للجهاد على أثر مرض قصير فى سن الثامنة والأربعين بطرسوس فى عام 218 هـ .

فى خضم هذه الأحداث خرجت خراسان إلى الأبد من نطاق الخلافة ، فقد أرسل الخليفة طاهر بن الحسين القائد المعروف الفارسى الأصل واللغة إلى خراسان لإخماد الاضطرابات بها ، مخالفة التوفيق فى ذلك إلا أنه اتجه إلى الاستقلال، وذات يوم أمر بحذف اسم الخليفة من خطبة الجمعة ، ولكنه توفى فى نفس تلك الليلة ، ومع ذلك كانت خراسان قد ضاعت إلى الأبد ، فقد ترك الخليفة ولايتها 'بن طاهر مضطرا ، فاستقرت الأسرة الطاهرية هناك ، ومنذ ذلك الحين استولى الترك على مكان أهل خراسان فى جهاز الخلافة .

الخلافة فى عهد الغلمان الترك :

دخل المجتمع الإسلامى فى أعقاب فتوحات ماوراء النهر وتركستان عنصر جديد يسمى الترك ، وسرعان ماجذبت الاستعدادات القتالية والطاعة لدى غلمان الترك انتباه الخلفاء وقادة الجيوش ، فبدأوا فى استعداد طاعتهم وشدتهم ، من ناحية أخرى كان العرب قد لانت قوتهم على أثر الرفاهية والترف الذى نعموا به فى حياة المدن والثراء والنعمة التى رفلوا فيها بل وفقدوا خصالهم القتالية ، كما اندمج أهل خراسان أيضا فى العرب بالعراق فى خلال عدة أجيال منذ بدء الخلافة ، وبحيازة الطاهرين لخراسان وسيطرة الخرمينى على آذربيجان والفرس على مازندران لم يبق للخلافة مجال لحشد الجيوش ، ولم يكن الخليفة ليجد جيشا أفضل من غلمان الترك خاصة مع وفرة عرضهم فى أسواق النخاسة ، فتوسع المعتصم خليفة المأمون فى استخدام الترك وأعد بهم جيشا جيد التنظيم، وفى بغداد أن الأهالى بالشكوى من هؤلاء الترك ، تشيد المعتصم سامراء واستقر بها معهم .

وقام المعتصم بفتوحات بجيشه الحديث الإنشاء فأجبر الزط [1] وهم قوم كانوا قد تمردوا على طاعته فى بطائح البصرة على الإذعان ، واتجه إلى غزو الروم وفتح عمورية وأعمل القتل والتخريب ردا على مافعله إمبراطور الروم فى الأراضى الإسلامية من قتل وتخريب من قبل (فى عام 223 هـ) ، وجرد جيشا بقيادة أفشين لصد الخرميين ، وبعد معارك طويلة لاذ بابك زعيم الخرميين بالفرار ، وقبض عليه أحد خوانين الأرمن طمعا فى الجائزة وأرسله الى أفشين ، وتعرض عدد من أتباع بابك للقتل وفر عدد آخر منهم إلى بلاد الروم ، وتم التمثيل بجثة بابك وعلقت من بعد فى سامراء ، وحصل أفشين على تاج وجوائز ، ولكن بعد فترة تم شنق أفشين أيضا استناداً إلى تآمره مع مازيار ضد الخليفة واعتناقه للوثنية ، وتم إحراق جثمانه مع عدد من الأصنام التى قيل أنها وجدت فى داره، وكان مازيار هذا (محمد بن قارن بن ونداد بن هرمز) يحكم ولاية طبرستان باسم العباسيين ثم أعلن استقلاله عنهم، فأرسل عبدالله بن طاهر جيشا من خراسان بأمر من المعتصم وألقى القبض على مازيار واقتيد إلى سامراء وقتل جلدا وعلقت جثته على المشنقة إلى جوار بابك وأفشين (عام 226 هـ) ، وتمرد أحد أقارب أفشين

(1) الزط بضم الأول ، وهم الجت بالهندية وهم الغجر أو نوع منهم .

ويدعى منكجور وكان واليا على آذربيجان، فأخمد المعتصم ثورته على يد تركى آخر يسمى بغا ، وتحولت مسألة جيش الترك فيما بعد إلى معضلة بالنسبة للخلافة ، اذ كان طمعهم يزداد كلما ازدادت قوتهم إلى أن فرضوا سيطرتهم على الخليفة والخلافة كماسنرى، واستدعى المعتصم الإمام محمد التقى فى عام 220 هـ من المدينة إلى بغداد، وتوفى الإمام فى نفس العام ودفن بمقابر قريش .

توفى المعتصم فى سامراء فى عام 227 هـ فى سن يناهز السابعة والأربعين وخلفه ولده هارون الملقب بالواثق بالله فى سن الواحدة والثلاثين ، ولد الواثق لجارية رومية (إغريقية) ، وفى مدة الخمس سنوات التى تولى فيها الخلافة اتبع سبيل المأمون فى طلب العلم والجدل فى الآراء والأفكار ، وحين وفاته تعاون قائدان تركيان هما وصيف وايتاخ وولوا الخلافة لجعفر أخيه الذى كان ابن جارية خوارزمية ولقب بالمتوكل على الله ، وبهذا ردوا على الفتنة التى أطلت على البلاد ، أما المتوكل فماأن واتته القدرة قضى على القائدين التركيين ودعم مكانته فى مواجهة المدينة الثائرة بالإطاحة على هذين القائدين القويين .

وكان المتوكل فى سياسته مخالفا لعدد من أسلافه المستنيرين فقد اتجه إلى جذب الرأى العام إليه ، فطارد الشيعة فى كل مكان وحظر الجدل حول القرآن وأقر أحكام عمر بن الخطاب وأمر بأن يرتدى أهل الذمة مايميزهم عن المسلمين ، وكفر الاعتقاد بخلق القرآن وتعقب العلويين بصورة جادة وقام بتخريب قبر الحسين بكربلاء وحظر الحج إليها .

وفى سبيل الحد من سطوة الترك قام المتوكل بتعيين محمد بن عبدالله حفيد طاهر ذى اليمينين واليا على العراق ونقل العاصمة من سامراء إلى منطقة تسمى باسمه وهى الجعفرية ، وقام بتعيين ابنه المنتصر وليا للعهد إلا انه بعد حين واتته فكرة عزله وتعين ابنه الأصغر المعتز بدلا منه ، إلا أن هذه الفكرة لم تخرج إلى حيز التنفيذ ، حيث قتل القائدان التركيان وصيف وبغا الصغير الخليفة بأمر من المنتصر فى شوال 247 هـ ، إلا أن المنتصر لم يحظ بالعرش والتاج فقد واتته المنية بعد ستة أشهر ، وليس من المعلوم ماإذا كانت وفاته نتيجة لمرض أو سم ، وكان خليفته المستعين حفيد المعتصم ألعوبة فى يد القواد الترك ، وفى تلك الأوقات قام بغا بقتل أحد الغلمان الترك فثار عليه سائر

الغلمان وعلى وصيف ، فلاذ القائدان بالفرار إلى بغداد وأخذا معهما الخليفة ، فحاصر الثوار بغداد واستسلمت المدينة وترك الخليفة مكانه للمعتز الذى اختاره الثوار للخلافة (الثالث من محرم عام 252 هـ) ، وفى تلك الأثناء تولى العرش فى طبرستان أحد أئمة الزيدية هو حسن بن زيد الحسنى وأسس الأسرة الزيدية فى طبرستان (عام 250 هـ) ، وفى أوان استسلام بغداد اشترط ألا يلحق أى أذى بالخليفة المستقيل وهو المستعين ، وقد اختار الأخير الإقامة بواسط ، وبعد فترة أرسل المعتز أحد أعوانه لنقله من واسط إلى سامراء ، وفى الطريق تبعه سعيد بن صالح خادم المعتز فى مهمة سرية وقتله وقطع رأسه وأخذها إلى الخليفة ، وظلت جثته مفصولة الرأس ملقاة على الطريق لفترة إلى أن عثر عليها بعض المارة فدفنوها ، وكان المستعين حين قتل فى الخامسة والثلاثين من عمره (عام 252 هـ) ولم يطرأ أى تغير على حال الاتراك فى عهد المعتز، فكان كل قائد تركى يمثل مركز قوة مستقلة ، وكان الصراع دائرا فيمابينهم على كسب المزيد من النفوذ والقوة مماكانت محصلته النهائية زيادة ضعف الخليفة ونهب الأموال وشيوع الفوضى فى الولايات وظهور حركات التمرد فى جنباتها ، وكانت والدة الخليفة مصدرا آخر لمتاعبه (وكانت جارية رومية تسمى قبيحة) فكانت تتدخل فى شئون الدولة وتجمع المال من كل مصدر ممكن [1] ، وكان غلمان الترك من حين إلى آخر تعلن جماعة منهم عصيانها بدعوى المطالبة بزيادة المخصصات المالية والرواتب ، فكانوا يرهبون الوزراء ويغيرون على خزانة الدولة التى كانت غالبا خاوية ، وفى تلك الآونة زادت قوة يعقوب بن ليث فى خراسان وكرمان فقضى على آل طاهر ، واستولى على مصر أيضا غلام تركى يدعى أحمد بن طولون بعون من بابك بك حاجب الخليفة التركى وخرج بها من سيطرة الخلافة فى بغداد بتأسيسه للأسرة الطولونية بمصر، ووقع بغا الصغير فى يد الغلمان المغاربة أى البربر فى بلاط الخليفة وقتل ، إلا أن غلمان الترك بقيادة صالح بن وصيف أعلنوا الثورة وقبضوا على المعتز وقتلوه تعذيبا وتجويعا فى عام 255هـ ، وكان فى الرابعة والعشرين من عمره واستمرت خلافته أربعة أعوام وعدة أشهر ، ومن أحداث عصره وفاة الإمام على التقى فى عام 245 هـ ، بسامراء .

---

(1) راجع مختصر الدول ، ص 256 .

وولى الغلمان الترك المهتدى محمد بن الواثق خليفة بعد المعتز ، وكان المهتدى رجلا ورعا وشجاعا وشهما ، ويصفه المسعودى بأنه نظير عمر بن عبدالعزيز فى بنى أمية (1) لذا فقد سعى منذ بدء ولايته إلى تقليص نفوذ الترك ودرء شرورهم عن الخلافة أى أنه سعى إلى فعل مالم يجرؤ أسلافه حتى ذلك الوقت على الإقدام عليه، وما أن خرج موسى بن بغا قائد الترك لحرب الزيدين فى طبرستان حتى بدأ الخليفة فى تنفيذ ماعزم عليه ، فقبض على أخ موسى وقتله ، ثم قطع رأس قائد تركى آخر هو بايك بك عندما أبدى اعتراضه ، فحاصر غلمان بابك بك قصر الخليفة ، فخرج الخليفة من قصره لمقاتلتهم مطمئنا إلى ثقته فى الغلمان البربر والفراعنة وإلى تأييد العامة له، إلا أن البربر والفراعنة فروا هاربين ووقف العامة دون تقديم يد العون له، فقبض الترك على الخليفة وقتلوه فى عام 256 هـ . (2)

وفى عهد المهتدى نشبت ثورة على بن محمد المعروف بصاحب الزنج بالبصرة فى عام 254 هـ ، وكان يعتبر نفسه علويا وادعى الأمامة ، ويرى البعض أنه كان عربيا من قبيلة عبد القيس فى حين يؤكد البعض الآخر على أنه فارسى (3) وترجع تسميته بصاحب الزنج إلى انضمام الزنجار المقيمين فى البصرة والبطائح إليه ، واستفحل أمر صاحب الزنج وألحق عدة هزائم بجيوش الخليفة وقواده ، ولم يجد الخليفة الفرصة لسحق ثورته نظرا لانشغاله بأمر الترك

ولخلافة المهتدى اختار موسى بن بغا أبا العباس أحمد بن المتوكل خليفة ، وكان أبو العباس فى ذلك الوقت شابا فى الخامسة والعشرين ، وكان ابن جارية تسمى فتيان، ولقب بالمعتمد، وكان أول قرار اتخذه المعتمد تغيير العاصمة من سامراء إلى بغداد، وكان المعتمد شابا غرا لاهيا ورغم ذلك امتدت خلافته مدة طويلة نسبيا حيث حكم لمدة ثلاثة وعشرين عاما ، وكان طول أمد خلافته يرجع إلى قيام أخيه طلحة الملقب بالموفق بأعباء الحكم ، وكان رجلا حازما وشهما وكان دائم السعى إلى التغلب على المشكلات، وكانت الحركات الثورية كثيرة فى الدخل، وكان صاحب الزنج قد مد نفوذه من البصرة

---

(1) التنبيه والاشراف ، ص 318

(2) ثمة اختلافات حول تفاصيل الواقعة بين رواية الطبرى ورواية مروج الذهب .

(3) الطبرى ، ج 1 ، ص 274، هوار ، تاريخ العرب ، ج1 ص 307

إلى ماحولها والادهى من ذلك أن يعقوب بن ليث بعد أن استولى على فارس جاء إلى العراق وعسكر فى دير العاقول بين واسط وبغداد على ضفة دجلة وبات يهدد العاصمة، ومن حسن طالع الخليفة أن اتحد قواده فى ذلك الوقت لحمايته خوفا من زوال الجهاز الذى يرتزقون منه ، ووقفوا بكل قوتهم فى المعركة ضد يعقوب ، وكان فيضان النهر عونا لهم ، كما شب حريق فى معسكر يعقوب فجفلت الحيوانات ووقعت الفوضة فى صفوف جيشه ، وبالإضافة إلى كل دلك أصيب يعقوب بمرض فى تلك الأثناء ، نتيجة لكل ذلك لحقت الهزيمة بيعقوب وفر رغم كل ماإتسم به من ثبات ، إلا أن أحدا لم يتعقبه فظل يعيش فى جنديسابور إلى أن توفى فى عام 265 هـ .

وتمكن الموفق من القضاء على صاحب الزنج بعد أن بسط سيطرته على البصرة وتوابعها مدة أربعة عشر عاما (فى عام 270هـ) ، ثم أرسل جيشا بقيادة ابنه أبى العباس لقلب حكم الملك الطولونى بمصر ، وكان الطولونيون آنذاك قد اقتلعوا الشام من تحت سيطرة الخليفة وامتد نفوذهم حتى قنسرين ورقة ، وحقق ابن الموفق نصرا فى طواحين بفلسطين إلا أن أحد قادة ملك مصر فاجأه ففر ابن الموفق بكل سرعة عائدا إلى العراق ، ومنذ ذلك الحين انقطعت الصلات بين مصر والعراق تماما ، وكان الخليفة يلعن ابن طولون على منابر العراق وابن طولون يلعن الخليفة فى مصر .

فى عهد المعتمد تعرض عبدالله بن رشيد بن كاووس وأربعة آلاف جندى لهجوم الأعداء فى بلاد الروم وقتلوا جميعا إلاخمسمئة منهم وأسر عبدالله ، وفى أواخر عهد المعتمد ظهر القرامطة فى الكوفة بزعامة درويش خوزستانى أخذ يدعو لإمامة أحد أفراد آل البيت ، وأتى بأحكام دينية جديدة ، وقد ازدادت هذه الفرقة فيمابعد كماسيرد الذكر ، وفى عهد المعتمد توفى الإمام حسن العسكرى بسامراء فى عام 260 هـ ، وبإمامة ابنة محمد بن الحسن بدأ عهد الغيبة .

أصيب الموفق فى طريق عودته من آدربيجان بداء الفيل وتوفى فى عام 278 هـ، وفى ذلك الحين قامت ثورة كبرى فى بغداد فاحترقت ديار كثيرة ونهبت أموال جمة، فتولى أبو العباس ابن الموفق أزمة الأمور ومالبث المعتمد حتى مات نتيجة لإفراطه فى الطعام والشراب أو على أثر سم دس له وخلفه أبو العباس بلقب المعتضد بالله فى عام 279 هـ .

كان المعتضد رجلا قوى الشكيمة حازما فى سيطرته على الأمور ، وكان لكفاءة غلامه بدر تأثير غير هين ، فهدأت الفتن فى عهده إلى حد ما وأبدى ملك مصر الطولونى ولاءه للخليفة وزوجه ابنته ، وأظهر حكام خراسان من صفاريين وسامانيين طاعتهم فى مذلة وظلوا يرسلون إليه الضرائب والهدايا، إلا أن أمر القرامطة استفحل لدرجة خطيرة وأخذ أبو سعيد الجنابى يتهدد الكوفة والبصرة واستمر الصراع ، وكان المعتضد لايتورع عن سفك الدماء ويتلذذ بتعذيب رعيته ، وكان يتعاطف مع العلويين، وقرر لعن معاوية من فوق المنابر ودون منشورا فى هذا الصدد من النسخة التى كان المأمون قد أعدها فى عهده وتضم مطاعن بنى أمية وفضائل أهل البيت ، وكان يود أن يتلى هذا المنشور على الملأ ، إلا أن رجال دولته صرفوه عن عزمه بدعوى خشية ثورة الناس وانتهاز العلوين للفرصة ، لذا فقد حظر المعتضد الاجتماعات فى حلقات الرواة والفتاوى فى المساجد ، وأمر بمنع أى راو أو مفتى من الجلوس بالمساجد ، وكان المعتضد شديد البخل إلافيمايتصل بالبناء والتشييد وهو ماكان يوليه اهتماما بالغا ، وفى عهده قضى السامانيون على الصفاريين بخراسان ، ونتيجة لذلك وقعت ولايات فارس فى يد الخليفة من جديد ، وخرج المعتضد لغزو الروم مرة ، وفى 22 ربيع الثانى من عام 289 هـ توفى وقيل أنه مات مسموما .

أتى على ابن المعتضد والملقب بالمكتفى بالله من الرقة إلى بغداد وتولى الخلافة، وفى البداية أطلق سراح من كانوا بسحن أبيه ممأأدخل السرور على قلوب الناس ، إلا أنه قتل بدرا حاجب أبيه وآلت أمور الدولة إلى غلام يدعى فاتكا والى القاسم والعباس وزيرى الخليفة ، وأمتدت خلافة المكتفى ست سنوات ،وفى عهده هحمت جماعة من فرقة القرامطة على الشام وأنزلوا الهزيمة بعمال الدولة الطولونية بمصر بمعاونة من العرب ، واستولوا على الشام وأعلنوا قيام أول امام فاطمى لهم بها ، فجرد المكتفى حيش إلى الشام ، فانهزم فى البداية على يد القرامطة إلا أنه انتصر عليهم بعد ذلك نتيجة لضغوط الخليفة والقوات المتلاحقة التى ظل يرسلها إلى الميدان ، وتم القبض على إمامهم المعروف بصاحب الشامة مع عدد من رفاقة ، ودخلوا بغداد فى موكب مهيب وتم إعدامهم على الملأ وبصورة مهينة (عام 291 هـ)، ثم جرد المكتفى جيشا إلى الطولونيين بمصر وكانوا فى ذلك الوقت فى حالة صعف نتيجة للفوضى والتصدعات

الداخلية ، وفى المعركة سقط الملك الطولونى هارون بن خماروية قتيلا بيد مزراق وهو غلام بربرى ، وانتهيت الأسرة الطولونية فى عام 292 هـ ، إلا أن ثائرا آخر يدعى الخليجى فرض سيطرته على مصر فورا من يد جند الخليفة .

توفى المكتفى فى ذى القعدة من عام 295 هـ ، وتشاور العباس بن الحسن الوزير مع رجال الدولة وقرر تنصيب أخ المكتفى وهو جعفر بن المعتضد الذى كان طفلا فى الثالثة عشرة من عمره فى الخلافة بهدف إطلاق يده فى شئون الدولة ، ولقبه بالمقتدر بالله ، إلا أن الآخرين لم يرضوا بذلك الاختيار وقام عبدالله بن المعتز الشاعر المعروف بحشد أنصاره حوله بدعوى أحقيته فى الخلافة ، وهب حيش بغداد بقيادة حسين بن حمدان القائد العربى لنصرته ، ونصبوه خليفة بلقب المرتضى بالله ، لكن غلمان القصر بزعامة مؤنس الخادم اتخذ جانب المقتدر ومالبث ابن المعتز حتى تم القبض عليه وألقى به فى السجن ولم تدم خلافته أكثر من يوم واحد (20 ربيع الأول من عام 296 هـ) وكان ثمنه حياته ، وعلى أثر هذا النصر أسبغ الخليفة لقب أمير الأمراء على مؤنس وأصبح ذا كلمة نافذة فى الدولة

أعلن حسين بن حمدان والى الموصل تمرده هناك وأنزل الهزيمة براتق قائد الخليفة ، ثم خرج مؤنس بنفسه لقتاله فأسره هو وأسرته وأتى بهم إلى بغداد ، إلا أنه أطلق سراحهم بعد حين إكراما ، لسابق خدماتهم للخلافة ، وفى عهد المقتدر أتى إلى بغداد سفير من قبل الإمبراطور البيزنطي بهدف عقد هدنة وفدية الأسرى ، فاستقبل الخليفة ووزيره السفراء بحفاوة بالغة وأرسل الخليفة مؤنس معهم الى بلاد الروم بأموال طائلة لفداء أسرى المسلمين ، وكان تولى منصب وزير فى تلك الأوقات خاضعا للمزايدة ، فكل من يتعهد بالتزامات أكثر كان يصبح وزيرا ، لذا فغالبا ماكانت الشئون المالية عرضة للخلل ، ورغم هذا شهد ذلك العصر وزيرا قديرا لنتي العباس هو على بن عيسى الذى كان من « الأبناء » أى من نسل الفرس الأوائل فى عهد الدعوة ، وكان رجلا مقتدرا عالما وحازما ، وفى ذلك الوقت استفحل أمر قرامطة البحرين وتقدموا حتى بلغوا حدود بغداد فجأة وكادوا يفرضون سيطرتهم على العاصمة ، وفى عام 317 هـ، وفى يوم التروية أعملوا الخراب والقتل فى مكة وانتزعوا الحجر الأسود ثم أعادوه فيمابعد، وفى عصر المقتدر أيضا تم شنق حسين بن منصور الحلاج الذى قيل إنه ادعى الألوهيه والحلول، وكان

شنقه بفتوى من الفقهاء فى عام 309 هـ .

وفى عام 317 هـ قام عدد من القادة من بينهم أبو الهيجاء بن حمدان ومؤنس بخلع المقتدر من الخلافة وتنصيب محمد بن المعتضد بلقب القاهر بالله مكانه ، ولكن بعد يومين وقع الشقاق بين هؤلاء القواد فعاد المقتدر إلى الخلافة، إلا أن مؤنس خشى انتقام الخليفة فذهب إلى الموصل حيث أنزل الهزيمة بالحمدانيين وحشد جيشا واتجه إلى بغداد ، وخرج الخليفة بعد أن استشار مساعديه للحرب ، وكان يرتدى رداء النبى (ﷺ) ويتقدم ركبه الفقهاء وقراء القرآن وفى أيديهم المصاحف مفتوحة ، ولكن عند أول مواجهة مع العدو لاذ أصحاب الخليفة بالفرار ، وأراد الخليفة أن يعود أدراجه لولا أن فاجأه الغلمان البربر وقتلوه وصلبوا رأسه مكبرين لاعنين (شوال 320 هـ) ، وكان فى الثامنة والثلاثين واستمرت خلافته خمسة وعشرين عاما .

تولى الخلافة بعد المقتدر محمد بن المعتضد بلقب القاهر بالله وكان شابا سفاكا للدماء وذا بطش شديد ،كما كان هوائيا يسعى وراء هواه ، يقول المسعودى انه كان دائما مسلحا بحربة كبيرة كان يضعها على الأرض أمامه أينما جلس ويهاجم معارضيه بها ، وبهذا أمكن له قمع المشاغبين وإخماد الثورات [1] ، ومن أهم مافعله القاهر هو أن ألقى القبض على أمير الأمراء مؤنس وعدد آخر من القادة الترك بالحيلة وقتلهم، وقام بمصادرة الأموال التى كانت والدة المقتدر وأقرباؤه قد جمعوها فى عهده بتدخلهم فى شئون الدولة، كما بدأ ابن مقلة الوزير المعزول فى التحريض ضد القاهر وخاصة سيما رئيس الغلمان الساجيين (نسبة إلى ابن أبى الساج أحد القواد) وأخبر صحبه على إرهابه من الخليفة، وفى النهاية انتهز سيما وغلمانه فرصة نوم الخليفة وانقضوا عليه وألقوا به فى السجن (فى جمادى الأولى عام 322 هـ) ومات فى سجنه، ودامت خلافته عاما ونصف العام.

بعد القاهر أعطى أحمد بن المقتدر لقب الراضى بالله وتم تنصيبه خليفة ، وكان الراضى أديبا وعالما عالى القدر ومتعمقا فى الفلسفة والموضوعات الدينية ،وقد قام الحنابلة فى عصره بثورة باسم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فكانوا يقتحمون

(1) مروج الذهب ، ج 2، ص 364.

الديار وشاعت الفوضى ، وفى سبيل قمعهم قام الراضى بتعيين عمال وأصدر منشورات تجرم مافعله الحنابلة وترد على مزاعمهم ، وفى عصره أيضا تم شنق محمد بن على الشلمغانى الذى يقال انه كان يعتنق عقائد يشوبها الكفر واحرقت جثته [1] وأسند الراضى مهام وزارته فى البداية لابن مقلة ، إلا أن مسألة تحصيل الضرائب كانت تعترضها المصاعب نظرا لعدم وجود القوة الكافية ، فأضطر الخليفة إلى الاستعانة بمحمد ابن رائق والى واسط وعينه أميرا للأمراء ، وأمر بذكر اسمه فى خطبة الجمعة ، وأسندت إليه المهام المالية، وبهذا فقدت الوزارة معناها ، وأخذ بن رائق وكاتبه يجمعان وينفقان مايشاءان ، وتحدث ابن مقلة إلى الخليفة فى شأن ابن رائق ، إلا أن الخليفة ألقى القبض عليه ، وظل ينتقد ابن رائق فى سجنه ممادعى الخليفة إلى الأمر ببتر لسانه ويديه ، وتوفى فى سجنه بعد محنة أليمة ، ولكن تقوضت دولة ابن رائق أيضا حيث نال تركى آخر يسمى بحكم لقب أمير الأمراء من الخليفة ، وتوفى الراضى بعد ست سنوات وعشرة أشهر فى الخلافة على أثر مرضه بالاستسقاء فى ربيع الأول عام 329هـ .

أجرى بحكم مشاورات مع أعيان دار الخلافة ونصب ابراهيم بن المقتدر فى الخلافة بلقب المتقى بالله ، ولكن لم يعد باقيا من الخلافة والوزارة سوى الاسم ، ومن فرط ضعف الجهاز الحاكم أخذ كل أمير يدعى لنفسه إمارة الأمراء وحدث أن لقى بحكم مصرعه يوما فى أثناء صيده بنهر جور بأيدى الأكراد فى عام 339 هـ ، وفى تلك الآونة كان أمراء آل بويه قد ازداد نفوذهم فى جنوب فارس وأخذوا يتهددون خوزستان، وفى البصرة أيضا ادعى أبو عبدالله البريدى عامل الدولة الاستقلال وذهب لزيارة الخليفة وحصل منه على أموال طائلة بدعوى نفقات الجيش وردع البويهيين ومضى دون أن يعطى الجيش شيئا ، وبعد مصرع بحكم ولى الخليفة كورتجين الديلمى أميرا للأمراء ، ومالبث محمد بن رائق أن عاد من الشام إلى بغداد، فتولى إمارة الأمراء من جديد وسرعان ماقتل،وفى هذه المرة استعان الخليفة بآل حمدان الذين كانت لهم فى الموصل شبه دولة ، فأنعم على ناصر الدولة الحمداني بلقب أمير الأمراء وعلى أخيه على بلقب سيف الدولة إلاأن الترك أعلنوا الثورة ، فلاذ ناصر الدولة بالفرار إلى الموصل بينما ذهب أخوه سيف الدولة إلى حلب حيث قام بتأسيس الدولة الحمدانية التى اشتهرت فيما بعد برعايتها للأدب فى

(1)أبو الفداء ، ج 2 أصل ، 80 كانت شلمغان قرية فى نواحى واسط

التاريخ [1] ، ونتيجة لثورة الترك تولى شخص يدعى توزون إمارة الأمراء وكان لايزال فى واسط ، وكان الخليفة يرهب جانب توزون فلاذ الموصل لدى ابن حمدان ومن هناك مضى إلى الرقة حيث أخذ يراسل توزون ويطلب منه الصلح ، وبعد أن أقسم توزون على الولاء تحرك الخليفة نحو بغداد، وفى الطريق أرسل الخليفة رسولا آخر إلى توزون يستحلفه على الولاء ، وبالقرب من بغداد خرج توزون بدعوى استقبال الخليفة ولكنه ألقى القبض عليه وعلى وزرائه ومرافقيه ، ثم قام بسمل عينى الخليفة ونصب ولده عبدالله مكانه فى الخلافة ولقبه بالمستكفى بالله (عام 333 هـ) .

ولكن سطوة توزون لم تدم طويلا ، فقد توفى فى العام التالى مريضا بالشلل، وشغل منصبه من بعده كاتب يدعى محمد بن شيرزاد، ولم يدم فى منصبه طويلا حيث وصل إلى بغداد أحمد الأمير البويهى الذى كان قد فرغ حينئذ من أمر خورستان والمناطق المجاورة لها، ودخل دار الخلافة دون مقاومة فى عام 334 هـ ليبدأ فصل جديد فى حياة الخلافة .

الخلافة فى أيدى آل بويه :

فى زحمة الحروب التى خاضها آل سامان الخراسانيون مع أمراء مازندران بهدف فرض السيطرة ظهر رجل يدعى بويه ويكنى بأبى شجاع ، وكان مرتزقا يعيش على الحرب فى عدد من رفاقة من الويالمة ، وكان له ثلاثة أبناء على وحسن وأحمد ، وقد أفادوا من الظروف فى الكرج (منطقة بين همدان واصفهان) فأسسوا حكومة لهم ثم استولوا على فارس ، وفى عهد خلافة الراضى بالله انتزعوا خوزستان والبصرة من قبضة أبناء البريدى أبى عبدالله وأخويه وأصبحت دولة آل بويه حديثة النشأة تجاور خلافة بغداد مباشرة ، وكانت الخطوة الطبيعية التالية دخول بغداد والاستيلاء على السلطة التى كانت متداولة بها بين أيدى الكثيرين ، فقرر أحمد بن بويه وأخواه فى عام 334 هـ دخول بغداد بجيش من الديالمة ، وبهذا استقرت سلطة الخلافة فى يد أسرة فارسية شيعية .

لدى وصول الأمير البويهى توارى الخليفة وابن شيرزاد فى حين انسحب الترك باتجاه

---

(1) وردت مدائح سيف الدولة فى أشعار المتنبى وورد ذكر شعراء البلاط الحمدانى فى يتيمة التعالبى وفى مصادر أخرى عديدة .

الموصل ، الا أن المستكفى خرج بعد رحيل الترك وأظهر سروره بمجىء الأمير البويهى ومنحه لقب معز الدولة ، إلا أنه أخذ البيعة لنفسه منه بأيمان مغلظة ومعاهدة أمان لعدد من أقربائه ونعم الشيعة بنفوذ عريض فى ظل سيطرة الديالمة وازدادوا عددا ، وتحولوا شيئا فشيئا إلى مجتمع مستقل له راع خاص يسمى " نقيب " إلا أن آل بويه حافظوا على المظهر العام وأولوا احتراما لمقام الخلافة رعاية منهم للأغلبية السنية بين الناس، لذا فقد طال عمر الخلفاء فى عهد آل بويه مقارنة بالعهد السابق وكانت مدة الخلافة تطول فى الغالب ولكن بصورة إسمية لاأكثر .

ولكن كان معز الدولة يفكر فى تغيير الخليفة منذ البداية ، ذلك أنه قد بلغه أن " علم " رئيسة الحريم [1] التى كانت على علم دقيق ببواطن الخلافة كانت تتآمر على الأمير البويهى ، فقبض معز الدولة على المستكفى واستبدل به الفضل بن المقتدر بلقب المطيع لله فى عام 334 هـ ، وجاء ناصر الدولة الحمدانى مع الترك من الموصل لقتال معز الدولة ، وانضم إليهم ابن شيرزاد من بغداد وقام بتحريض العيارين بالمدينة على الثورة ، ونشبت الحرب بين الفريقين على ضفاف دجلة ، واحتاج المدينة قحط وغلاء شديدان واستمر الخلل الذى دام طوال فترة حكم معز الدولة من [2] لا أن الأمير البويهى تغلب على معارضيه فى تلك الحرب واستقر أمر خلافة المطيع ، وتم تسليم الخليفة المعزول للخليفة الجديد لكى يسمل عينيه ويلقى به فى السجن حيث وافته المنية، كماتم سمل عينى قهرمانة وبتر لسانها .

منذ ذلك الحين أصبح أمراء آل بويه هم محور تاريخ الخلافة ، وقد توفى معز الدولة عام 356 هـ وخلفه ابنه بختيار بلقب عز الدولة ،وفى عام 367هـ جاء إلى بغداد عضد الدولة ملك فارس وهو ابن عم بختيار ، فطرد ابن عمه واستولى على مكانه ، فطلب بختيار الود من أبى تغلب الحمدانى صاحب الموصل واتجه بجيش إلى بغداد قاصدا عضد الدولة ونشب القتال بين ابنى العم عند تكريت ، ووقع بختيار أسيرا وتم

---

(1) وكانت تسمى قهرمانة ، ويرى صاحب التجارب أنه من المحتمل أن تكون ثمة أسباب أخرى لحقد معز الدولة على الخليفة.

(2) تجارب الأمم ، ج 6، ص 95

قتله ، وفر أبو تغلب إلى الشام حيث قتل، ثم اتجه عضد الدولة إلى الإستيلاء على الرى والمناطق الجبلية من يد أخويه مؤيد الدولة وفخر الدولة ، وصار له ملك عظيم يضم العراق وجزءا هاما من بلاد فارس ، وقام عصد الدولة بإصلاح الدمار الذى أصاب العراق فى أيام الإضطرابات ، فأصلح الأسواق والمساجد وشق القنوات وأعاد بناء الجسور المخربة ، وشمل العلماء والقراء والفقراء بكرمه ، وعمر مدنيتى الكوفة وكربلاء ، وشيد المستشفى العضدى ببغداد ، وكان عضد الدولة يولى اهتماما عظيما بالعلوم عامة والعلوم العقلية خاصة ، وظهر فى عهده علماء كبار وكتاب لهم قيمتهم ، وكان عضد الدولة ملكا حكيما وذا همة عالية ، وكان أول من جرد جيشا إلى بلو تشستان وسيطر على البلوتشين .

وتوفى عضد الدولة فى عام 372هـ فى سن السابعة والأربعين ، وخلفه ابنه صمصام الدولة أبو كاليجار فى بغداد ، إلا أن بقية أجزاء الدولة تفرقت بين أبناء عضد الدولة وأخيه ، وظل صمصام الدولة مايقرب من خمس سنوات فى بغداد كحاكم غير حازم إلى أن أتاه شرف الدولة أبو الفوارس من الأهواز وأسره فى عام 377 هـ وبعد فترة سمل عينيه وأرسله إلى سحن فى احدى قلاع فارس .

لكن هذا الانتصار لم يدم بالنسبة لشرف الدولة ، اذ بعد عامين وثمانية أشهر فى الحكم توفى على أثر مرضه بالاستسقاء وخلفه أخوه بهاء الدولة عام 379هـ ، وتولى من بعده ابنه سلطان الدولة ملك العراق فى عام 403 هـ، وبعد ثمانى سنوات أقدم أخوه مشرف الدولة على ماأقدم عليه عضد الدولة مى قبل أى انه أتى من فارس إلى بغداد وعزل أخاه وحل محله فى عام 411هـ ، وبعد وفاته فى عام 416هـ تولى الإمارة أخوه الآخر الملقب بحلال الدولة ، وقد توفى بدوره فى عام 435 وخلفه أحد أبناء عمومته ويدعى أبا كاليحار س سلطان الدولة بن بهاء الدولة ، وبعد خمس سنوات خلفه ابنه الملقب بالملك الرحيم فى عام 440 هـ وكان آخر ملوك آل بويه فى بغداد والذى قضى عليه السلاجقة ، وهكذا دالت دولة الأسرة البويهية ، كماسنرى فيما بعد .

كانت هذه الحقبة التى استمرت أكثر من مئة عام ، والتى بدأت بسقوط المستكفى قد عاصرت أربعة خلفاء استغرق حكمهم الطويل هذه المدة ؛ فالمطيع الذى تحدثنا من قبل عن وصوله إلى السلطة قضى تسعة وعشرين عاما وعدة أشهر أصيب بعدها بالشلل وعجز عن

الحراك والكلام فعزله قائده التركى سبكتجين [1] قسراً أو عن طواعية عن الخلافة ونصب ابنه الطائع لله مكانه (عام 363 هـ) ، وقضى الطائع لله سبعة عشر عاما وعدة أشهر فى الخلافة، ثم غضب عليه بهاء الدولة وحبسه وعزله (عام 381 هـ) ، وتولى الخلافة من بعده القادر بالله أحمد بن اسحق بن المقتدر لمدة واحد وأربعين عاما وتوفى فى سن السادسة والثمانين (عام 422 هـ) ، وخلفه ، بناء على وصيته، ولده الملقب بالقائم بأمر الله وظل فى الخلافة لمدة أربعة وأربعين عاما ، وفى أواسط فترة خلافته زالت أسرة البويهيين .

كان هؤلاء الخلفاء مجرد حكام صوريين براتب تجريه لهم الحكومة ، وكانوا يعيشون على دخل أملاكهم الخاصة ، ولم يكن لهم سلطات سوى إقامة التشريفات الدينية والرسمية والتصديق على الأحكام ، وظل الثوار يتصادمون فى الولايات ويعترف الخليفة بمن تكتب له الغلبة منهم ، ويمنح لقب إذا ماقام بإرسال هدية ، ولكن فى خلال هذه الفترة وقعت أحداث هامة فى أطراف البلاد ، ففى ديار بكر أنشئت دولة مستقلة على يد أحد أمراء الأكراد يدعى باد (فى عام 373هـ) ، وبعد وفاته آلت دولته لأسرة تسمى بنى مروان وهم الذين قضوا على دولة الحمدانين فى الموصل ولم يبق سوى فرع فى حلب الى أن زال هذا الفرع على يد فاطميى مصر . وفى تلك الفترة ، تصدت دولتا آل مروان بالجزيرة وآل حمدان بحلب لغزو الروم بحكم متاخمة الحدود ، وفى تلك الغزوات كان النصر يحالف الروم تارة ويحالف المسلمين تارة أخرى ، وكان الروم هم البادئون بالاعتداء فى معظم الأحيان وفى أهوار البطيحة أيضا أسس رجل يدعى عمران بن شاهين دولة دالت على يد ثائر آخر ودامت إلى حين ، وفى الحلة استقر الملك لأسرة عن عرب أسد وكان أمراؤهم كماتروى الأخبار يعتنقون المذهب الشيعى ، وكانوا ينعمون بحماية آل حمدان لهم ، وكانت هذه الأسرة تسمى آل مزيد وقد زالت على يد السلاجقة ، وفى أواخر عهد آل بويه دالت الدولة الأموية بالأندلس بعدمايقرب من ثلاثة قرون على يد أمراء الدولة ، ووقعت البلاد فى يد ملوك الطوائف (عام 416 هـ) ، إلا أن أهم أحداث تلك الحقبة كانت تأسيس الخلافة الفاطمية بمصر وكانت تتمتع بقوة كبيرة وكانت

---

(1) تجارب الأمم ، ج 6 ، ص 327 هـ .

تتهدد الخلافة العباسية ودعامتها الدينية تهديدا بالغا بما كان لها من جهاز دعائي عظيم، لذا كان من الضروري أن نفرد فصلا مستقلا لتاريخ هذه الحقبة .

الفاطميون فى مواجهة العباسيين :

كان يطلق على الخلفاء الفاطميين اسم العبيدين أيضا، ذلك أن أول خليفة لهم كان يدعى عبيدالله ، وكانت تسميتهم بالفاطميين ترجع إلى انتساب هؤلاء الخلفاء لفاطمة الزهراء ، وكان الخلفاء العباسيون يشككون فى نسب هؤلاء الفاطميين وكانوا ينعتونهم بأنهم حفدة ديصان اليهودى مؤسس فرقة الديصانية اليهودية ، وفى عهد القادر بالله أعدوا تقريرا فى هذا الشأن مصدقا عليه من جانب فقهاء بغداد وقضاتها، وكان لهذه الدعاية تأثير بالغ لدى أهل السنة وظل مؤرخو بنى العباس ومن تلاهم أيضا تحت تأثيرها. لذا، نجد اختلافات كبيرة حول نسب الفاطميين فى كتب التاريخ . ومن ناحية أخرى، فقد بدأ هؤلاء القوم أمرهم فى الخفاء ، وكانوا يلقبون أئمتهم قبل الظهور إلى العلن بألقاب لاأسماء ، فكانوا يطلقون عليهم " النقى " و التقى " و " الوفى " و "الرضى" ، وحتى عبيد الله كان اسمه الأصلى محمدا كمايروى ، كان شيعة الخلفاء الفاطميين ، ويسمون بالإسماعيلية ، يعتقدون أن الأمامة تتسلسل من الإمام جعفر الصادق إلى ابنه اسماعيل ومنه إلى ابنه محمد، وقد فصلت هذه العقيدة فيمابعد وامتزجت بالفكر الفلسفى والعرفانى وصارت معرضا لجدل واسع .

كانت بداية هذه الدعوة فى أواسط القرن الثالث إبان ظهور القرامطة ، ويروى أن رجلا يسمى عبد الله بن ميمون القداح دهب من أصفهان إلى خوزستان وظل يدعو الناس سرا إلى المذهب الإسماعيلى ، وبعد وفاته استأنف ابنه مابدأه ، فأوفد رجلا يدعى ابن حوشب إلى اليمن لنشر الدعوة وأوفد ابن حوشب بدوره الرسل من اليمن إلى المغرب أى إلى شمال أفريقيا وقبيلة كتامة البربرية . وفى تلك الأثناء ، التقى ابن حوشب برجل عالم ذكىّ يسمى أبا عبد الله الشيعى فأرسله إلى أفريقيا. فمضى أبو عبد الله إلى مكة حيث تعرف على حجاج قبيلة كتامة وعاد معهم إلى أفريقيا وبدأ فى نشر دعوته ، فالتف

حوله البربر من كل صوب ، فعلى شأنه وبدأ فى فتح البلاد المجاورة .

أقام الإمام الإسماعيلى بسليمة فى الشام ، وعزم المكتفى الخليفة العباسى على القبض عليه ، ففر بن سليمة إلى مصر وعاش مدة فى الفسطاط يجوب الحارات على هيئة تاجر ، وبعد فترة اتجه الإمام إلى أفريقيا ليكون بين أتباعه وليعلن نفسه بعد أن بدأ عامل مصر فى البحث عنه بأمر من الخليفة أو ربما بسبب الإضطرابات التى ألمت بمصر فى أواخر عهد الطولونيين كمايقول أبو الفدا ، وفى مدينة سجلماسه وقع فى أسر بنى المدرار الذين كانوا يحكمون المنطقة وألقى به فى السجن ، إلا أن عبد الله الشيعى كان منهمكا فى الفتح ودانت له ثلاث دول فى أفريقيا واحدة تلو الأخرى ، فاستولى على رقادة من بنى الأغلب وعلى تاهرت من يد آل رستم وأخيرا سجلماسه من يد بنى المدرار ، وهناك أخرج الإمام عبيد الله وابنه من السجن ورافقه بكل الحبور إلى رقادة حيث تم تنصيب عبيدالله خليفة بلقب المهدى [1] ، وبدأت الأسرة الحاكمة (فى عام 297) وكان متكلمو الإسماعيلية يقولون أن النبى (ﷺ) قال : " على رأس ثلاثمئة تطلع الشمس من مغربها " وأن المقصود بذلك هو عبيد الله .

قتل عبيدالله أبا عبدالله الشيعى وأخاه عند أول فرصة سنحت له ولنفس السبب الذى قتل به العباسيون أبا مسلم ، ثم بدأ فى تنظيم شئون الدولة والفتوحات ، وكان أمامه طريقان لتجريد الجيش ؛ أحدهما من ناحية الشرق إلى مصر ومنها إلى سائر أقاليم العباسيين ، والطريق الآخر من ناحية الغرب إلى سائر مناطق أفريقيا الشمالية وجزيرة صقلية حيث كان لايزال ثمة فلول من الفاتحين العرب يفرضون هيمنتهم ، وكان هدفه الأول هو الحملة شرقا والقضاء على العباسيين . لذا، فقد أرسل المهدى ابنه أبا القاسم وكان آنذاك شابا يافعا فى العشرين من عمره بجيش تدعمه قوة بحرية لفتح مصر ، وتم له الاستيلاء على طرابلس الغرب وبرقة والاسكندرية دون مشقة . أما فى الفسطاط

---

(1) يعد هذا المهدى بالنسبة للإسماعيلية آخر الأئمة المختفين وأول إمام مستقر من خلفاء مصر الفاطميين (من مذكرات اقاى مينوى) .

فقد صمد تكين التركى للمقاومة بالإمدادات التى أرسلها إليه مؤنس فعاد الجيش الفاطمى يائسا وتكرر الأمر مرة ثانية بعد حين ، فاتجه إلى مصر جيش بنفس الصورة وبنفس القيادة ولقى فى الفسطاط نفس العقبة التى صادفها فى المرة الاولى ، ولكن فى هذه المرة عمد القائد الفاطمى إلى الثبات فى المواجهة وواصل القتال إلى أن أتى أمير الأمراء مؤنس بنفسه من بغداد للدفاع عن مصر ، فعاد الجيش المهاجم مرة أخرى إلى أفريقيا بل وضاعت منه برقة أيضا (فى عام 308 هـ) .

أما فى الغرب فقدر للدولة الفاطمية التوفيق ، وفى جزيرة صقلية ثار الجنود البربر على زعيمهم ابن قرحب [1] الذى استولى على الجزيرة وأطلق على نفسه " مولى الخليفة العباسى " ، فألقوا القبض عليه وأرسلوه إلى المهدى وتم قتله ودخلت جزيرة صقلية تحت سيطرة الخليفة الفاطمى ، وأتخذ المهدى من صقلية مركزا للهجوم البحرى وجرد حملات موسعة بسفنه على سواحل ايطاليا والبحر الأدرياتى ، وظهر غرب أفريقيا من فلول الأدارسة الذين حكموا هناك لفترة من الزمن ، ثم شيد مدينة المهدية وقلعتها فى القيروان وأتخذ منها عاصمة له .

توفى المهدى فى عام 322 هـ وخلفه ابنه أبو القاسم بلقب القائم بأمر الله ، وجرد حمله على مصر للمرة الثالثة ، فأرسل القائم جيشا بقيادة أحد مواليه ويدعى زيدان إليها ، فاستولى على الإسكندرية ، أما فى الفسطاط فقد واجه مقاومة من الأخشيد الذى كان والى مصر آنذاك فتراجع عنها ، وعزم القائم على تجريد جيش أكبر إلى مصر لولا أن حدثت فتنة فى الداخل ألهت الخليفة عن عزمه ، وقام شخص من قبيلة زناتة البربرية يدعى أبا يزيد المخلد بتحريض سكان الجبال بدعوى حماية السنة (فى عام 332هـ) فاستولى على منطقة تونس وحاصر القائم فى المهدية ، كان أبو يزيد هذا شيخا فى حوالى الستين من عمره وكان يمتطى حمارا عادة ، لذا فقد أطلقوا عليه لقب " الحمار " ، ويذكر الإسماعيلية أنه الدحال الذى ورد ذكره فى أخبار ظهور القائم ، واستمر حصار المهدية عاما كاملا وانهزمت قبيلة كتامة التى كانت تؤيد الخليفة الفاطمى فى إحدى المعارك ، إلا أن شيخ قبيلة صنهاجة مكن الخليفة من الصمود بإمداده بالمؤن داخل القلعة إلى أن تفرق مريدو الشيخ شيئا فشيئا ، إلا أنه تمكن من حشد قوات

(1) قرحب بضم القاف والحاء .

جديدة وواصل القتال، وفى تلك الأثناء توفى القائم (فى عام 334هـ) ، فتولى الخلافة ابنه أبو طاهر إسماعيل بلقب المنصور فواصل القتال، وأصيب أبو يزيد فى الحرب بجرح مهلك، إلا أن الدولة أصابها الإضطراب وأطل الأدارسة برؤوسهم من جديد وكانوا قد استولوا على مراكش ، واستولى على صقلية عربى من قبيلة كلب ، وتدخل المنصور لقرار الأوضاع إلا أنه توفى فجأة على أثر إصابته ببرد فى عام 341 هـ، فخلفه ابنه أبو تميم بن معد بلقب المعز لدين الله .

ظهرت فى بدء خلافة المعز عقبة كبرى ، فقد سير الخليفة الأموى عبدالرحمن بالأندلس جيشا فى سوس انتقاما للحملات التى شنها الفاطميون على إقليمه ، ولكن فى الوقت نفسه ، ثار النصارى فى الأندلس واضطر الجيش الأموى إلى العودة ، وحينئذ قام القائد المعزى جوهر وكان غلاما يونانيا محررا (مولى) بتهدئة المغرب بجيوش كتامة وصنهاجة ، ودخلت مراكش مرة أخرى تحت سيطرة الخليفة (فى عام 347هـ) ، ثم ساورت المعز فكرة تنفيذ السياسة الفاطمية القديمة أى فتح مصر .

كانت الأوضاع فى مصر قد تغيرت فى ذلك الوقت، فقد توفى كافور الأخشيدى ووقعت البلاد فريسة للفوضى والقحط ،وجاء يعقوب بن كلس الذى كان يدير شئون البلاد من قبل العباسيين إلى المعز بسبب الصفينة التى كان يحملها على ابن الفرات وزير بغداد وأوضح له الوضع المضطرب فى مصر ، فاتجه جوهر إلى مصر فى عام 358 هـ ، فخرج قادة مصر إلى برقة لاستقباله وإظهار الولاء له ، وهب الأخشيديون للمقاومة فى الجيزة إلا أنهم هزموا بسهولة ودخل جوهر الفسطاط واتخذ من المنطقة التى صارت فيما بعد مدينة القاهرة عاصمة مصر معسكرا لجيشه .

وبعد مصر جاء الدور على الشام ، كان جنوب الشام خاضعا لسيادة ابن أخى الأخشيد حسن بن عبدالله ، فأنزل القائد الفاطمى الهزيمة بجعفر بن فلاح قائد قوات حسن فى الرملة ، وفى العام التالى استولى على دمشق فى عام 359هـ ، وفى شمال الشام كانت حمص تحت سيطرة سيف الدولة الحمدانى وأنطاكية فى يد الروم وكانا فى حالة صراع مستمر، لذا فقد أحجم القائد الفاطمى عن مهاجمة تلك المنطقة إلى جانب المشكلة التى أثارها القرامطة ، كان القرامطة يحصلون على رواتب من حسن الأخشيدى عامل

دمشق ، وبالفتح الفاطمى وزوال حسن ضاعت منهم هذه الإتاوة أيضا من ثم فقد هبوا لمعارضة الفاطميين وتصالحوا مع خليفة بغداد ، وحصلوا منه على المال والعون وهاجموا دمشق ، فقتل جعفر بن فلاح وكان لايولى أية أهمية لهذه الحركة ، وبعد دمشق استولى القرامطة على الرملة ومنها شنوا حملة على مصر مع جماعة من الأخشيديين، وفى المعركة الأولى انتصروا على جوهر والبربر ، أما فى النهاية فقد انهزموا وعادوا إلى الشام .

فى تلك الأثناء ، كان الخليفة الفاطمى قد قام بنقل عاصمته من المهدية إلى القاهرة، وترك ممتلكاته الأفريقية التى كانت تفصلها عن العاصمة الجديدة صحارى شاسعة لبلجين ابن زيرى البربرى زعيم قبيلة صنهاجة وكان رجلا سياسيا حكيما ، ثم قام بنوه فيما بعدُ بتأسيس أسرة ملكية مستقلة باسم بنى زيرى .

ودخل المعز القاهرة دون قتال أو صراع وجلس على العرش بمراسم الحفاوة ، وعاد القرامطة من جديد من الشام إلى مصر ، فقدم المعز رشوة إلى زعيم الأعراب الذين ساندوا القرامطة ، فانهزم القرامطة وعادوا لتوهم إلى الشام ، وتوفى المعز فى القاهرة فى عام 365 هـ فى سن السادسة والأربعين ، وكان رجلا فاضلا وحكيما وسياسيا داهية، وكان رفيقا بأهل المذاهب الأخرى رغم تشيعه وكان يسمح للأقباط بإعادة تعمير كنائسهم المهدمة ، بل وكان يسمح لكبير نصارى مصر بالتناظر الدينى مع فقهاء المسلمين .

وجلس على العرش بعد المعز ابنه نزار الملقب بالعزيز وواصل سياسات أبيه ، وفى جنوب الشام علا شأن أحد قادة بختيار البويهى ويدعى أفتكين فأرسل العزيز جوهر لردعه، فحصل أفتكين على إمدادات من القرامطة وحاصر جوهر فى قلعة عسقلان، فذهب الخليفة بنفسه إلى الشام مماأدى إلى هزيمة الحلفاء فى الرملة وتم القبض على أفتكين بالحيلة فأذعن القرامطة وارتضوا بدفع إتاوة ومن هنا بدأ التدهور يدب فى أوصالهم، وبعد فاصل زمنى قصير استولى على مكة أحد العلويين بلقب " الشريف " ، وثار البدو على القرامطة بعد أن كانوا يدينون لهم بالطاعة (فى عام 378هـ) وأنزلوا بهم هزيمة فاحشة، ومنذ ذلك الحين اقتصر نطاق القرامطة على الاحساء ، وقد زالوا تماما بعد عام 429 هـ ، وبهذا آل جنوب الشام إلى الفاطميين ، وفى حلب قام أحد الترك ويدعى أنوشتكين بالقضاء على المرداسيين وآل له الأمر هناك .

كان العزيز قد ترك إدارة الدولة لوزيره يعقوب بن كلس اليهودى ، وتوفى فى عام 380 هـ ، وبعد ست سنوات (وفى عام 386 هـ) تولى مكانه ابنه المنصور الملقب بالحاكم بأمر الله ، وكان يصدر أحكاما غريبة ومتناقضة وكان يتبع سبيل الشدة فى إجبار الناس على تنفيذها ، وكان يجول بالمدينة بين الناس للإشراف على تنفيذ أوامره، وذات مرة أمر بفتح الدكاكين والأسواق ليلا وإغلاقها نهارا ، وبعد فترة أصدر أمرا بعكس ذلك وأمر بألايخرج الناس من بيوتهم بعد الغروب ، وأمر النساء بعدم الخروج من بيوتهن، ولتنفيذ هذا الأمر، قرر ألايقوم الإسكافية بصنع أى حذاء نسائى ، وكان فى بداية حكمه يتعقب اليهود والنصارى ويخرب معابدهم ويلزمهم بارتداء ملابس تميزهم عن غيرهم ، وهو الحكم الذى كان عمر بن الخطاب قد أصدره فى عهده ، وأكد الحاكم بأمر الله على هذا الأمر وألزمهم بوضع خلخال فى أرجلهم فى الحمامات ، وبعد فترة أصدر أمرا بحرية العقيدة بل وأجاز الإرتداد ، وقد اعتنق هو نفسه بمذهب السنة لفترة من الزمن ثم عاد بعد فترة أخرى إلى مذهبه الإسماعيلى واعتبر نفسه أحد آخر الناطقين السبعة فى العقيدة الإسماعيلية .

وشاع السخط عليه بين أهل السنة ، فجاء إلى برقة أمير أموى يدعى أبا ركوة كان قد تم طرده من بلاط خليفة الأندلس والتف حوله جمع من العرب والبربر ، ووصل إلى بوابة القاهرة ، وجاء جيش من الشام لدعم الخليفة ، ونجت العاصمة من الخطر، وألقى القبض عليه وتم إعدامه ، وكان الحرس الخاص للخليفة من الأفارقة السود مماأدى إلى قيام الثورة والعصيان من آن لآخر بين الجنود الترك والبربر .

وفى عام 395 هـ أسس مدرسة لتعليم المذهب الإسماعيلى وإعداد الدعاة باسم " دار العلم " ، وكان الخليفة قد قرر أن يجعل هذا المذهب مذهبا رسميا لمصر ، وقام أحد الدعاة من أصل تركى ويدعى درزى (بالفتح) ذات يوم فى المسجد ، وتلا رسالة على الناس فحواها أن روح آدم قد حلت بجسد على بن أبى طالب وسرت من بعده فى نسل الفاطميين وأنها قد حلت آنذاك فى جسد الحاكم بأمر الله ، فثار الناس لدى سماع ذلك نفر درزى إلى الشام بإشارة من الحاكم بأمر الله ووجد تلامذة له فى لبنان حيث لايزال نسلهم يعرف حتى اليوم بالدروز ، وهم لايزالون يرون فى الحاكم بأمر الله مظهرا للتجسد الإلهى ، وسعى الحاكم بأمر الله مرة أخرى لإقناع الناس بالألوهية أو بكونه مظهرا لها

دون جدوى ، واضطر حمزة الفارسى الذى تولى مهمة إبلاغ الناس إلى الفرار على أثر ثورة الناس عليه، وانضم إلى الدرزى ولايزال الدروز يقدسون اسمه حتى اليوم وينزلون كلماته منزلة القداسة .

وفى عام 411 هـ وفى فجر أحد الأيام خرج الحاكم بأمر الله راكبا حماره كالمعتاد إلى جبل المقطم واختفى بصورة غامضة ، ويحتمل أن يكون قد قتل ، وفى ذلك كان ابنه على الملقب بالظاهر لايزال صبيا فى السادسة عشرة فتولت الحكم ابنة الحاكم وتسمى ست الملك وأمرت ست الملك بقتل عدد من قادة الجيش كانوا يثيرون الفتن وأقرت الأوضاع وتوفيت بعد أربعة أعوام فى الحكم (عام 415 هـ) ، فتولى الظاهر الحكم إلى أن توفى بالطاعون فى عام 425 هـ ، فخلفه ابنه ذات السبعة أعوام أبو تميم معد بلقب المنتصر بالله .

أمضى المستنصر فى الخلافة ستين عاما، وهى مدة تعد على حد قول السيوطى أطول فترة حكم شهدها الإسلام [1] . كان المستنصر بالله ابن أمة سودا ء فأكثرمن تعداد السود فى حيشه إلى أن بلغوا خمسين ألفا وأدت ثورة غلمان الترك ودسائس رحال البلاط إلى حدوث خلل فى شئون الدولة ، وكانت ثورتهم بتحريض من جرجرائى وزير أهل دمشق إلا أن المستنصر انتصر عليهم ، وفى أفريقيا الشمال استقل المعز بن باديس من أسرة زيرى (فى عام 440هـ) فخرجت المعرب من تحت إمرة الخليفة الفاطمى وكان المستنصريخمد ثورة غلمان الترك المال لفترة وعندما نفذ المال توسل بأحد الامراء الحمدانيين ويسمى ناصر الدولة (وهو غير ناصر الدولة الحمدانى الأول) ونصبه وزيرا له فى عام 454هـ وانتصر الترك مرة أخرى وأضرموا النار فى قصر الخليفة بمكتبته النفيسة وقتلوا ناصر الدولة وعينوا تركيا يسمى ايلدجر مكانه فى عام 465هـ ، بل وتليت الخطبة باسم خليفة بغداد القائم بأمر الله فى بعص المدن ، وفى سبيل سحق الترك استعان المستنصر بأحد الأرمن ويدعى بدر الحمالى وعدد من الجنود الأرمن (فى عام 466)، فقتل قادة الترك وازدادت قوته باعتباره " مرحوش " (أمير الجيوش) وتمكن من تهدئة الأوضاع فى البلاد

انتشرت الدعاية الإسماعيلية فى البلاد الإسلامية فى خلافة المستصر الطويلة ،فأنشأ

(1) حسن المحاضرة ، ح 2 ، ص 14

داعيته حسن الصباح جهازا هاما فى فارس كما ورد بصورة تفصيلية فى تاريخ فارس وكان ناصر خسرو الشاعر المعروف من دعاة المستنصر، وكان حائزا على لقب " حجة "، وظل ينشر دعوته فى خراسان وماوراء النهر ، وكانت الدعوة الإسماعيلية قائمة فى خراسان على مايبدو منذ أوائل سنوات ظهورها أى منذ أيام عبدالله بن ميمون، وكانت قصة اعتناق الملك السامانى للقرمطية كماورد فى كتاب سياست نامه تتصل هذه الدعوة، وفى عهد المستنصر وصل اسم الخليفة الفاطمى إلى المنابر فى بغداد ذات مرة فى خضم الإضطرابات ، كماسنرى فيمابعد . لكن ظهور السلاجقة كان بمثابة طوق النجاة لخلافة بغداد .

توفى المستنصر فى عام 487 هـ، وقام أمير الجيوش الأرمنى شاهنشاه بن بدر الجمالى بتنصيب أحد أبناء المستنصر وهو أحمد الملقب بالمستعلى بالله خليفة فأنعم عليه الخليفة الجديد بلقب الملك الأفضل ، وفى عهد المستعلى استقل إسماعيلية فارس عن نظرائهم فى مصر لأنهم كانوا يرون أنه بعد المستنصر كان ابنه الأكبر أحق بالخلافة، وأراد المستعلى بعد جلوسه فى الخلافة أن يقتل نزارا ، فلاذ الأخير بالفرار، وقيل إنه وقع فى يد المستعلى فأودعه السجن ، وكان أنصار المستعلى يزعمون أن المستنصر نفسه كان قد عزل نزار من ولاية العهد ، أما النزارية فيدعون أن الاعتبار للنص الأول .

وفى تلك الآونة بدأت الحملات الصليبية، فأخذ أصحاب الصليب الذين احتشدوا من مختلف أنحاء أوربا فى الهجوم على الأراضى الإسلامية بدعوى الجهاد ، فلم يول المسلمون اعتبارا لذلك فى بادىء الأمر، فكان أمير الجيوش فى مصر منهمكا بالصراع ضد السلاجقة بهدف الحيلولة دون اتساع نطاقهم ، وفى عام 1491هـ استعاد بيت المقدس من السلاجقة ، ولكن بعد عام واحد وقع بيت المقدس تحت حصار الصليبيين .

بعد المستعلى تولى الخلافة ابنه المنصور الملقب بالآمر بأحكام الله (فى عام 495هـ) وفى عام 515هـ أمر بقتل أمير الجيوش الذى كان قد أصبح مطلق اليد فى شئون الدولة وفى رواية أن النزارية هم الذين قتلوه ، على آية حال فقد كان مقتل هذا القائد المحنك ضررا للبلاد ، فقد تم القضاء على الآمر نفسه بضربة خنجر على يد الفدائيين النزاريين فى عام 524هـ ، وعندما توفى الخليفة لم يكن له أبناء من الذكور فقام أركان الدولة

بتنصيب رجل يدعى أبا ميمون عبدالمجيد كان من فرع آخر من الأسرة فى منصب خليفة ولقب بالحافظ لدين الله، وتوفى الحافظ بعد عشرين عاما من الخلافة فى ظروف مضطربة مبعثها نشاط النزاريين (فى عام 544 هـ)، وخلفة ابنه ذو السبعة عشر عاما ويسمى إسماعيل الظافر بالله، وتولى إدارة شئون البلاد كردى سنى يدعى ابن سالار (سالار) رئيس ديوان الخليفة ، وتم اغتيال ابن سالار ذات ليلة فى فراشه بتحريض من أحد الأمراء ، وبعد فترة لقى الخليفة أيضا حتفه اغتيالا فى عام 549 هـ، وتولى الخلافة من بعده ابنه عيسى الملقب بالفائز وكان لايزال طفلا فى الثالثة من عمره ، وتوفى بعد ست سنوات فقط وطوال هذه الفترة كانت شئون الدولة فى يد أمير شعبى المذهب يسمى طلائع بن زريك، وبعد الفائز تولى الخلافة عبدالله الملقب بالعاضد حفيد الحافظ ، وفى تلك الأوقات امتد نفوذ أتابكة آقسنقر وكانوا فرعا من السلاجقة من الموصل إلى الشام ، ونظرا لتصديهم لحرب الصليبيين فقد كانت تحت أيديهم قوات هائلة ، وفى هذه الظروف علا شأن أسرة كردية تدعى أولاد شادى وبهذا أصبح للدولة الفاطمية الضعيفة جار قوى على درجة من الخطورة ، وصار البلاط الفاطمى مسرحا للصراع بين أميرين هما شاور وضرغام على الوزارة ، فتوسل شاور بالدولة الجارة ووعدها بخراج سنوى ، ولما كان الملك الآقسنقرى على دراية بضعف مصر وكان فى انتظار ذلك اليوم فقد أرسل جيشا إلى مصر بقيادة قائده الكردى شيركوه بن شادى فتم تنصيب شاور فى منصب الوزارة ، وعاد الجيش فى انتظار الوعد بالمال ، إلا أن شاور خلف وعده، فجاء شيركوه إلى مصر يطالب بالوفاء بالوعد ، واستولى على الإسكندرية فاستنجد شاور بالفرنجة الصليبيين على وعد بالمال، فقاموا بمحاصرة شيركوه بالإسكندرية وانتهى الأمر بالمصالحة ، وعاد شيركوه إلى الشام بعد حصوله على المال ، ثم وقع الصدام بين شاور والفرنجة وبلغ الصراع درجة الحرب واضرام النيران فى المدينة المصرية القديمة ، ثم لوح لهم شاور بالمال فتراجعوا ، إلا أن الملك الآقسنقرى انتهز هذه الفرصة أو استنجد الناس والخليفة به. على أية حال ، فقد أرسل إلى مصر شيركوه مرة أخرى على رأس جيش ضخم كامل الإعداد واستقبله الخليفة استقبالا كريما وفوض إليه وزارته، وبعد عدة أيام ألقى الأكراد القبض على شاور ولم يلبث شيركوه حتى وافته المنية ، فاستوزر الخليفة ابن أخيه صلاح الدين بن يوسف مكانه ، فثار حراس الخليفة الأفارقة على صلاح الدين فأبادهم وأمر بتحديد إقامة

الخليفة فى القصر أى حبسه فى حقيقة الأمر ، ثم خلعه بعد قليل واعلن تنصيب المستضيئ بالله الخليفة العباسى ، وفى نفس تلك الآونة توفى العاضد وانقضت أسرة الخلافة الفاطمية بوفاته (عام 567 هـ) ، كان صلاح الدين سنيا متعصبا وكان يرى الصلاح فى الوفاق مع العقيدة السائدة ومذهب الخليفة العباسى ، واتبع صلاح الدين سياستين رئيسيتين : نشر مذهب السنة وتعقب الرافضة فى الداخل ومحاربة الصليبيين فى الخارج. لذا ، فقد نال صلاح الدين شعبية لدى العامة والسنة ، ولايزالون يولونه قدرا كبيرا من الاحترام ، وكان صلاح الدين هو مؤسس الأسرة الأيوبية التى حكمت مصر والشام لفترة من الوقت .

الخلافة فى عهد السلاجقة :

فى غمرة الصراع بين الخلافتين المصرية والبغدادية وفى العقود المبكرة من القرن الخامس كانت ثمة جماعة من التركمان يجوبون صحارى ماوراء النهر، وانتهزت هذه الجماعة ضعف الغزنويين وتدفقوا على خراسان وأنزلوا الهزيمة بالسلطان الغزنوى فى عام 431 هـ، وأسسوا دولة قوية فى خراسان باسم السلاجقة، ثم امتد نفوذهم إلى كل أنحاء أراضى الخلافة، وكان ظهور السلاجقة بالنسبة لخليفة بغداد نعمة غير مرتقبة، إذ كان السلاجقة من السنة الأصوليين ونشأوا على المذهب الحنفى فى تركستان ، وكانوا يتمسكون به تمسكا شديدا وفى عام 447 هـ دخل بغداد طغرل بك الأمير السلجوقى وألقى القبض على آخر أمراء آل بويه الملك عبدالرحيم وسجنه فى قلعة ترك حيث توفى فى العام التالى، فخلع الخليفة على طغرل وأمر بذكر اسمه فى الخطبة وزوجه ابنة أخيه داود، وفى تلك الآونة احتشد أهل السنة فى بغداد بدعوى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهاجموا دارالبساسيرى التركى غلام آل البويه،وأضرموا النيران فيه بإذن من الخليفة (القائم)وفر البساسيرى فنشبت الفتنة بين الشافعية والحنابلة حول مسألة الجهر بالبسملة ودعاء صلاة الصبح والترجيع فى الآذان[1] وهو ماأجازه الشافعية وأنكره الحنابلة.

بقى طغرل فى بغداد ثلاثة عشر شهرا لم يلتق خلالها بالخليفة أبدا، وهو أمر يكتنفه الغموض، وثار الناس فى الأسواق على تعديات التركمان ، مما دعا طغرل إلى نزع

---

(1) الترجيع فى الأذان هو التشهد بصوت خفيض أولا ثم تكراره بصوت جهير .

أسلحتهم ، ثم خرج طغرل من بغداد لفتح ديار بكر وترك وزيره عبدالملك بها ، وفى تلك الحملة استولى طغرل على الموصل من يد آل مروان وسلمها لأخيه ابراهيم ينال ، وعاد هو إلى بغداد، ولكن فى هذه المرة ذهب للقاء الخليفة بكل خشوع وخضوع ، وجلس الخليفة بخلعته الرسمية على عرشه العالى فى استقباله ، وكان ذلك فى عام 449 هـ، وفى العام التالى تعدى ابراهيم ينال على طغرل وأسره بالخروج من الموصل متجها إلى همدان ، ومضى طغرل يطارده نحو همدان ، وهناك نشبت الحرب بين الأخوين (عام 450 هـ) وفى أثناء غيابه أتى بساسيرى إلى بغداد بعون من قريش بن بدران أمير الموصل العقيلى السابق ، وتلى الخطبة فى المسجد باسم المستنصر الفاطمى مماأثار ثورة الناس ، ودام النزاع بين الطرفين مدة أسبوع إلى أن استولى بساسيرى على قصر الخليفة، إلا أن الخليفة استنجد بقريش بن بدران وذكره بحرمة النبى والحمية العربية، فبسط قريش حمايته على الخليفة دون التشاور مع بسايسرى وعلى خلاف الاتفاق بينهما ، وأخذه معه إلى معسكره ومعه بردته [1] وعصاه ولواؤه ، وقبض بساسيرى على رئيس الرؤساء وزير الخليفة الذى كان قد حرص على إضرام النار فى داره من قبل وقتله وفرض سيطرته على بغداد باسم الخليفة الفاطمى، وأمسك بزمام الحكم برفق تام ودون إظهار أى تعصب مذهبى (عام 450 هـ) ، إلا أن المستنصر ظل مدة لايرد على رسائله اليه ، وعندما أرسل إليه ردا كان على خلاف ماتوقعه بساسيرى ، وكان سبب ذلك أن وزير المستنصر لم يكن على وفاق مع بساسيرى .

وفى العام التالى (451 هـ) ذهب طغرل إلى بغداد لنجدة الخليفة بعد أن فرغ من أمرأخيه إبراهيم ينال واستراح منه بالقتل ، فقتل بساسيرى وسبى نساءه وبنيه وأجلس الخليفة على العرش بكل إجلال ، وبهذا أنقذ الخلافة المقدسة مرة أخرى من شر الأعداء وعاش مدة طولة ينعم بحب الناس الذين أحبوه أو أفادوا منه .

فى تلك الفترة لم يكن قد بقى من الخلافة سوى الإسم فقط كماكان الأمر فى زمان الديالمة والغلمان الترك ، فانتشر السلاحقة فى أنحاء البلاد الإسلامية ، وأنشأوا لهم فروعا وشعبا واستولى حيش ملكشاه بقيادة اتسز على بيت المقدس واستولى على دمشق فى عام 469 هـ ومدت شعبة أخرى نفوذها فى آسيا الصغرى ، ثم فرضوا سيطرتهم

(1) وهى رداء زعموا أنهم ورثوه عن النبى (ﷺ) وكانوا يرتدونها فى المراسم

عليها من يد الروم بصورة حاسمة ، بينما ظل العرب يحاولون ذلك لعدة قرون دون جدوى ، وتعرف هذه الشعبة في التاريخ بإسم سلاجقة الروم، وكانت عاصمتهم قونية وسيواس، وبعد زوال هذه الأسرة فى عهد المغول قام أحد خدام هذه الأسرة بتأسيس أسرة الملوك العثمانيين التى قويت شوكتها فيمابعد وفتحت على يدها مدينة القسطنطينية عاصمة بيزنطة الشهيرة التي وقف الأباطرة الروم يدافعون عنها ضد العرب قرونا طويلة.

وفى فارس كانت القوة الوحيدة التى صمدت فى مواجهة السلاجقة والعباسيين هى فرقة الملاحدة أى الإسماعيلية النزارية أتباع حسن الصباح ، اتخذت هذه القوة مكانها فى القلاع الحصينة بالجبال ، وظلوا يقاتلون معارضيهم عن طريق الفدائيين ، وقد قتلوا خليفة وملكا وكان السلاجقة يحاولون ردعهم دون جدوى إلى أن قام بهذه المهمة المغول ، ونعود الآن إلى تاريخ الخلافة .

توفى القائم فى عام 467 هـ، فأخذت البيعة لجنين فى أحشاء أمه قبل مولده بستة أشهر ولقبوه بالمقتدى بأمر الله ،وتولى الخلافة من بعده المستظهر فى عام 487 هـ، وخلفه بعد وفاته المسترشد فى عام 512 هـ، وفى عهده توفى ملكشاه الثانى الملك السلجوقى وبدأ الصراع بين الملكين السلجوقيين فى العراق وخراسان مسعود وسنجر ، وفى غمار القلاقل التى شهدتها البلاد دعم المسترشد قوته إلى حد ما، وكان رجلا عالى الهمة، وتولى زمام الأمور ثم ذهب إلى آذربيجان عازما على سحق مسعود السلجوقى الذى كان يعتبر نفسه الخليفة وصاحب الأمر فى العراق ، ونشب القتال على مشارف مراغه ، وانضمت ميسرة الخليفة إلى صفوف العدو ولاذ باقى الجيش بالفرار بعد قتال يسير ، وتم أسر الخليفة الذى ظل صامدا فى مكانه فأنزلوه بكل احترام فى خيمة خاصة وتقرر إطلاق سراحه على إتاوة سنوية يدفعها، ولكن فى أحد الأيام تجمع عدد من الناس قيل إنهم من الملاحدة على الخليفة ، وقتلوه وظل جثمانه طريحا إلى أن دفنه أهالى مراغه (عام 529هـ) .

وبعد وفاة المسترشد تولى الخلافة ابنه المنصور بلقب الراشد بالله، وكان والده قد نصبه وليا للعهد فى حياته، وصدق على ذلك رئيس شرطة بغداد المعين من قبل مسعود، وظل مسعود يطالب الراشد بالإتاوة التى تعهد بها المسترشد، فامتنع الخليفة وفى ذلك الوقت

أتى إلى بغداد داود السلجوقى خصم مسعود ومعه زنكى أمير الموصل، وحثا الخليفة على مناوءة مسعود الى أن أمر بحذف اسم مسعودمن الخطبة ، فحاصر مسعود بغداد، وفر الخليفة ورفاقه إلى الموصل ومنها إلى همدان لدى داود ، وفى بغداد تمكن مسعود من خلع الراشد عن طريق بند فى معاهدة كانت بين يديه وبتصديق من الفقهاء، ونصب عمه محمد بن المستظهر بلقب المقتفى لأمر الله خليفة فى عام ، وخرج لقتال الراشد وداود، فأنزل الهزيمة بجيش داود قرب اصفهان، فى حين قتل الراشد وهو فى طريق فراره على يد عدد من خدمه الخراسانيين ، وفى رواية على يدالمخربين الملاحدة، وتم دفنه فى أصفهان عام 531 .

وفى عهد المقتفى توفى مسعود فى همدان وحل محله ابن أخيه محمد، وفى تلك الآونة كان التدهور قد بدأ يدب فى أوصال الدولة السلجوقية ، فتدفق الغز على خراسان ، وبالقبض على سنجر تم القضاء على الفرع الخراسانى من السلاجقة، وتقدموا إلى جرجان إلا أن أتابكة آذربيجان قاوموهم ، وعندما أراد محمد أن يتدخل فى شئون بغداد كمافعل أسلافه لم يذعن الخليفه له ، فحاصر محمد بغداد ، وظل الخليفة صامدا هو وجيشه الذى كان قد حشده من الأكراد ومن غلمانه وأخذ يحرض الأتابكة على محمد، فاضطر محمد إلى فك الحصارعن بغداد لمقاومة الأتابكة وعاد إلى فارس وأفلتت الخلافة من يد السلاجقة واستعادت استقلالها بعد سنوات من الخضوع .

وبعد المقتفى تولى الخلافة ابنه يوسف بلقب المستنجد بالله عام 555 هـ ، فألقى القبض على أخيه الذى تآمر مع عدد من الجوارى لقتل الخليفة، وقتل عددا وأغرق عددا آخر فى نهر دجلة، وتولى شئون الخلافة بسياسة تتسم بالعدل، وفى العام الحادى عشر من خلافته أراد أن يلقى القبض على رئيس ديوانه وكبير غلمانه ، لكنهما علما بما عزم عليه فألقيا القبض عليه وحبساه بالحمام [1] إلى أن توفى فى عام 566 هـ ونصب بدلا منه حسن المستضىء بأمر الله ، ويقال إنه كان خليفة عادلا وكريما، وقد زالت الخلافة الفاطمية من مصر فى عهده وتوفى المستضىء بمرض الخناق فى عام 632 هـ، وتولى الخلافة من بعده ابنه أحمد الملقب بالناصر لدين الله وكان رجلا ماكرا إلا أنه كان يحب

(1) وكان مريضا بمرض الالتهاب، فكان الحمام ضارا به ، مذكرات آقاى ميبوى

العمارة والتشييد ، وكان يولى أهمية لأعمال التجسس وكان يعين العيون فى بلاط الأمراء فى المناطق المجاورة وكان يطوف بنفسه ليلا فى المدينة يتجسس أخبار الناس، وفى عهد الناصر بلغت دولة صلاح الدين الأيوبى أوجها، وبلغت الحروب الصليبية أوج اشتعالها، ولم يكن الخليفة يتدخل بأى صورة فى هذه الحروب ، ولكن كان المجاهدون يشاركون فيها باعتبارهم متطوعين من مختلف أرجاء العالم الإسلامى .

وفى تلك الآونة كانت الدولة الخوارزمية التى حلت محل السلاجقة قد بلغت أوج قوتها فى فارس ، وفى عهد الناصر قرر محمد خوارزمشاه، الذى كان يكن الحقد للخليفة، أن يقضى على العباسيين وأن يولى أحد السادات من خراسان ويدعى سيد علاء الملك الترمذى خليفة ، وحرك فى عام 614 هـ جيشا كبيرا بهذا الهدف إلى بغداد وفى همدان أتى الشيخ شهاب الدين السهروردى شيخ صوفية بغداد سفيرا من قبل الخليفة لدى خوارزمشاه ، فاستقبله الشاه ببرود وتجاهل تام ، فقدم الشيخ بيانا فى فضائل بنى العباس وخاصة الناصر، وأثبت بالحديث والتاريخ أن العدوان على بنى العباس أمر مستهجن ، إلاأن خوارزمشاه فقد أدلته وأغلظ له الرد قائلا إن معظم بنى العباس ولدوا فى السجون، وأكد له رغبته فى تنصيب أحد سادات أهل البيت بدلا منهم تتوفر فيه كل هذه الفضائل الحسنة ، فعاد السفير خالى الوفاض ، وانشغل الخليفة بإعداد أسباب التحصن إلا أن خوارزمشاه عاد من حلوان بسبب البرودة الشديدة وأجل ماعزم عليه الى العام التالى ، وفى العام التالى تبدلت الأوضاع فى فارس بسبب غزو المغول .

توفى الناصر فى عام 622 هـ بعد ستة وأربعين عاما فى الخلافة فى سن السبعين، وتولى الخلافة من بعده ابنه محمد الملقب بالظاهر بالله الذى قضى فترة من حياته فى سجن أبيه ، وكان رجلا عادلا وقام بإلغاء جهاز الجاسوسية الذى أنشأه أبوه ، وخلفه ابنه المنصور الملقب بالمنتصر بالله وكان عظيم الاهتمام بتشييد المبانى الخيرية وأنشأ جامعة المستنصرية ببغداد والتى ورد ذكرها مفصلا فى رحلات ابن بطوطة وكتاب الحوادث الجامعة وجلس على العرش من بعده ابنه عبدالله الملقب بالمستعصم بالله فى عام 640 .

كان المستعصم رجلا يهوى المرح ، فكان يقضى معظم وقته فى سماع المطربين ومشاهدة المهرجين أو مطالعة الكتب ، وراج فى بلاطه سوق الدسيسة والتآمر إيما رواج،

واشتد الصراع بين وزيره مؤيد الدين ابن العلقمى والأمراء ، وفى عهده نشب الصدام بين السنة والشيعة فى بغداد ، وهب أبو بكر بن المستعصم لنصرة السنة ضد الشيعة ، وكان ابن العلقمى يكن الضغينة للخليفة ، وكان الوزير نفسه شيعيا ، لذا فعندما اتجه المغول صوب بغداد كان البلاط منقسما على نفسه ، وعندما كان هولاكو قائد المغول لايزال فى همدان منشغلا بجمع صفوف جيشه تم تبادل العديد من السفارات بينه وبين الخليفة ، وكان قائد المغول يطالب بالطاعة والخضوع ، وكان وزير الخليفة يعتقد فى إمكانية دفع شره عن طريق الهدايا والخطبة وسك العملات ، إلاأن قادة الجيش كانوا يعارضون المهادنة مع المغول ، وأمر الخليفة بتعبئة الجيش بتأثير منهم .

عبر المغول دجلة من منطقة تكريت وهبطوا منها صوب بغداد ، فلاذ الناس بالفرار من كل صوب ولقى الجيش الصغير الذى أرسل لرد الغزاة الهزيمة سريعا ، وبلغ الغزاة قلب المدينة وأعملوا النهب والقتل وخربوا أسوار المدينة بآلاتهم الحربية ، فاضطر المستعصم للاستسلام وبعد أن جمع المحتلون أموال الخليفة وخزائنه أخذوا الخليفة الى ظاهر المدينة وقتلوه ، وفى رواية انهم لفوه فى ملاءة إلى أن توفى ، ثم أخذوا فى القتل والتخريب العام فى المدينة وبهذا سقطت بغداد بعد عدة قرون من السيادة الدنيوية والدينية .

ولكن لم ينته أمر الأسرة العباسية بهذه الواقعة ، فقد فر أحد أفراد الأسرة الى مصر ، فاستقبله الملك حينئذ وهو بيبرس الذى كان واحدا من أسرة المماليك ، واعترف به خليفة بلقب المستنصر بالله ، ولكنه لم يتدخل فى الأمر بأية صورة وظل نسله على هذه الصفة المعنوية الى أن استولى السلطان سليم الاول العثمانى على مصر فى عام 923 ، ونقل صفة الخلافة الى نفسه بعون من مفتيى اسلامبول الأحناف خلافا لمبدأ " الأئمة من قريش " ، وصرح لآخر الخلفاء العباسيين المتوكل الثالث بالعودة إلى مصر حيث توفى هناك فى عام 945 هـ ، وزالت الأسرة تماما بموته .

فى خلال هذه القرون العديدة من التاريخ نشأت فى العالم الإسلامى حضارة عظيمة من امتزاج العناصر المختلفة والحضارات المتباينة التى اجتمعت تحت لواء الإسلام الواحد عرفت بالحضارة الإسلامية أو الحضارة العربية نظرا لأن لغة هذه الحضارة كانت العربية وانتشرت فى أرجاء العالم بهذه اللغة

وقد اشرنا إلى هذا الموضوع الضخم الذى دونت فيه مجلدات كلما سنحت الفرصة أو استدعى الأمر وأوردنا إشارات عن الأوضاع الاجتماعية التى سادت فى تلك العهود ،

ويمكن للمرء من مطالعته لهذه الأوضاع أن يدرك أن المجتمع الإسلامى قد قام على أساس الدين الإسلامى الحنيف ، ثم وجد الثراء والبذخ طريقه إلى الطبقات العليا من المجتمع على أثر الفتوحات ، فتبدلت الخلافة إلى سلطنة وطوى النسيان الطريق الذى رسمه النبى (ﷺ) واستبدل به سبيل القياصرة والأكاسرة مصداقا لقول النبى (ﷺ) " لتركبن سنن من قبلكم "، ونتيجة لهذا الانحراف اختل التوازن وتهيأت أسباب التدهور والضعف وفى النهاية زالت الخلافة تماما.

ولكن ظهرت فى هذه الحضارة ثقافة كبيرة وهامة كان لها أعظم الأثر فى تطور حضارات الدنيا ولم تقتصرفائدتها على الشرق الإسلامى وحسب بل ونهلت أوربا العصور الوسطى من نبعها الفياض، فحققت العلوم والآداب تطورات هائلة فى عهد العباسيين فمن ناحية تقدمت العلوم المرتبطة بالدين و اللغة مماااقتضاه الإسلام والتعريب، ومن ناحية أخرى تطورت الفلسفة والعلوم التى تسمى " دخيلة " عن طريق الترجمة عن الأمم الأخرى ، واتجه علماء الإسلام إلى التعمق والبحث فيها ، وكان مركز هذه الحركة بغداد حيث اجتمع بها العلماء من مختلف الأعراق واشتغلوا بالعلوم فى ظل الخلفاء والموسرين ، من محبى العلوم ، وكان العلم والبحث شغلهم الشاغل ، ونشطت فى هذا المجال مدن كبرى أخرى من قبيل البصرة والكوفة والرى وبخارا ونيسابور وغيرها كل فى عصر من عصور هذه النهضة ، وامتدت أمواج المعرفة من الشرق الى الغرب، وظهر بالاندلس مركز كبير آخر ينافس مركز بغداد ، وبلغ نورها الى أوربا القرون الوسطى التى كانت غارقة فى ظلمات الجهل ، وكانت الحروب الصليبية عاملا آخر فى الاتصال بين الشرق والغرب وظل الأوربيون يستوعبون حكمة اليونان فى مدرسة علماء الإسلام إلى ماقبل النهضة .

ومما يؤسف له أنه لم يبق من زحمة الكتب التى دونت فى العصر العباسى بقلم علماء الإسلام سوى قدر يسير بينما ضاع معظمها فى طى الأحداث ، ومن بين ماتبقى الكتاب القيم الذى دونه محمد بن اسحق النديم الذى دون فهرسا للكتب التى وضعت حتى زمانه ونجد به مايدل على العظمة التى بلغتها تلك النهضة العريضة .

قائمة المحتويات

الموضوع	الصفحة



رقم الإيداع: 5807 / 1993

الترقيم الدولى الموحد للكتاب:

I.S.B.N: 977-223- 127-1



